مصطفى عبيد

ضد التاريخ

تفنيد أكاذيب السلطة وتبديد أوهام الشعب

ساحر الكتب

إلى

إبراهيم عيسى

بعض محبتي

«مصطفى عبيد»

عتبة دخول

التدبر ضرورة حياتية، لازمة لاستمرار العالم، تنفيذ للأمر الإلهي باستخدام العقل، وسعي نحو مقاربة العدالة في الحكم على الأمور.

أن نعقل، ونُحلِّل، ونُفكِّر، ونطرح، ونُناقش، ونُعيد قياس الأمور، ووزن الناس، فتلك فضيلة بلا شك. أن نرفض ما وجدنا آباءنا عليه، بمنطق الاجتهاد، ونحاول إعادة القراءة، وإعادة الفهم، فنحن نروم مراد الله في التساؤل والشك والتمعُّن استجلاءً للحق وسعيًا نحو الحقيقة.

وهذا الكتاب محاولة تدبُّر في تاريخنا الحديث، تنطلق من قاعدة نفي الحصانة، ونبذ المُسلَّمات الموروثة جيلًا بعد آخر، وإلقاء كافة ما يُسمى بثوابت التاريخ وراء ظهورنا. هو نبش جديد يخاصم فكرة تحصين الرموز التاريخيين، ويقاوم قانون المُسلَّمات غير القابلة للنقاش.

ليس التاريخ ما رواه المنتصرون، سُلطة وشعبًا، وإنما ما نراه اليوم، ويراه أولادنا من بعدنا بشكلٍ آخر، ثم تراه أجيال خلف أجيال، كلٌّ بنظره، وبقراءته الخاصة.

لا توجد قراءة واحدة للتاريخ، وإنما هي قراءات متعددة. لا حقائق ثابتة، لا أحكام نهائية أبدًا، فكل الأحداث يمكن

إعادة قراءتها بزاوية جديدة لينقلب كثير من الأبطال إلى خونة، وربما يتحول بعض الأشرار إلى شهداء.

لا ينتمي الكتاب إلى كتب الصدمات بمنطق كافكا القائل إن «الكتاب الذي لا يصدمك لا يستحق قراءته»، ولا يحاول أو يدَّعي ذلك. ليس هذا غرض التفرُّغ شهورًا للاطلاع والتفكر والتدبُّر ثم قضاء فترات أطول في الإعداد والكتابة والمراجعة.

لا يحاول الكتاب إثارة ضجة، أو افتعال جدل، أو لفت أنظار، وليست تلك نيَّة الكاتب ولا غايته. قطعًا لا يستهدف شهرة، أو يسعى لسحق مشاعر ما، أو الإساءة لرمزٍ بعينه (مع التحفظ الكامل على مصطلح رمز). لا يقصد الكتاب ولا الكاتب حتى تقديم تاريخ موازٍ، أو رواية أخرى للماضي وشخوصه. لا كل هذا ولا غيره، وإنما هي كتابة تحاول الاختلاف، وربما هي مجرد اختبار لتقبُّل التعددية، والتسامح مع الآخر من خلال نظرة جديدة لتاريخنا الحديث. وربما هي محاولة للقول إن هناك آراءً أخرى، وحكايات أخرى، وتحليلات أخرى، واستخلاصات مغايرة لما سبق أن تعلَّمناه وشربناه وهضمناه سنين عددًا. وربما هي تجربة قياس لقدراتنا على استعادة منهج الشك الديكارتي، وتفعيله في كل شيء بغرض واحد ووحيد، هو مقاربة الحقيقة والعدالة.

وربما أيضًا هي تجديد لمنهج قديم يُعادي التعصُّب طرحه فقهاء الدين الأوائل عندما حاولوا تعليمنا القانون المستوعب للآخرين «بأن رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب».

أن تفتح عقلك لكل الأطروحات الخاصة بتاريخك لتناقشها بصفاء ودون افتراضات سابقة، فأنت تُربي في ذاتك نفس وثَّابة راشدة ساعية للإنصاف، معادية للتعصب، مُحصنة ضد التطرف وممارسة الإرهاب قولًا وفكرًا.

أن تحاول إعادة وزن الشخوص، بعيدًا عن رغبات السُّلطة، وبمعزل عن تصورات الشعب، بتجرُّد تام، وإيمان راسخ، بأن التاريخ ليس ما يُروى، وإنما هو مدى استجلائنا للقيم الناظرة للبشر على كونهم بشرًا يحملون قوة وضعفًا بشريين وليسوا ملائكة أو شياطين. فأنت لا شك على الطريق الصحيح.

التاريخ ليس طريقًا واحدًا، ليس مسألة حسابية، ولا تجربة معملية معروفة النتائج مسبقًا. التاريخ آراء، وأفكار، وتصورات متلاطمة لا تقبل القراءة المنفردة. من هنا فكرت في أنَّ طرح رؤى أخرى لا تخضع لهوى شخصي، ولا ترضخ لتوجيه سُلطوي، ولا تنبثق من وعي ذاتي قد يكون أمرًا لازمًا لتمرين العقل على رفض الجمود وقبول التعدُّد والرحابة في

الرأي، انطلاقًا من إيمان حقيقي بأن التاريخ الرسمي، أو الشائع، أو المُجمَع عليه ليس صحيحًا بالضرورة، خاصة أن عملية كتابته وطرق تدريسه وتقديمه خضعت جميعها لرؤية السلطة، سواء كانت سلطة الحكم أو حتى سلطة المحكومين، وهي سلطة أكثر ديكتاتورية وأقل عقلانية، وغير منصفة في أحكامها.

إن التفكر والتدبر فيما يُصَب علينا من حكايات، وما يُلصق في عقولنا من حجج وتبريرات وقراءات للأحداث ضرورة تُحتمها علينا الرغبة في التطور والسعي نحو العدل. لقد كانت فلسفة خصوم الأنبياء والمصلحين عبر التاريخ، هي اتباع إرث الآباء الفكري دون تأمل وتفكر، ومن ثم رسوخ حالة الجمود، واستمرار الفساد.

بهذا المنطق أعاد الباحث، الذي يؤمن إيمانًا راسخًا بأنه طالب علم حتى يلقى ربه، النظر في أمور تاريخية عديدة كان يتصورها البعض محسومة سلفًا ليعيد قراءتها بعين مُستقلة، وعقل رحب، ورغبة في التعمق والانتصار للصدقية.

وقطعًا ليس ما يراه الباحث هو الحق المطلق، ويقينًا لا يُمكنه الادعاء بأن قوله هو الصواب المكتمل، لكنها محاولة لزيارة عصرية مختلفة للتاريخ المصري الحديث والذي بلا شك تعرض للتزوير والتوجيه والمبالغات.

وحسب الكاتب أنه لم يكن الأول فيما يطرح، وأنه استفاد من كتابات عديدة لمُحققين ومُدققين وكُشاف، وحكائين، وساعين للحقيقة، قالوا ما رأوا، ودونوا ما عرفوا، ومضوا إلى الضفة الأخرى ليجازيهم الحكم العدل جزاء اجتهادهم وجزاء ما تركوا لنا من كتابات. لقد أضافوا واجتهدوا وحفزوا العقل المعاصر على التدبر والقراءة، لكن رغم ذلك فإن أمواج التوجيه وأطروحات التلوين، وتدخُّل تيارات السياسة لعبت دورها في قولبة التاريخ، وتأميمه.

يُقدر المؤلف جهاد السابقين الأفاضل، الذين تركوا لنا علمًا نافعًا، يُتفق ويُختلف معه، مثل: حسين مؤنس، عبد العظيم رمضان، رؤوف عباس، محمد أنيس، يونان لبيب رزق، لطيفة سالم، ومحمد عفيفي، وغيرهم من الكشافين المشهود لهم بالاحترام والموضوعية، ويُنحنى لهم احترامًا وامتنانًا.

ويُقدر كذلك إسهامات الكتاب من خارج تخصص علم التاريخ وحكاياتهم المُدهشة، الواردة في ثنايا السِّير، وكتب الشهادات، وخلفيات الروايات التي تتناول أزمنة ماضية، من أمثال صلاح عيسى، طارق البشري، صبري أبو المجد، ومحسن محمد، ويعتبر جهدهم إضاءات موصولة قد تلعب دورًا في الإنصاف ورد الاعتبار والتفكير بشكل آخر.

وبعد.. فليس هذا كتاب تاريخ، وإنما كتاب عن التاريخ. لا

يستند الكتاب إلى اكتشافات جديدة، وإنما يعتمد قراءة جديدة لأحداث ماضية. وينطلق من رحابة العقل البشري متسقًا مع فكرة التعدد، ونافيًا القداسة للبشر، ومحاولًا أن يقول بوضوح إنه لا توجد حقيقة راسخة، ولا يوجد علم يقيني، وإن الشك ضرورة للعلم، وللفهم، وللوعي.

والله وحده هو أعلم العالمين.

مصطفى عبيد

المقطم ـ أغسطس 2021

مصطفى كامل ليس زعيمًا وطنيًا

«إنه مثل رجل أطلق صوته بالغناء، فوجد أناسًا يسمعون، فاستمر في غنائه، وصار يزيد من الصياح كلما زاده الناس إصغاء، ولم يُصادف في طريقه شيئًا من العقبات».

سعد زغلول متحدثًا إلى قاسم أمين عن مصطفى كامل

- 1 -

الزعامة في بلادنا نصيب، محبة، وربما بركة، وفي العالم المُتحضر نتائج وأرقام وحقائق. يتباين ميزان العظمة من زمن لزمن، ومن مُجتمع لآخر، وتلعب المصادفات الغريبة، ومعها أبواق النفخ وقصائد الشعر والمقالات الموجهة، وفي بعض الأحيان المكايدات السياسية دورًا عظيمًا في تضخيم ذات إنسان، والحط من قدر آخر.

وهذا في تصوري، ما جرى مع مصطفى كامل، الذي مع عظيم تقديرنا لما قدم في زمنه، لا يستحق كل هذا الاحتفاء، ولا يمكن مساواته مع أقرانه من الزعماء الوطنيين في زمن الاحتلال، ولا حتى مع تلميذه وخليفته في زعامة الحزب الوطني محمد فريد.

إنني أفترض وأتصور أن السُّلطة في زمن مصطفى كامل لعبت دورًا مهمًّا في تضخيم صورته وتعظيم دوره، كما حدث

الأمر نفسه في زمن ثورة يوليو بغرض صناعة نجم موازٍ لأسطورةٍ شعبية عظيمة اسمها سعد زغلول، ولكن شتان بين الاثنين عملًا وأداءً ونتائج.

لقد كنت وما زلت مندهشًا من حجم النفخ الصاخب في شخصية مصطفى كامل وفي تصويره في مكانة أكبر كثيرًا من حجم أعماله لدرجة تدريسه للطلبة باعتباره زعيمًا عظيمًا.

كنت أستغرب أن أجد الكتب المدرسية تحتفي بالرجل كل هذا الاحتفاء رغم أنه لم يُشعل ثورة شعبية مسلحة مثلما فعل سعد زغلول، ولم يقم ببناء مؤسسات وطنية راسخة مثلما فعل مصطفى النحاس، ولم يُقدم تجربة مواجهة لحكم مستبد ومتسلط مثلما حاول غيره.

كذلك فقد كان من أسباب دهشتي أن الرجل ـ مع تقديري لعظيم ما قام به في مناهضة الاحتلال البريطاني - انطلق في نضاله من أجل مصر من فكرة قديمة ساذجة ترى عودة مصر كولاية عثمانية مرة أخرى. بمعنى أنه لم يُطالب باستقلال مصر لتُصبح ملكًا للمصريين، وإنما لتعود لحضن الخلافة دولة تابعة، خاضعة، يتحكم فيها الأتراك كما شاءوا.

لم يكن الرجل ذو الثقافة الفرنسية والقدرة البليغة على الخطابة يتصور أن المصريين يجب أن يحكموا أنفسهم. كان

يولي وجهه شطر السلطان العثماني في الآستانة، وكان يستمد تشجيعًا ومؤازرة ومعاونة كبيرة من الخديوِ عباس حلمي الثاني، الحاكم الذي رأى فيه نموذجًا لصوت مختلف يمكن أن يُسبب برقته وأناقته ومظهره الهادئ حرجًا للإمبراطورية البريطانية في مُحيط أورُبا.

صحيح أن مصطفى كامل مُصلح خطابي ناضل بالكلمة والفكر والخطابة للدعوة لاستقلال مصر، لكنه في واقع الأمر لم يغير من سمات المصريين شيئًا، ولم يصنع تطورًا في فكرهم مثلما حدث فيما بعد على يد لطفي السيد عندما أطلق قبل بضع سنوات من ثورة 1919 صيحته الشهيرة «مصر للمصريين».

وتصوري، فإن صناعة الهالة حول الرجل بدأت يوم وفاته في ريعان الشباب، ثم اتسعت وتصاعدت بعد ثورة يوليو 1952 بهدف إحداث توازن في أذهان الناس بين زعماء الوفد بشكلٍ خاصٍّ ومناضلين آخرين بما يُغطي على عظائم الوفد ويمثل طرحًا منافسًا.

وهكذا، لم يكن غريبًا أن تحشد الدولة المصرية يوم 11 فبراير سنة 1953 كل طاقاتها وإمكانياتها لتقيم أعظم احتفال بمصطفى كامل بعد وفاته بما يقارب نصف القرن، حيث أُعيد نقل جثمانه عبر موكب عسكري ضخم يتقدمه

اللواء محمد نجيب، والبكباشي جمال عبدالناصر، وعدد من أعضاء مجلس قيادة الثورة، وجمع من الصحفيين والمصورين، وعبر الموكب شوارع القاهرة وصولًا إلى مسجد الكيخيا لتتم الصلاة على جثمانه مرة أخرى بعد خمسة وأربعين عامًا على وفاته، ثم يُنقل بعد ذلك إلى الضريح الجديد المُقام له بمنطقة القلعة.

في الوقت ذاته، تم إذاعة فيلم عن حياة الرجل كتبه فتحي رضوان، في الوقت الذي تم فيه بعد ذلك منع كتاب لمصطفى أمين حول أسرار ثورة 1919، وهو ما دفعه إلى إصداره في الثمانينيات تحت عنوان «الكتاب الممنوع».

لقد حاولت السلطة في تمييعها للتاريخ أن تختزل سعد زغلول في ثورة، أصروا دومًا على وصفها بالفاشلة، وأن يتخذ الخطاب الرسمي موقفًا لا منطقيًا من جهاد المصريين مع سعد والنحاس.

بالطبع لا يعني ذلك أن أُشكك في نوايا مصطفى كامل أو في وطنيته، لكنني بضمير مرتاح لا أعتبره زعيمًا كبيرًا يتساوى مع عرابي أو سعد زغلول أو النحاس باشا. ومعياري هنا يستند إلى القيمة والمنهج الذي كان يناضل من خلاله، وهو أن تعود مصر مرة أخرى دولة خاضعة لتركيا.

***

- 2 -

يمكن في تصوري قراءة صورة هي الأقرب والأخلص لمصطفى كامل من خلال كتاب شقيقه علي فهمي الذي صدر سنة 1908 عقب أسابيع قليلة من وفاته، وحمل عنوان «مصطفى كامل في 34 ربيعًا»، ثم أضيف إلى العنوان عنوانًا آخر شارحًا هو «سيرته وأعماله وأحاديث ورسائل سياسية وعمرانية». وقد صدر الكتاب في ثلاثة أجزاء وكان سعر كل جزء ثلاثة قروش صاغ، كما كُتب على الغلاف أنه تم طباعته في مطبعة اللواء بشارع الدواوين نمرة 29 بمصر، وفي الصفحة الأولى للكتاب أطلت علينا صورة مصطفى كامل وتحتها عبارة تقول إنه ولد في 4 أغسطس سنة 1874 وتوفي يوم الاثنين 10 فبراير 1908.

وبعيدًا عن الاستغراب الناتج من ديباجة المقدمة المادحة التي تصل إلى حد القول عنه إنه «نهض رضي الله عنه وعلى وجهه سيما الهداية وفي معارفه قبس التوفيق فأرسل من صدره المملوء حكمة وأملًا ويقينًا وهز بناء اليأس فتداعى وانهارت حجارته تباعًا ثم استمال إلى الحياة أبناء وادي النيل الأعزاء..»(191)

فإننا نستطيع القول إن قيمة هذا الكتاب تكمُن في كونه

يُقدم حياة مصطفى كامل وجهاده ونضاله برؤية أقرب معاصريه إليه، وهو شقيقه علي فهمي، الذي يتحدث باستفاضة عن جذور الرجل وطفولته وسمات العبقرية المبكرة، ودلالات العظمة الظاهرة.

ومن هذا الكتاب القديم نعرف مثلًا أن والد مصطفى كامل، هو محمد علي سليمان، من طنطا، وأنه كان من خريجي مدرسة محمد علي بطُره، وعمل ضابطًا ومهندسًا في خدمة بيت الباشا ووصل إلى رتبة يوزباشي في عهد عباس الأول، وتزوج وهو في التاسعة عشر من عمره، لكنه لم يُنجب إلا في سن الثانية والأربعين.

ونعرف أيضًا أن محمد علي سليمان تزوج ثلاث مرات، وأنجب سبعة ذكور وبنتين، فضلًا عن آخرين ماتوا صغارًا، وضمت قائمة الذكور محمد أفندي علي وقد عمل بالصيدلة وتوفي شابًا، ثم سليمان أفندي ودرس الحقوق وعمل في المحاكم المختلطة، ثم حسين واصف بك، ودرس الحقوق هو الآخر، لكن كان له شأن عظيم إذ عمل مديرًا للفيوم ثم محافظًا لقناة السويس، وقد انتُدب قاضيًا في بعض القضايا، حتى إنه كان من فريق محاكمة سعد زغلول في قضية جمعية الانتقام سنة 1883. كذلك أنجب محمد علي سليمان، عبدالفتاح فتحي الذي تخرج في كلية الطب، لكنه

توفي في سن السادسة والعشرين من عمره، ثم تزوج الأب والدة مصطفى كامل فأنجب منها علي فهمي، ومصطفى كامل، وحسن حسني، وابنتين. (190)

والمعروف أن الأسماء في ذلك الوقت كانت في معظمها أسماء مركبة، وهو سلوك عام ساد المصريين جميعًا، وربما امتد ذلك إلى نهاية النصف الأول من القرن العشرين.

المهم أن الأبناء جميعًا ولدوا في منزل العائلة في حارة الميضأة بشارع الصليبة، وهو شارع شهير ما زال يحمل اسمه إلى اليوم في حي الخليفة بالقاهرة. وكانت سيرة الأب عطرة، وكان مضرب الأمثال في الأخلاق والورع والكرم حتى إن الناس أطلقت عليه أبا اليتامى. لكنه توفي في الثانية والسبعين من عمره وترك أموالًا كثيرة وقام حسين واصف بك الابن الأكبر باستكمال تربية الأبناء ومنهم مصطفى.

ومن الطبيعي أن نقرأ في سيرة الرجل بقلم شقيقه عبارات استحسان وإطراء لشقيقه الأصغر من عينة «كانت أمارات النجابة والذكاء بادية عليه منذ الصغر»، و«كان متفوقًا في كافة العلوم»، و«كان والدي يقول عنه إن ابني هذا سيكون له شأن كبير لأن عقله أكبر كثيرًا من جسمه»، لكننا رغم كل ذلك نندهش من بعض الحكايات التي وردت بين ثنايا السيرة

العطرة والتي تتناقض مع ذلك التفوق العظيم والنباهة الفائقة النادرة.

فمثلًا، يورد لنا علي فهمي قصة تعرُّف مصطفى كامل بعلي باشا مبارك وزير المعارف «التعليم» وقتها، وكان مصطفى في الصف الثاني الثانوي، وهي قصة دالة على عدم تفوق مصطفى دراسيًّا كما زعم. وتقول الحكاية إن مصطفى كامل ذهب يومًا إلى نظارة المعارف، وحاول الحاجب منعه من الدخول إلى علي مبارك باشا، فأخبره بأنه ابن الباشا، ثم دخل إليه، فشكا من قرار عدم نقل الطالب إلى الصف التالي إلا إذا حصل على 16 درجة من عشرين في مجموع درجاته، وكان مصطفى كامل قد حصل على أقل من ذلك، وجاء ترتيبه السابع بين أقرانه. وبعيدًا عن فكرة إعجاب «مبارك» بالولد الفصيح اللبق الذي رأى أن قرار الوزير متجاوزًا للعدل، فإن الحكاية تشير إلى عدم قدرة صاحب الترجمة على تحقيق التفوق المطلوب، كما تُشير إلى لجوئه للحيلة وربما للكذب للدخول إلى الباشا، مُدعيًا أمام الحاجب أنه ابنه، وهو ما برَّره فيما بعد بأنه يعتبر نفسه مثل ابنه.(189)

وثمَّة حكاية أخرى بالغة الدلالة، يوردها علي فهمي توحي بحجم التدليل الذي لاقاه مصطفى كامل في سنواته الأولى، فقد كان مصطفى طالبًا بمدرسة أم عباس الأول بالصليبة،

وفي يوم من الأيام عاد إلى والده حزينًا طالبًا منه أن ينقله إلى مدرسة السيدة زينب الثانوية، وسأله الوالد عن السبب الذي دفعه لهذا، فقال لأن المدرس نهره عندما سأل طالبًا أحد الأسئلة ثم لم يُجبه، وبادر بالإجابة بدلًا منه. واعتبر الوالد أن المعلم أخطأ بعقابه لابنه، والغريب في القصة أنه استجاب لابنه وقام بالفعل بنقله إلى مدرسة أخرى. وهنا، فإن الطالب اليافع اعتاد إجابة طلباته واعتبار كل ما يراه صحيحًا.

***

- 3 -

عندما انتظم مصطفى كامل في مدرسة الحقوق، كان عمره ستة عشر عامًا، ووقتها تعرف ببشارة تقلا صاحب «الأهرام» عن طريق خليل أفندي مطران، فسمح له بكتابة المقالات في «الأهرام» ليوقعها بإمضاء مصري أمين، أو مصري صادق.

وبدأ الطالب النابه في الكتابة في الشأن المصري الوطني، بهدوء وروية ولباقة واضحة حتى كأنك تقرأ قصائد عصماء، شديدة البلاغة، كفيلة بلفت انتباه أي قارئ. إننا نقرأ مثلًا في العدد 4545 للأهرام مقالًا له يورده شقيقه علي فهمي يقول فيه: «إنهم (يقصدالإنجليز) يحاولون إماتة كل مصري وتعويضه بعنصر إنكليزي تطلعًا للسلطة المحلية التي كادوا يتوصلون لجعلها سلطة إنكليزية فعلًا، مصرية اسمًا.. كل ذلك

بحجة الإصلاح وتسترًا باسم الحفاظ على الأمن والحقوق. ولنا بحادثة الوزارة الأخيرة وتطاولهم لسلب حقوق الحضرة الخديوية لو لم يحل دونهم حزمها العظيم شاهد عدل يؤيد ما هم عليه من فساد المقاصد وسوء النية ويدحض ما يأتيه أنصاره من الترهات، الأمر الذي أيقظ المصري من غفلة طول الأمل ونبه فيه عواطف الوطنية بعد الذبول فتحركت فيه روح الشهامة تحث على الرزانة والسكون لتعضيد أميره العزيز الذي أحيا في قلوب المصريين عنصر الأمل..»(188)

وهنا، فإن المناضل الشاب يندد بالاحتلال البريطاني، ويفند سلوكه وتصرفه، لكنه يتستر في كل ذلك بالخديو، ويغضب لأجله، بل ويعتبره دون استناد لأي حدث واقعي الرجل الذي أيقظ المصريين ونبههم إلى الوطنية.

ربما كان ذلك هو ما لفت نظر الخديوِ عباس حلمي للشاب اليافع، خاصة أنه كما ذكر شقيقه في سيرته شارك في يوم 20 يناير سنة 1893 في مظاهرة غضب عنيفة للتنديد بصحيفة «المقطم»، باعتبارها لسان حال الاحتلال البريطاني؛ لأنها هاجمت الخديوِ عباس حلمي الثاني ونددت بتوليته حكم مصر.

إننا نعرف من كاتب السيرة هنا أن مقالات مصطفى كامل في «الأهرام» كانت بداية تجربته لكتابة المقالات السياسية،

ويبدو أن مثل هذا المقال، كان فاتحة العلاقة مع خديوِ مصر، الذي رأى في الشاب الفصيح اللبق ذراعًا مساندة ومساعدة له، سواء داخل مصر بعد عقود طويلة من كراهية المصريين للحكام من أسرة محمد علي نتيجة ما فعله الخديوِ توفيق من خيانة لعرابي باشا وإعلان عصيانه. فمصطفى كامل هنا يمكن أن يُمثل جسرًا لاستعادة علاقة الشعبية للحاكم المصري، وكيف لا وهو شاب أنيق، وسيم، فصيح، ولديه قدرة على التأثير في الجماهير خطابة وكتابة.

***

- 4 -

في فبراير 1893 خطا مصطفى كامل خطوات واسعة نحو المجد السياسي واللمعان بإصداره وهو طالب بكلية الحقوق جريدة «المدرسة».

إننا لا نعرف على وجه اليقين كيف حصل الطالب الصبي على التمويل الكافي لإصدار هذه الجريدة، ولا نعرف كيف ارتفع عدد مشتركيها خلال ثمانية أشهر ليصل إلى 2400 مشترك، وما هو الذي دفع نظارة المعارف وقتها، إلى الاشتراك بنحو خمسين نسخة كما يقول علي فهمي. لكننا نلمح ببراعة من خلال تحليل مضمون بعض أعداد الجريدة أن الخديوِ ورجاله وسُلطته وخدَمه وخزائنه كانوا يقفون

جميعًا داعمين للجريدة منذ اليوم الأول، وليس أدل على ذلك من احتواء الأعداد الأولى على أناشيد عديدة في مديح الخديوِ، بل ومقالات كثيرة يُحررها مصطفى كامل نفسه ترتقي بحاكم البلاد إلى مصاف الرجال العظام والحكام النوادر الذين لا يتكررون.

إننا نقرأ في الأعداد الأولى من الجريدة مقالًا كتبه مصطفى كامل يقول فيه صراحة: «ويجب علينا جميعًا أن نقتدي بأعمال أميرنا الجليل الذي غبطتنا عليه أحبابنا وحسدتنا عليه أعداؤنا..»(187)

ونقرأ له أيضًا نشيدًا في تحفيز الروح الوطنية يتحدث فيه عن الخديوِ عباس باعتباره الأمل والحصن الحصين، إذ يقول فيه:

أنتم بنو النيل السعيد

ذي العز والخير المديد

فاحموه بالجد المزيد

فبكم بنوه يستعين

أنتم بنوه فما لكم

لا ترفعوا ما قد هُدم

وعزيز مصر أمامكم

«عباسنا» الحصن الحصين

هذا الأمير بجده

وبحبه لبلاده

قد نال كل مراده

وغدا على مصر الأمين(186)

وفي عددٍ تالٍ نقرأ نشيدًا آخر ركيكًا في مديح الخديوِ يقول فيه:

يا بني الأوطان فخرًا

فمعاليكم كبار

وتلقوا العصر حرًّا

لكم فيه اشتهار

جازت النجم الأريك

وعلا التاج ازدهار

أنت عباس المليك

كيف لا ترقى الديار

لك مصر يا عزيز

ولك النيل مسار(185)

ولا يكاد يمر عدد من أعداد «المدرسة» دون ذكر ودعاء وإشادة بالخديوِ العادل العظيم، فخر البلاد وأملها، وهو ذكر يأتي في بعض الأحيان منضويًا تحت شكر ومديح آخر لحضرة السلطان العثماني الأعظم، أمير المؤمنين الذي يملك كل البلاد وما عليها. وحسبنا أن نقرأ مثلًا في إحدى مقالات الرجل إشارة إلى لقاء له مع الأميرالاي بارنج، شقيق اللورد كرومر، يشير فيها إلى محاورة طويلة سأل فيها مصطفى كامل بسذاجة غريبة الأميرالاي بارنج عن نوايا الإنجليز في مصر، فأجابه بسؤال آخر إن كان مصريًّا أم عثمانيًّا. لكن مصطفى كامل لا يجد فارقًا بين الاثنين فيجيب الرجل قائلًا: «أنا مصري عثماني». ويرد الرجل متعجبًا: «كيف؟ هل تجتمع الجنسيتان معًا؟»، فيقول مصطفى كامل مفتخرًا: «نعم هما جنسية واحدة لأن مصر بلد تابع للدولة العلية، والمتبوع لا يختلف عن تابعه في أي شيء من أحكامه».

والمؤسف أن كثيرًا من مقالات «المدرسة» لا ترى مفهوم الوطنية سوى تبعية مصر للدولة العثمانية، وهي تخلط بين القومية المصرية وبين القومية العثمانية خلطًا فاضحًا. بل

إننا نقرأ في معظم المقالات الأولى بالجريدة لمصطفى كامل خطابًا دينيًا زاعقًا، شديد الشبه بخطاب جماعات الإسلام السياسي الآني في انغلاقه وحدِّيته ونظرته الاستعلائية تجاه أي آخر. يقول مصطفى كامل في إحدى مقالاته: «عباد الله المسلمين: اعلموا أن الشيطان يعدكم الذل والخيبة ويلقي في قلوبكم اليأس ويملأ صدوركم من الوسوسة لكي يخمد حرارة إيمانكم فتقعدوا عن نصرة دينكم الحق واعلموا أن الله جعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا فلا تتبعوا خطوات الشيطان ولا تكونوا على نصرة دينكم قاعدين...»(184)ثم يكتب أيضًا: «فيا أيها المؤمنون بآيات الله: لا تكونوا من الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعضه واعلموا أن دينكم الإسلام سيحيط بأقطار الأرض وتنبسط أنواره على البسيطة وما ذلك على الله بعزيز. فلا تلقوا بأسماعكم إلى الذين يصدون عن سبيل الله ويدعون المؤمنين إلى القعود ويمنعونهم عن نصرة الدين ويظنون في الله ظن السوء ولا يقولون إلا بالظن ويضربون لكم أمثالًا ما أنزل الله بها من سلطان. فيا إخواني هلموا لنصرة دينكم ..»(183) ونلاحظ أن علاقة الصداقة والوصل تتسع وتتطور بين الطالب مصطفى كامل وحاكم البلاد الذي يُغدق على رجاله، ويتحمل مصروفاتهم، ليسافر الطالب الصاعد إلى أوربا في رحلة عمل وخطابة وسياحة واستمتاع، ويكتب عن

كل شيء رآه هناك، وينتقل بين مدائن أورُبا ويزور معالمها التاريخية والعمرانية، ويتيه عجبًا وحبًّا في فرنسا، أمة الأحرار، ثم يُنظم مظاهرات تأييد ودعم للخديو، وللسلطان عبدالحميد نفسه، ويفتخر بنشر مظاهرات التأييد في جريدته.

ولا يفوِّت شقيق المناضل الشاب الفرصة ليبرهن على صحة وسائط الدعم والرضا السامي من الباب العالي للشاب الفصيح، فيتغنى بتلك العلاقة إذ يكتب معلقًا عليها: «وكيف لا يكون كبيرًا مَن يُقال إن جلالة السلطان الأعظم وثق فيه من بين أبطال العثمانيين، واختاره من بين مئين المسلمين، وكيف لا يكون كبيرًا مَن يُقال إن أميرًا جليلًا من أمراء الشرق (الخديوِ عباس حلمي) انتدبه ليدافع عن القضية المصرية أمام محكمة الوجود!»(182)

بل إن علي فهمي ينشر ضمن سيرة شقيقه خطابًا من سفير الدولة العثمانية في باريس إلى مصطفى كامل يشكره فيه على تنظيمه مظاهرة تأييد له في باريس والاحتفال بعيد الجلوس السلطاني هناك، إذ يقول فيه: «باريس في 11 سبتمبر 1895.. سيدي: يسرني أن أخبركم بأن جلالة مولاي السلطان الأعظم قد أمرني أن أعرب لكم عن كامل رضا جلالته عن الشهادة الناطقة بأمانتكم وإخلاصكم للعرش

الشاهاني، أنتم وجميع إخوانكم المصريين النازلين في فرنسا بما أبديتموه في عيد الجلوس المأنوس. وأنا بتقديم تهنئتي لكم على جليل تعطفات مولاي السلطان المحبوب أغتنم هذه الفرصة لأكرر عبارات احترامي واعتباري لكم.. والسلام»(181).

- 5 -

في سنة 1928 نشرت مجلة «الاثنين والدنيا» خطابًا أرسله مصطفى كامل إلى الخديوِ عباس حلمي من باريس يشكره فيه على تسفيره له إلى باريس للدفاع عن حقوق مصر، وهو ما يكشف بجلاء حدود علاقة الرجل بسيده(180).

الخطاب المذكور يرجع لشهر سبتمبر سنة 1895 وفيه يقول مصطفى كامل بادئًا بكلمة مولاي: «إن الثقة التي جعلتموني محلها بموافقة سموكم على سفري إلى أورُبا للدفاع عن حقوق أمتي وبلادي زادت كثيرًا من نشاطي في تأدية ذلك الواجب المقدس، وفرضت عليَّ أن أحيط علم مولاي بكل ما هو جارٍ في أورُبا بشأن مصر وبكل ما من شأنه خدمة الأمير المحبوب والوطن العزيز. ولما كانت المدة التي قضيتها إلى الآن كافية لأن أقف فيها على حقائق الأشياء، وأعرف النافع من الضار، رأيت من الواجب عليَّ أن أرفع

لسموكم هذا التقرير تبيانًا لحقيقة الحالة الحاضرة وللمسائل التي تمهد سبيل الجلاء..»

واستعرض خطاب الرجل تفاصيل انشغال الرأي العام الأورُبي بالمسألة المصرية وحاول تحليل الموقف السياسي بين روسيا وفرنسا، مع إشارات واضحة للدور المنتظر من ألمانيا وأهمية قيام مصر بتقوية وتعضيد علاقاتها بها.

واقترح مصطفى كامل في خطابه التقرب إلى ألمانيا عن طريق الصحافة باستخدام جريدتين، ودعوة أبناء الإمبراطور غليوم لزيارة مصر في فصل الشتاء عن طريق القنصل الألماني. وذكر أن هذا الأمر سيلقى موافقة الإمبراطور لأنه يحب أن يشتهر اسمه في الشرق، لكنه اقترح أن يعود أبناء الإمبراطور غليوم من مصر مُحمَّلين بالهدايا النفيسة؛ لأن في ذلك استمالة لوالدهم إلى جانب مصر وأميرها، بل يضيف ضمن اقتراحاته القول بأن يُكلف الخديوِ عددًا من الصحفيين ليتابعوا حركة أبناء الإمبراطور في مصر خطوة بخطوة لما في ذلك من أثر طيب على نفس الإمبراطور.

ثم يتحدث مصطفى كامل في خطابه عن الأحوال في السودان وما نما إلى علمه بشأنها ثم يختتم بعد ذلك خطابه بقوله: «هذا ما أردت رفعه لسموكم.. وإني أُقبِّل الأعتاب

الشريفة وأسأل الله حفظكم وتحقيق الأماني والآمال إنه سميع مجيب.. التابع الأمين والمصري الصادق.. مصطفى كامل».

ومثل هذا الخطاب يكشف جوانب كثيرة في شخصية الرجل، فهو يُقدم نفسه دائمًا، بوصف المصري الصادق سواء في خطاباته إلى مولاه أو في توقيعه على مقالاته بالأهرام، وهو تصور يحمل قدرًا من النرجسية يتجاوز فكرة التواضع المفترض في زعيم شعبي. كما أنه ممَّن يرون استخدام وتوظيف المال في أعمال السياسة من خلال تقديم الهدايا النفيسة لأبناء الإمبراطور، فضلًا عن رؤيته وتصوره بكونه تابع أمين لمولاه، وناصح له يُقبِّل أعتاب بلاطه الشريفة..

وفي تصور كاتب هذه السطور، فإن مثل هذه السمات تتناقض تمامًا مع فكرة الزعامة الشعبية المستمدة أولًا من الناس، فالبطولة الحقيقية لا يمكن أن تكون لشخص يستجدي دعم أمير البلاد، صاحب الأموال والثروات والعيون، وإنما لمَن يستمد عونه وقوته من الناس، العامة، المحكومين، فمَن يستند إلى الأمة هو وحده مَن يستحق رضاها وتخليدها.

***

والمؤسف أن موقف مصطفى كامل من كثير من قضايا الحداثة والتقدم كان شديد الرجعية، ولا يمكن تفسيره سوى بمغازلة القطيع وإرضاء الشعبوية دون إدراك لفكرة إصلاح المجتمع ودعم تمدنه وتحرره.

ونعني في ذلك بشكل رئيسي موقفه من قضية تحرير المرأة. لقد أطلق قاسم أمين دعوته لتحرير المرأة وتعليمها في سنة 1900 من خلال كتابه الشهير «تحرير المرأة»، فما كان من مصطفى كامل، الذي كان يمتلك وقتها أعلى صوت مؤثر في الجماهير، وهي جريدة «اللواء» المدعومة من الخديوِ إلا أن وقف بالمرصاد لدعوات «أمين» ليصل الأمر به إلى تحريض الجماهير ضد الرجل.

وكتب مصطفى كامل في 31 يناير 1901 مقالًا قال فيه: «لقد زرت أوربا المرات العديدة ودرست أحوال المرأة الغربية في كل طبقات الهيئة الاجتماعية دراسة دقيقة خالية من الغرض والأهواء، فرأيت أن الحرية المطلقة أفسدت على المرأة علومها وآدابها ومحت كثيرًا من الأخلاق الفاضلة».

وتابع قائلًا: «إن عندي أن حرية المرأة لا تكون في مأمن من كل خطر وضرر إلا إذا اجتمعت شروط ثلاثة: كمال وأدب عند النساء، وتعليم وتهذيب عند الرجال، وحكومة شديدة الشكيمة في المحافظة على الآداب العامة، ومحال أن تجتمع

هذه الشروط الآن في بلد كمصر»(179).

ويصل الأمر به أن يتقول على قاسم أمين ويلوي عنق دعوته فيكتب: «إن أمريكا التي أخذها قاسم بك أمين قاعدة لحكمه وقياسه تخالف بلادنا مخالفة تامة في الأخلاق والعوائد.. ذلك فضلًا عن أن بعض أنصار رفع الحجاب يقولون إن حرية النساء بما فيها من المضار - حتى الزنا - خير من الحجاب المصحوب بالفضيلة القهرية. وهو ما لا أراه أبدًا.. فإنه خير لرجل يشعر أن يموت ويدفن من أن يرى من أهله أو من بيته امرأة تزني ولو كانت بهجة العلم وحليته».

ولا ندري ما علاقة الزنا بتعليم المرأة وتحررها وانطلاقها، إلا ذات المنطق السطحي الذي يُكرره ويُردده أنصار التيارات الدينية في بلادنا اليوم، بأن تعليم المرأة يقودها نحو الخلاعة!

إن موقف مصطفى كامل من قضية تحرير المرأة رجعي بامتياز منذ البدايات، فمن قبل صدور كتاب قاسم أمين نقرأ له في جريدة «المدرسة» حوارًا خياليًا بين معلم وتلميذه يتحدثان عن أمور الحياة والمجتمع، ويسأل التلميذ أستاذه عن رأيه في خروج المرأة للمصالح العامة، فيجيب قائلًا: «إن قواعد الشرع والأدب تقضي بضرب الحجاب على النساء، أي بوضع البراقع على الوجوه، فليس لهن أن يُستخدمن في

المصالح كالرجال، وإنما يكفي أنهن يُدرن شئون المنزل ويُهذبن الأبناء..»

وبشكل آخر يقف مصطفى كامل وجريدته «اللواء» في صف الشيخ السادات في قضية علي يوسف الكاتب الشهير الذي تزوج ابنة الشيخ بعد قصة حب ملتهبة، لكن والدها أصر على تطليقها لأن الزوج أقل مقامًا منه، وأنه يعمل بمهنة غير شريفة هي الكتابة في الصحف.

لقد كان من العجيب جدًّا أن يقف المناضل الوطني، الخارج من الشعب، والمفترض تحيزه للمساواة بين البشر في صف الرجعية ضد زميل كتابة إرضاءً للتيار العام، أو نفاقًا للقطيع الشعبي.

***

- 7 -

على أي حال، فإن أحدًا لم يتعرض بحدة لمصطفى كامل، ويُفند مواقفه، ويُعيد تقييمه مثلما فعل سعد زغلول، والذي توصف مذكراته دومًا بأنها أصدق مذكرات لسياسي في تاريخ مصر، ذلك لأنه - كما قال محققها العظيم الدكتور عبد العظيم رمضان - لم يكن يكتب المذكرات للنشر وإنما لذاته، وترك قرار نشرها لمَن يأتي من بعده مُصدرًا إياها بعبارته

الصادمة: «الويل لمَن يقرأ مذكراتي من بعدي»، ولأنه كان معنيًّا بالتفاصيل إلى درجة حادة، وأنه كان يلوم نفسه ويعاتبها ويجعلها فريسة سهلة لأي منتقد منتصر للصدق وحده.

والغريب في الأمر أن سعد زغلول ينفجر بمشاعره الصادقة فور علمه بنبأ وفاة مصطفى كامل فيكشف زيفه وكذبه ويشكك في وطنيته. إنه يُبدي دهشة شديدة للمبالغة في الحزن على وفاة مصطفى كامل في 10 فبراير 1908 ويستغرب بشدة مسيرات الطلبة في جنازات صورية، ودعوات المساجد والنوادي للصلاة عليه في ريف مصر وحضرها، وتكالب الكتاب والشعراء لنظم القصائد والمراثي في الرجل، بل وقيام بعض النسوة بلبس ملابس الحداد عليه، ودعوة لطفي السيد للاكتتاب لإقامة تمثال عظيم تخليدًا له(178).

وسعد زغلول تحديدًا، ليس ممَّن يشمت في موت إنسان، ولا يستغل غيبته، لكن يبدو أن نفسه كانت مستعرة بحجم أكاذيب وتلفيقات عديدة جعلت من مصطفى كامل أسطورة زائفة.

إنه يقول حانقًا عن الرجل بعد وفاته: «إنك لا تكاد تجلس في مجلس أو تركب الترام إلا وتسمع أو تقرأ شيئًا عن

مصطفى كامل. ويخيل لك أن كل ما حولك حزين على هذا الرجل، حتى إن قاسم أمين نفسه، وهو من الذين لم يسلموا من لسان المتوفى، فقد حمل على كتابه تحرير المرأة حملة شعواء، وانتقده أشد الانتقاد، لا اعتقادًا بضرره، وإنما تقربًا من الجناب العالي، ونفاقًا لذوي الأفكار المتخلفة والمتعصبين في الأمة. وهو من الذين كانوا يعتقدون لغاية وفاته أنه نصاب خداع، ومنافق كذاب. إن قاسم بك هذا حضر إليّ يوم الجمعة 14 فبراير بعد وفاة مصطفى كامل بأربعة أيام فقط وسألني: ماذا تقول في وفاة مصطفى كامل؟ إن اهتمام الناس بها لدليل تنبه وحياة جديدة وهذه قيمة تستحق الإعجاب. فلما سمعت من صاحبي هذا اللسان استغربت أشد الاستغراب ولم أدرِ السر في الانقلاب، وقلت: ولكن أنت تعلم أن الرجل ليس بشيءٍ وأنه نصاب. فقال: كذلك، ولكن النتيجة التي ترتبت عليه تستحق الإعجاب».

ونجد سعد باشا يعيب على قاسم أمين قوله عن مصطفى كامل إنه موجد الحركة الوطنية، ويتساءل كيف جاز له أن يُطلق هذا الحكم ويتناسى أجيالًا من الزعماء والعظماء الذين كانوا قبل أن يخلق، مثل أحمد عرابي، ومحمد عبده، وعبد الله النديم، والسيد جمال الدين الأفغاني. وقال سعد واصفًا مصطفى كامل لقاسم أمين: «إنه مثل رجل أطلق صوته بالغناء، فوجد أناسًا يسمعون، فاستمر في غنائه، وصار

يزيد من الصياح كلما زاده الناس إصغاءً، ولم يُصادف في طريقه شيئًا من العقبات. وكل ما يفتخر به الحكم على أخيه، مع أنه كاذب في ذلك لأن أخاه ارتكب ذنبًا وهو في العسكرية، وحوكم محاكمة قانونية، ولذلك فإن أخاه الثاني من شملهم الاحتلال بنظره، وهو من أكبر الموظفين في نظارة الأشغال ويتقاضى مرتبًا سنويًّا يصل إلى ألف جنيه..»(177).

وهنا، فإن «سعد» يشير إلى قضية إعفاء علي فهمي شقيق مصطفى كامل من الخدمة كضابط عسكري لإضرابه عن العمل، كما يشير أيضًا إلى النفوذ والسطوة التي كان يتمتع بها شقيقه الأكبر حسين بك واصف، والذي تولى مناصب مهمة برواتب مجزية نتيجة رضا الاحتلال عنه.

ويُكرر سعد زغلول بين الحين والآخر دهشته من المبالغات في الهلع والحزن والإشادة بالرجل، والتي وصلت إلى حد قول أحد المحامين: «لو ادعى مصطفى كامل النبوة لكنت أول المؤمنين به».

ويحاول الزعيم سعد زغلول تفسير المحبة الطاغية لمصطفى كامل والتي ظهرت عقب وفاته بسببين: الأول أن جانبًا منها مدبرًا من خلال أصحاب مصطفى كامل ورجال الخديوِ عباس حلمي الذين صرفوا يوم وفاته أربعين جنيهًا

على التلغرافات التي أرسلت إلى كافة الأنحاء تنعيه. والسبب الثاني أن الجناب العالي ساعد على ذلك بإظهار الانعطاف والارتياح لهذه الحركة، من هنا فإن كل مَن التقى مصطفى كامل فقد نشر المقالات الطويلة العريضة عن كيفية تعرفهم به واجتماعهم عليه، ومعاملته لهم ومراسلاتهما.

***

- 8 -

يحاول الكاتب مصطفى أمين كعادته في إرضاء القارئ أن يُمسك بالعصا من المنتصف عندما يلجأ إلى اختلاق الأعذار والتبريرات لمصطفى كامل بشأن مفهومه للوطنية باعتبارها مجرد مقالات وخطابات ودعوات مناصرة للخديو عباس. ورغم أن سعد زغلول هو خال والدة مصطفى أمين، ورغم أن الصحفي الكبير تربى في بيت الأمة إلا أنه لا يوافق سعد زغلول على رأيه في مصطفى كامل بأنه نصاب وكذاب.

ويرى «أمين» أن البعض يظلم مصطفى كامل عندما يحمله مسئولية التنكر لثورة عرابي لأنه كان يهاجمها عن اقتناع بأن الخروج عن العرش خروج عن الوطن.

ولا أدري كيف يحاول الكاتب الكبير إقناعنا بأن مصطفى كامل معذور لأنه يصدق الخديو، ولا يتوقف عند رضائه بأن

يتحول إلى أداة تشويه لعرابي ومحمد عبده وغيرهم من الوطنيين. بل إنه لا يتوقف كثيرًا عند دعوة «اللواء»، بقيادة مصطفى كامل للاحتفال بمرور مئة سنة هجرية على تولي أسرة محمد علي حكم مصر، وهي الدعوة التي هاجمها وانتقدها محمد عبده وسعد زغلول. كما أنه لا يتوقف كثيرًا عند قيام «اللواء» بنشر أخبار تعلم تمامًا أنها كاذبة تقول فيها إن اللورد كرومر استقبل عرابي عند عودته من منفاه، وهو ما دفع أحد العامة أن يوقف عرابي وهو شيخ مُسن، ويعتدي عليه بالضرب ويبصق في وجهه.

ويقدم مصطفى أمين تبريرًا واهيًا لهجوم مصطفى كامل و«اللواء» على الحركة العرابية ومحمد عبده، حيث يرى أنه رد فعل طبيعي لعدم اكتراث العرابيين بما تكتبه جريدته، فيقول: «كان محمد عبده لا يقيم وزنًا لثناء أو هجوم مصطفى كامل عليه لأنه كان يراه مسخرًا من الخديو بالمال، لكن مصطفى كامل على أي حال كان شابًّا وطنيًّا متحمسًا يكره الإنجليز، ويحب سلطان تركيا ويعتقد أن تركيا قادرة على تخليص مصر من الاحتلال البريطاني.. ولم يكن آلة مسخرة بالمال في يد الخديو وإنما كان يعتقد أن مساعدة الخديو له بالمال دليل على وطنية الخديو، وأن كل مَن يهاجمون الخديو هم الخونة»(176).

ثم يضيف مصطفى أمين قائلًا: «ولا شك أن مصطفى كامل في تقديره لثورة عرابي ضحية معلومات خاطئة كان يقدمها له الخديو عباس، ولولا الخديو عباس ما حدثت هذه الشقة الواسعة بين مدرستي الوطنية، فإن الثورة العرابية هي الأم الشرعية لجميع الثورات والحركات الوطنية التي قامت في مصر بعد الاحتلال»(175).

لكن دفاع مصطفى أمين واهٍ ولا يمكن أن يصمد أمام أي منطق إذ يفترض في رجل مُلقب بزعيم الوطن كمًّا من السذاجة تدفعه لقبول وتصديق كل ما يدعوه إليه ولي نعمته، والذي يدفع له المال، ويموله دون أن يجد الشاب الوطني في ذلك بأسًا.

***

- 9 -

ثمة خيوط أخرى من المهم تتبعها، فللكاتب الصحفي المثابر صبري أبو المجد، فضل كبير في وصول مذكرات محمد فريد إلينا، فقد آل الرجل على نفسه بعد سنوات طويلة من رحيل الزعيم المصري تتبع أخباره وتجميع أوراقه ومراسلاته وتحقيقها ونشرها.

وبعيدًا عن حكايات عديدة توردها مذكرات محمد فريد،

عن سيرته، فإننا نقف دون أدنى قصد منه على عدد من الحقائق المميزة لمحمد فريد عن مصطفى كامل في رئاسة الحزب الوطني، أولها وأهمها أن «فريد» عاش شريدًا طريدًا منبوذًا مُبعدًا لأنه رفض من البداية تكرار مصطفى كامل، حيث أصر على فكرة استقلال الحركة الوطنية، ورفض تبعيتها وخضوعها للخديو أو لتركيا تحت أي تصور.

لقد شعر الخديو عباس بأنفة محمد فريد واعتزازه بذاته وحرصه على عدم الانضواء تحت سلطانه فحاول جاهدًا أن يخلف علي فهمي شقيقه في زعامة الحزب الوطني، لكنه فشل في ذلك. يقول محمد فريد في مذكراته: «من يوم الوفاة ابتدأ الخديو يدس دسائس لانتخاب رئيس يكون طوع أمره، ليستعمله في أموره الشخصية وليحارب به الإنجليز، فأرسل رجاله في الجنازة والمآتم، وحتى الشيخ علي يوسف عدو مصطفى، والمنافس له في جميع الأمور حضر المأتم في الليالي الثلاث الأولى وكذلك عرفي باشا ورجاله، وأخذوا يرشحون مَن يتوسمون فيهم الطاعة من الرؤساء مثل يوسف المويلحي أو عرفي باشا، وبعضهم رشح الشيخ علي يوسف نفسه. كل هذا لم يفد. وفي يوم انعقاد الجمعية العمومية بعد الوفاة بأربعة أيام انتُخبت بالإجماع، وكان علي بك فهمي يريد أن يُنتخب بصفته أخًا للفقيد، وجهز أوراقًا مكتوبًا عليها اسمه، ووزعها على بعض

الحاضرين، وأدخل في الاجتماع الكثيرين من غير الأعضاء بواسطة مَن وضعهم عند الباب من رجاله، ولكنه لما رأى التيار قويًّا حوَّل الدفة، وخطب في الحاضرين مرشحًا لي..»(174).

ويتحدث محمد فريد بعد ذلك عن لقائه بالخديو وقوله له إنه يعتزم السفر لأورُبا، بل وإنه يطلب ألا يعاكسه ولا يُرسل وراءه أحدًا لمراقبته مثلما فعل في العام الماضي، فنجد الخديو يقول له: «لا يا سي فريد سافر. مصطفى نوع وأنت نوع آخر. وأنا لم أرسل وراءك أحدًا».

ومعنى ذلك أن مصطفى كامل كان يقبل بوصاية ورقابة الخديو، ويعمل تحت إشرافه، ولأجله، بينما أبى الزعيم محمد فريد هذا الأمر، فدخل السجن بعد ذلك، ثم نُفي مرة واثنتين، وعاش فقيرًا، بائسًا، منسيًّا، لكن رغم ذلك فقد كان للتاريخ المدرسي قول آخر فعظَّم الأول وأنكر الآخر.

***

- 10 -

الشِّعر أيضًا يُغير الحقيقة..

إن أحدًا لا يُمكنه إنكار عظمة الشاعر الكبير أحمد شوقي، ذلك البيك المولود لأب تركي وأم يونانية سنة 1868، والذي

عرف القصر الحاكم صبيًا باعتبار أن أمه كانت وصيفة في قصر الخديو إسماعيل. تلك العظمة المتولدة من تعليم وانفتاح مبكر على الثقافة الأورُبية، خاصة الفرنسية، مع تفجر طاقات إبداعية خلاقة جعلته شاعرًا فذًّا عبقريًّا يتجاوز لقب أمير الشعراء إلى مُوثق الأحداث العظيمة ومُخلدها وحاكي الأزمنة الفائتة.

ولم يكن غريبًا أن تضم «الشوقيات العظيمة» إشارات لحوادث كبار عظيمة بدءًا من حادث دُنشواي، ومرورًا بالحرب العظمى، وثورة المصريين في 1919، وسقوط الخلافة العثمانية، واكتشاف مقبرة توت عنخ آمون، وغيرها من الأحداث الخالدة.

لكن ما يعنينا هنا بخصوص الشاعر أمران هامان، الأول أن كثيرًا من قصائد الرجل كانت موجهة ومُسخَّرة لمدح وتعظيم والإشادة بالخديو عباس حلمي الثاني، والأمر الثاني هو أن مُجرد ذكر الشاعر لشخصٍ ما، كان كفيلًا بتخليده وتعظيمه.

لذا، فإننا لا نستغرب أن نقرأ للشاعر قصيدة نونية طويلة تزيد أبياتها على ستين بيتًا في رثاء مصطفى كامل تبدأ بقوله:

المشرقان عليك ينتحبانِ

قاصيهما في مأتمِ والداني

والقصيدة من أجمل قصائد أمير الشعراء فنًّا وجرسًا موسيقيًّا وصورًا بلاغية وشمولًا للحِكم والمواعظ حتى إننا نحفظ جميعًا بيته فيها الذي يقول:

دقات قلب المرء قائلةٌ له

إن الحياة دقائقٌ وثوانِ

فاحفظ لنفسك بعد موتك ذكرها

فالذكرُ للإنسانِ عُمرٌ ثانِ

لقد كان شوقي على صداقة ومودة بالرجل وكان لا بد أن يرثيه ويُخلده يوم رحيله، كما أنه كان لا بد أن يُطيب خاطر سيدهما وولي نعمتهما معًا الخديو الذي يحكم البلاد، بشِعر رقيق يودع فيه أحد رجاله المخلصين.

وكأن الشاعر يعرف جيدًا أثر قصيدته فيقول في أحد أبياتها مفتخرًا وصادقًا:

وأنا الذي أرثي الشموس إذا هوت

فتعود سيرتها إلى الدورانِ

إن الشاعر العبقري يعرف جيدًا كيف يُحب المصريون آل

البيت، وكيف يعشقون الحسين، فنجده يُشبه نعش الراحل بنعش الحسين، والناس تلتف حوله تيهًا وولهًا فيقول:

يُزجون نعشكَ في السناء وفي السنا

فكأنما في نعشك القمرانِ

وكأنه نعشُ الحسين بكربُلا

يختال بين بُكا وبين حنانِ

لكن سحر الشِّعر يتجلى لينغرس في العقل المصري المعاصر لرحيل مصطفى كامل بأبيات قوية نافذة يقول فيها:

لو أنَّ أوطانًا تُصوَّرُ هَيْكلًا

دفنوكَ بين جوانحِ الأوطانِ

أو كان يحمل في الجوارح ميتٌ

حملوك في الأسماع والأجفانِ

أو صيغَ من غُرِّ الفضائلِ والعُلا

كفنٌ لبستَ أحاسن الأكفانِ

أو كان للذكر الحكيم بقيةٌ

وليس أرسخ في ذلك الوقت من القرآن الذي يتصور الشاعر أنه لو كانت هناك بقية لم تأتِ بعد منه، لجاء فيها رثاء مصطفى كامل. وهي حيلة شعرية يسمح بها الخيال الشعري، في كثير من الأحيان، وليست محل تحفظ ديني لكنها دليل مبالغة قد لا تكون في محلها.

من هنا فقد ساهم الشاعر العظيم أحمد شوقي في صناعة أسطورة مصطفى كامل، الذي ينتحب عليه الشرق والغرب، ويلتف الناس حول نعشه وكأنه الشهيد الحسين، ويرون أنه يستحق أن يُذكر اسمه في القرآن.

***

- 11 -

عوامل عديدة لعبت دورًا في تضخيم صورة مصطفى كامل جيلًا بعد جيل. ففي حينه ربما كانت رغبة السلطة في اكتساب شعبية توازن بها ما لحق بها نتاج وصم الخديو توفيق بالخيانة سببًا مباشرًا في الظهور كداعم ومساند لاسم مصطفى كامل حتى بعد رحيله. فتحت الدولة المصرية خزائنها لإقامة احتفالات عديدة في ربوع البلاد، حضرها وريفها، شرقها وغربها، شمالها وجنوبها.

في الوقت ذاته، فإن رحيل مصطفى كامل في ريعان الشباب أوجد عليه حالة حزن عامة، فالناس تنظر دومًا لحدثاء السن نظرة أمل ومحبة، وتأسف كل الأسف إن اختطف أحدهم الحِمام.

نُضيف إلى ذلك أن خطاب مصطفى كامل تحديدًا حظي بدعم التيار الديني السياسي منذ نشأته باعتباره خطابًا متداخلًا مع أطروحات تيار الإسلام السياسي، وعلى رأسه جماعة الإخوان المسلمين. لقد كان الرجل يعتبر رباط العاطفة الدينية هو الرباط الحاكم لمواجهة الاحتلال البريطاني، وهو ما كان يدفعه كما ذكرنا للولاء التام لتركيا دون أن يجد في ذلك حرجًا أو بأسًا للوقوع في شبهة عمالة أجنبية. من هنا ظل مصطفى كامل يُمثل علامة مُضيئة عند كل الإسلاميين الذين كتبوا في التاريخ الحديث بدءًا من أنور الجندي، ومحمد قطب، وحتى أيمن الظواهري، بينما صبوا جميعًا جم الغضب، وأشاعوا الشبهات حول الزعيم الحقيقي للوطنية المصرية، سعد زغلول.

الأنكى من ذلك، أن قيام ثورة يوليو 1952 أضاف بعدًا جديدًا في نظرة السلطة للتاريخ ورموزه؛ لذا كان منطقيًا أن تحشد السلطة كل الإمكانيات للنيل من خصمها السياسي المتمثل في الوفد، وضرب رموزه التاريخيين، في الوقت

الذي يتم فيه إعلاء شأن كافة الزعماء المناوئين والخصوم مثل مصطفى كامل. إن الدكتور عبد العظيم رمضان يشير إلى أن الخصومة السياسية بين ضباط يوليو وبين الوفد هيأت الفرصة لتشويه صورة زعماء الوفد وعلى رأسهم سعد زغلول والنحاس حتى أصبح الطعن في الوفد وزعمائه وسيلة للتقرب إلى نظام الحكم، وللأسف الشديد فإن بعض الجامعات تورطت في هذا الإثم.(173)

***

---

(191) علي فهمي.. مصطفى كامل في 34 ربيعًا.. الجزء الأول. 1908. مطبعة اللواء. ص 30،29.

(190) المصدر السابق.. من ص 56 إلى 70.

(189) المصدر السابق .. من ص 120 إلى 123.

(188) الأهرام 11 فبراير 1893.

(187) جريدة المدرسة.. المجلد الأول . فبراير 1893.

(186) المصدر السابق.. فبراير 1893.

(185) لا يوجد ما يشير إلى أن النشيد من نظم مصطفى

كامل، لكن كما هو مكتوب من الصفحة الأولى للجريدة فإنه المسئول الوحيد عمّا تتضمنه من مقالات وأناشيد وخلافه.

(184) جريدة المدرسة.. إبريل 1893.

(183) المصدر السابق.

(182) علي فهمي.. مصطفى كامل في 34 ربيعًا.. الجزء الثالث. مطبعة اللواء 1908. ص205.

(181) المصدر السابق ص 209.

(180) الأهرام. 10 فبراير 2020.. الأهرام تستعرض وثيقة تاريخية بخط يد الزعيم مصطفى كامل.

(179) اللواء. 31 يناير 1901.

(178) د. عبد العظيم رمضان. مذكرات سعد زغلول. الجزء الأول. هيئة الكتاب 1987 من 385 إلى 388.

(177) المصدر السابق ص 391.

(176) مصطفى أمين. من واحد لعشرة. كتاب اليوم. ط3.. ص 48، 47.

(175) المصدر السابق ص 49.

(174) صبري أبو المجد ـ محمد فريد ذكريات ومذكرات - كتاب الهلال 1969 - ص 84 و85.

(173) د. عبد العظيم رمضان - مذكرات سعد زغلول - الجزء الأول - هيئة الكتاب، 1987- ص 10.

عن مظلومية اليهود المصريين

«حب جارك قبل ما تحب الوجود.. إيه نصارى ومسلمين قال إيه ويهود.. دي العبارة نسل واحد م الجدود».

مقطع مهمل من أغنية قوم يا مصري للشيخ سيد درويش من كلمات بديع خيري

- 1 -

أفتح نوافذ روحي لأستقبل أشعة الشمس. أخلع أردية الكراهية، وأصفي قلبي لأستنشق الحقيقة، وأسعى إلى الإنصاف. أفتش وأقلب تاريخنا الحديث، لأقف كثيرًا أمام مأساة اليهود المصريين، الذين جرحناهم وظلمناهم مُجتمعيًّا وإنسانيًّا وما زلنا ونحن نردد كلمة يهودي باعتبارها سُبة.

الظلم ظلمات وظلمات، لكننا أمام خطاب حربي متسرع لم ننتبه أننا نخلط فيه بين الجاني والبريء، ونساوي بين الأعداء والأبناء، لا لشيء إلا لأن الناس تحمل عقيدة واحدة. في صراعنا الدامي الطويل ضد الصهيونية وإسرائيل وضعنا اليهود المصريين معهم في الكفة ذاتها، وأقمنا محاكم تفتيش على قلوبهم، ثم حاكمناهم جميعًا وأصدرنا حكمًا نهائيًّا لا يقبل الاستئناف بأنهم خونة وأشرار وغير مصريين.

عاش اليهود بيننا قرونًا آمنين مطمئنين، جيرانًا، وأصدقاءً،

وزملاء عمل ودراسة. كان اليهود جزءًا من خليط مصر العبقري، العابر للأديان والأيديولوجيات، المحب للخير، المتسامح والمتعايش والقابل للتعددية.

لا يمكن أن ننام ونصحو لنُفاجأ بهم قتلة وإرهابيين وخونة. بالطبع، فإن شيئًا ما يحتمل الخطأ في مثل هذا التصور؛ لأننا لو قلنا إن جنسًا بعينه من البشر أشرار، أو فجار، لكان لزامًا علينا أن نشهد بعض ذلك الشر من قبل، وأن نرفضه مسبقًا، لكن أن نكتشف فجأة أن اليهود - كل اليهود - خونة فتلك خطيئة لم تكن لتولد في بلد السماحة. ألا نفرق بين اليهودي والصهيوني فذلك جهل مُقيم، أن ننحاز ضد أصحاب عقيدة مغايرة، فنتهمهم بكل الموبقات، ونلعنهم، ونضعهم سببًا لكافة الكوارث، ونعتبرهم دائمًا وأبدًا متآمرين، فذلك الجنون، كل الجنون.

إن يقظة ضمائرنا تدفعنا أن نُقرر - إنصافًا للحق والحقيقة - أن اليهود المصريين ظُلموا، وأنهم لم يكونوا بتلك الهيئة التي صورها الخطاب الإعلامي المصري الزاعق، واللا موضوعي، وأن التيار الديني - خاصة جماعة الإخوان - استثمرت الصراع مع إسرائيل لتحوله إلى صراع مع كل يهودي، فتصمهم بكل نقيصة، وتختزلهم في الرمزية للشر المطلق.

والمؤسف أن السلطة القائمة في مصر منذ الخمسينيات من

القرن العشرين، كانت تُزايد على التيارات الدينية في التعصب ضد اليهود و تُغالي في التمييز تجاههم، لتنمو غابات من الكراهية الممقوتة ناحية كل صاحب ديانة يهودي، حتى إذا اتجهت الدولة المصرية بعد ذلك إلى الدخول في اتفاق سلام مع إسرائيل، صار ذلك السلام مستحيلًا، فالمُعبأون بالكراهية لم يعودوا قادرين على تقبل السلام، رغم أنه لا توجد صراعات في الكون أبدية.

***

- 2 -

لا توجد إحصائيات واضحة بشأن أعداد هجرات اليهود إلى مصر، لكننا تاريخيًا نعرف أن النبي يوسف عليه السلام استدعى قومه للإقامة في مصر بعد قيام الملك البابلي نبوخذ نصر بتدمير هيكل سليمان في أورشليم.

وطبقًا للدراسات التاريخية فإن ملك مصر حينذاك واسمه «أبريس» فتح لهم قصوره واستقبلهم حيث سكنوا في مدن منف، والفيوم، ودهشور، والأشمونين، وإخميم، وطيبة، وأبيدوس، وأدفو، والفنتين، وأسوان(172).

وفيما بعد تُحدثنا الكتب التاريخية عمّا يُعرف بقصة الخروج، وهي التي خرج فيها سيدنا موسى وبنو إسرائيل

هربًا من بطش فرعون، لكن رغم ذلك فقد عاد كثير من اليهود بعد ذلك لمصر من خلال هجرات متتالية حتى إن أعدادهم خلال العهد اليوناني قدرت بمئات الآلاف بحسب الإحصاءات اليهودية(171). وبعشرات الآلاف حسب الدراسات العربية(170).

لكن على أي حال، فإن اليهود كانوا موجودين كفصيل مجتمعي مصري يعملون في كافة المجالات، بل إن بعضهم كان يعمل في الجيش والشرطة وكثير منهم كانوا يتولون مهامًّا اقتصادية عظمى خاصة في العصر الروماني. كما عمل اليهود في مجال الصناعة والحدادة والأنشطة الزراعية(169).

ولا يوجد ما يشير إلى أن تواصل واندماج اليهود في المجتمع المصري خلال القرون التالية للفتح الإسلامي لمصر قد انقطع، بل إن كثيرًا من حكام مصر خاصة في العهد الفاطمي استعانوا بعلماء ومفكرين يهود في إدارة شئون البلاد، فاشتهر منهم مثلًا يعقوب بن كلس، وبلطيال بن شفطيا، وفي عهد صلاح الدين الأيوبي اشتهر منهم موسى بن ميمون الطبيب والكاتب المعروف(168).

وظل يهود مصر أقلية تُقدر ببضعة آلاف حتى بدايات

القرن التاسع عشر حيث هاجر كثير من اليهود إلى مصر لترتفع أعدادهم فيها إلى نحو مئة ألف شخص خلال الثلاثينيات من القرن العشرين(167).

كان المناخ العام الحاكم لمصر منذ القرن التاسع عشر الميلادي، ملائمًا لاستيعاب ألوان وثقافات متباينة، حتى إن جاليات أجنبية لا حصر لها استقرت في مصر، ووجدت فيها مستقرًّا وملاذًا آمنًا وأرضًا لتحقيق الأحلام والطموحات. ولم يكن غريبًا أن توجد جاليات لمتمصرين من اليونانيين، والطليان، والبلجيكيين، والألمان، والأرمن، والشوام. وبالطبع، فإن اليهود كانوا الأقرب والأكثر حرصًا على الاستقرار واكتساب الجنسية المصرية لعدم وجود جنسية أخرى ملائمة. وإذا كان بعضهم قد بقي بلا جنسية، فإن ذلك كان لأن القوانين الخاصة برعايا الدولة العثمانية تسمح لهم بالتمتع بحقوق المواطنة دون انتقاص.

***

- 3 -

هل كان اليهود جميعًا أشرارًا، مرابين، لصوصًا، مستغلين، وأعداءً للوطن وللمصريين؟

بالقطع لا.

لو قلنا إن هناك جماعة من البشر نرمز لها بالحرف «ياء»، فإن المنطق والعقل يقول إن وجود شخص مستغل، وجشع في طائفة «ياء»، لا يعني قطعًا أن كل مَن يحملون رمز «ياء» جشعون ومستغلون. ببساطة لأن ظهور إرهابي مسلم في شوارع نيويورك، لا يعني أن جميع المسلمين إرهابيون.

إن صفات الإنسان لا يمكن تعميمها على جميع مَن يشبهونه أو يتصلون بصلة قرابة له. والمنطق الإسلامي البسيط الذي يعلمنا إياه القرآن الكريم أنه «لا تزر وازرة وزر أخرى».

من هنا، فإن المنهج المستخدم في غالبية الدراسات المعنية باليهود في مصر بدت موجهة، شديدة التحيز، تحمل تربصًا واصطيادًا للنقائص، وبلا أي منطق علمي سليم. فمن المنطقي أن يشير باحثون كثر إلى ميلاد قتلة إسرائيليين مثل موشي ديان، وليفي أشكول في حارة اليهود بالقاهرة، لكن ذلك لا يعني أن كافة اليهود قتلة. ومن المنطقي أن يشتهر بعض الأثرياء الجشعين من اليهود، لكن ذلك لا يُبرر أن يخصص باحث مخضرم كبير له أفضال لا تُنكر في كشف وعرض وثائق وبيانات الطائفة اليهودية في مصر مثل عرفة عبده علي، فصلًا كاملًا في كتابه «يهود مصر» عمَّا أسماه «هيمنة اليهود على الاقتصاد المصري».

بل إننا نقف في ردوده المنفعلة على دراسة إسرائيلية

تستعرض دور اليهود في الحياة المصرية، ومشاركتهم في الحركة الوطنية باعتراضه على ذلك، وقوله إن اليهود كانوا دومًا مقربين من الحكام أو المحتلين وهو ما لا نرضاه علميًّا. فمثل هذا الطعن لا يجوز تعميمه لأن وجود شخص مقرب من المحتل، لا علاقة له بكونه يهوديًّا أو غير يهودي، كما أنه مثلما كان هناك يهود مقربين من رجال الاحتلال، فقد كان هناك مسلمون ومسيحيون أيضًا على علاقة مودة ووئام بالاحتلال ورجاله.

كذلك فإنه كان هناك يهود منخرطين في الحركة الوطنية المصرية، وهو ما سنستعرضه لاحقًا. وعرفة عبده علي نفسه هو الذي أشار إلى تأسيس رابطة إسرائيلية بمصر لمكافحة الصهيونية سنة 1946 على أيدي عيزرا هراري، وإدوارد ليفي، ومارسيل إسرائيل، وقد أدانت الهجرات اليهودية إلى فلسطين ونددت بإرهاب العصابات الصهيونية، لكن الغريب في الأمر أنها تم حلها من قِبل السلطات المصرية بعد أقل من عامين، وقُبض على أعضائها وتم ترحيلهم خارج مصر(166).

إن قراءة سريعة لمقدمة كتاب الرجل والذي يحمل عنوان «يهود مصر منذ الخروج الأول إلى الخروج الثاني» تكشف جانبًا من المنطق المغلوط في التعامل مع اليهود المصريين

باعتبارهم إسرائيليين أو صهاينة بالضرورة.

إن مؤلف الكتاب يشير إلى أنهم عاشوا في مصر دون قيود، بل كانوا ممثلين في البرلمان من الوفد أو السعديين، حتى إن يوسف قطاوي كان وزيرًا للمالية، وكان الحاخام الأكبر حاييم ناحوم عضوًا في البرلمان، وعضوًا في مجمع اللغة العربية، وكانت عشرات الصحف تصدر باللغة العبرية، والطائفة تمارس عباداتها وطقوسها في المعابد والمدارس بحرية تامة، ثم عاشوا التحولات السياسية عقب إنشاء دولة إسرائيل، وشعروا بأنهم ضحايا الأوضاع القائمة؛ لأن الصهيونية كانت تقدم نفسها بأنها الحركة القومية لليهود(165).

وهنا فكأن الباحث يعني أن الصهيونية هي التي قلبت أحوال اليهود، وأنهم هم الذين تركوا مصر بمحض إرادتهم ولم يتم التضييق عليهم، ولم تتم معاداتهم، ولم تستنفر جماعة الإخوان الناس استنفارًا بعد إعلان قيام دولة إسرائيل ضد حارة اليهود ليتم الاعتداء على المحلات اليهودية، وتخويف الشخصيات المعروفة، وقتل وجرح بعض الغزل، ثم سلسلة القرارات الحكومية المقيدة للحركة لكل يهودي، تمهيدًا لفتح الباب لتسفير الراغبين في السفر بشرط عدم عودتهم مرة أخرى إلى مصر.

ولعل بعض الأخطاء التي وقع فيها الباحث تشي بنوع من عدم التدقيق، عندما نشر في كتابه بيانًا بأهم الشخصيات اليهودية في مصر، ووضع فيه اسم رجل الصناعة لينوس جاش، وهو سويسري متمصر ومسيحي، ومدفون في مقابر الجالية السويسرية بالإسكندرية، كما وضع في القائمة ذاتها هوج نوس صاحب ومدير شركة السكر، وهو أيضًا كاثوليكي بلجيكي ولم يكن يهوديًا، كما ذكر.

وبالمثل لا يصح أن يُجهد باحث آخر هو المرحوم أنس مصطفى كامل نفسه في استقراء وتتبع ما حققه اليهود من إنجازات اقتصادية في مصر باعتباره سيطرة يهودية على الاقتصاد المصري. إن الباحث يتحدث عن عائلات موصيري، وقطاوي، وشيكوريل، وشملا، مصورًا نجاحاتها باعتباره نجاحًا في احتكار السلع والخدمات. بل إن الرجل يسوق بعض شكاوى العمال - الطبيعية - باعتبارها دليل فساد الرأسماليين اليهود، مُغمضًا عينيه عن الوظائف التي وفرت للناس، والمكاسب التي تحققت، والضرائب التي دخلت إلى خزانة الأمة المصرية(164).

وللحقيقة وللصدقية، فإن كاتب السطور نفسه سار في المسار ذاته عندما كان يُعد مطلع الألفية الثالثة دراسة عن التطبيع بالبزنس(163)، تناولت علاقة رجال الأعمال

بإسرائيل حيث وقع تحت أسر الخلط غير الممنهج بين اليهود والإسرائيليين، وحاول في تتبعه لتاريخ اليهود في مصر اصطفاء السلبيات وانتقاء ما خلفوه من أضرار. لكن النضج الفكري الذي أنعم الله به عليه، وتطور رؤى البحث العلمي عنده عبر السنين يحثه الآن على الاعتراف بخطأ التناول ولا علمية المنهج، ويدفعه إلى عدم إعادة طباعة الدراسة وفق هذا المنهج.

إن نظرتنا الموضوعية لدور اليهود في الاقتصاد المصري الحديث تؤكد بنفس طيبة أنهم لعبوا دورًا إيجابيًّا في التنمية، فشيكوريل مثلًا أنشأ سلسلة متاجر اعتمدت نظم بيع حديثة، ومختلفة، وساهم في تأسيس بنك مصر مع طلعت حرب، كما أنشأ سوارس - وهو أحد الأثرياء اليهود - بنكًا خاصًّا، كما أنشأ أول خط مواصلات داخل القاهرة، حتى إن ميدانًا شهيرًا في وسط المدينة حمل اسمه، وهو الآن ميدان مصطفى كامل.

***

- 4 -

ليسوا كفة واحدة...

كان هناك يهود وطنيون في مصر، بل أكثر وطنية ممَّا

يتصور البعض. وحسبنا في ذلك أن نستخدم أقدم شهادة تتحدث عن الوفد المصري وثورة 1919 وهي شهادة محمود أبو الفتح في كتابه «الوفد المصري» والذي صدر (162) سنة 1927 . والمثير في الأمر أن هذا الكتاب لم يُعَد نشره مرة أخرى، وأن المؤلف نفسه الذي امتد به العمر حتى سنة 1958 لم يكرر الحديث عن كفاح اليهود المصريين ضد الاحتلال إلى جانب باقي طوائف الشعب المصري.

ولم يكن الحصول على الكتاب أمرًا سهلًا إذ اختفى تمامًا ضمن كافة مؤلفات محمود أبو الفتح بعد وفاته وسحب الجنسية منه، ولولا أن أحد هواة جمع الكتب والوثائق القديمة عرضه علينا باعتباره أحد الوثائق الأولى لثورة 1919 وسعد زغلول لما جاز لنا الحصول عليه.

ومحمود أبو الفتح واحد من الرعيل الأول للصحفيين المصريين. ولد سنة 1893، وبدأ حياته محررًا في جريدة «وادي النيل» قبل أن ينتقل إلى «الأهرام»، ثم عمل مستشارًا صحفيًا للوفد المصري الذي كان يعرض قضية استقلال مصر في مؤتمر حق تقرير الشعوب، وظل مترجمًا شخصيًا لسعد باشا زغلول حتى وفاته في 23 أغسطس سنة 1927.

وفي 1936 أسس أبو الفتح جريدة «المصري» لتصبح

لسان حال حزب الوفد، وشارك في إنشاء أول نقابة للصحفيين المصريين سنة 1941 وكان أول نقيب لها. وبعد ثورة يوليو 1952 اصطدم بالضباط الأحرار، فعطلوا جريدته وحاكموه وهو خارج مصر فلم يعُد إليها حتى وفاته سنة 1958. ولم يوافق الرئيس جمال عبدالناصر على دفنه في مصر وقرر الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة استقبال جثمانه ودفنه في الأراضي التونسية.

المهم هنا أن حكايات الكتاب هي الأقرب للحقيقة والدقة لثلاثة اعتبارات أولها أنه أقدم كتاب عن الوفد المصري وثورة 1919 وصدر وجميع قادة الثورة على قيد الحياة، وثانيها أن مؤلف الكتاب كان مصاحبًا لسعد زغلول مباشرة وللوفد المصري في باريس واطلع على اتصالاتهم ولقاءاتهم وتفاعلهم مع الثورة يومًا بيوم.

وثالث الاعتبارات أن أبي الفتح نفسه تميز بالموضوعية والدقة الشديدة عند ذكره لأي حدث، ليورد نصوص الخطابات والأحاديث كأنها مسجلة مُدعمًا إياها بصور للشخوص والأحداث والوثائق.

وما يهمنا في الكتاب أنه يقف بوضوح على أمر مسكوت عنه في ثورة 1919 وهو مشاركة اليهود، والذين يسميهم المؤلف وقتها بالطائفة الإسرائيلية.

يحكي الكتاب عن مشاركة اليهود في دعم الثورة بدءًا من قيام حاخام اليهود وقتها بعمل توكيل لسعد زغلول ضمن توكيلات المصريين للرجل للحديث باسم مصر. وكان الإنجليز يحتجون بأنه لا توجد صفة قانونية تسمح لسعد زغلول بعرض قضية مصر، فلا هو رئيس حكومة ولا ممثل لشعب، وهو ما دفع كافة فئات المجتمع لعمل توكيلات له. ولم يكن توكيل حاخام اليهود سوى بداية دفعت باقي أفراد الطائفة اليهودية إلى عمل توكيلات مماثلة.

لكن أغرب ما في الكتاب ما يحكيه «أبو الفتح» بشأن قيام الطائفة الإسرائيلية بتنظيم مظاهرات يوم 9 مارس سنة 1919 وهو يوم الثورة ضد الاحتلال البريطاني بمشاركة حاخام اليهود نفسه. ويقول المؤلف إنه سُئل في باريس من قِبل صحفيين أورُبيين عن مشاركة الطائفة الإسرائيلية في الثورة، فقدم صورًا لمظاهرات اليهود تؤكد تلك المشاركة. ولا شك أن هذه الصور التي قدمها «أبو الفتح» لم تظهر مرة أخرى ضمن أي أرشيف لصور الثورة.

ويعني ذلك بوضوح أن هناك يهودًا وطنيين شاركوا في أعمال الثورة المصرية منذ اليوم الأول، بل إن بعضهم قدم روحه فداءً لمصر، وهو ما يُناقض أي طرح يعتبر اليهود عمومًا خونة.

وربما يتسق مع ذلك أن أغنية سيد درويش الشهيرة، التي ذاعت بعد الثورة، وهي أغنية «قوم يا مصري» من كلمات الشاعر بديع خيري، كانت تعتبر عناصر الأمة ثلاثة لا اثنين، فتقول مثلًا: حب جارك قبل ما تحب الوجود

إيه نصارى ومسلمين قال إيه ويهود

دي العبارة نسل واحد م الجدود

لكن يبدو أن هذا المقطع أُهمل من الأغنية فتم حذفه فيما بعد ثورة 1952 عندما أُعيدت إذاعة الأغنية مرة أخرى.

ويكشف الباحث والمؤرخ أحمد كمالي أن دور اليهود المصريين في ثورة 1919 لا يمكن إنكاره، ويوضح أن تقليل بعض الباحثين الذين تناولوا تاريخ اليهود المصريين فيما بعد لهذا الدور أمر مناقض للحقيقة. ويشير إلى أن أرشيفات الصحف تحتفظ لنا بصحيفة فرنسية مهمة تحمل اسم «لابرتي» كان يصدرها يهودي مصري يُدعى ليون كاسترو وساهمت في فضح جرائم الاحتلال الإنجليزي في مصر(161).

لكن من الغريب أن نعلم أن اليهود المصريين قدموا بعض الشهداء خلال ثورة 1919، ربما أشهرهم ديفيد هازان الذي انخرط في أعمال اغتيال ضد جنود الاحتلال وتم إعدامه

سنة 1923.

***

- 4 -

يُجمع الباحثون المتابعون لتاريخ اليهود في مصر الحديثة على أن هناك حركتين لعبتا دورًا خطيرًا في تأجيج مشاعر الناس تجاه اليهود في مصر بدءًا من الثلاثينيات هما جماعة الإخوان المسلمين، وحركة مصر الفتاة.

وكان حزب الوفد الذي يُمثل الأمة المصرية، لا يعتبر اليهود خونة لمصر. وكما ذكر سعد زغلول في مذكراته، فإن يوسف قطاوي كان أحد أصدقائه، وكان هذا الرجل كثيرًا ما يُكرر: «إن مصر بلدنا، والعربية لغتنا».

ويُمكن القول إن كل اعتداء صهيوني على عرب فلسطين، كان يتم استثماره من جانب الإخوان المسلمين، ومصر الفتاة لنشر ثقافة الكراهية تجاه كل يهودي، بل تجاه اليهود المصريين جميعًا دون تفرقة. ورغم الحكمة التي أبداها زعماء الطائفة اليهودية تجاه قضية فلسطين وحرصهم على منع جمع أي أموال لليهود هناك، ومنع أفراد الجالية من التعليق على الأحداث، فإن مشاعر الكراهية نمت وتطورت مع اتساع تأثير الإخوان ومصر الفتاة على الشارع خاصة في

النصف الثاني من الثلاثينيات.

ولم يكن غريبًا أن يستغل المحرضون على كراهية اليهود حادث اغتيال اللورد موين البريطاني الجنسية في حي الزمالك بالقاهرة على يد اثنين من يهود فلسطين هما إلياهو حكيم، وإلياهو بستوري سنة 1944 للتأكيد على عدوانية اليهود ككل ودمويتهم. ورغم الحكم على القتلة بالإعدام وتنفيذ الحكم فيهما إلا أن خطباء الإخوان ألهبوا مشاعر العامة وحرضوهم ضد اليهود، ولم تمر شهور قليلة حتى خرج طلبة الأزهر في نوفمبر سنة 1945 بمظاهرة صاخبة ضد وعد بلفور، لكنها انقلبت إلى معركة حامية الوطيس، حيث توجه الغاضبون إلى معبد الإشكيناز وأحرقوه، ثم اعتدوا على حارة اليهود، وكانت الخسائر أربعين مصابًا ونحو مليون جنيه خسائر. وفي الإسكندرية تحرك طلبة آخرون ينتمون في الغالب إلى الحركتين ليعتدوا على منشآت اليهود ويخلفوا وراءهم خمسة قتلى.

وعندما أعلنت مصر دخول حرب فلسطين، تعرضت القاهرة في يونيو سنة 1948 لغارات إسرائيلية، ولم يكن الرد تجاه القوات الإسرائيلية، وإنما ضد العائلات المدنية من اليهود المصريين، حيث قام الغوغاء بتفجير بعض المساكن في حارة اليهود وقتلوا عشرين شخصًا، ثم توالت التفجيرات

ناحية حارة اليهود، ومنشآتهم وكانت بصمات الجهاز الخاص لجماعة الإخوان مُثبتة بحسب كثير من المتابعين.

ولم يكن غريبًا أن يتسع نطاق الاستهداف ليشاع أن كل يهودي بالضرورة خائن، فنُسجت القصص الخيالية عن تخابر كل يهودي مع إسرائيل، لنقرأ فيما بعد حكايات لا أساس لأي منها عن تجسس الراقصة كاميليا لصالح إسرائيل، وأن الفنانة رقية إبراهيم كانت عميلة للصهيونية، ثم توالى وصم كافة رموز اليهود المصريين العظماء بكل نقيصة، فتوجو مزراحي ذلك المخرج المتميز سمسار جشع كان يحاول إفساد المصريين، والموسيقار العظيم داود حُسني لص ألحان. ووصل الأمر بالصحافة المصرية إلى محاولة نسج قصص وهمية عن رموز يهودية لم يستطع أحد نعتهم بنقيصة مثلما هو الحال مع الصحفي يعقوب صنوع، صاحب جريدة «أبو نظارة»، وهنا فقد لجأت آلة الحرب الدعائية إلى القول بأنه أشهر إسلامه. لقد كان صنوع واحدًا من الوطنيين العظام حتى إن أحمد عرابي كتب له خطابًا من منفاه قال فيه: «أعترف أنك كنت أول مَن تعاطف مع الأمة المصرية، وكافحت من أجلها ثماني سنوات من خلال صحيفتي الحاوي وأبو نظارة»(160).

***

«لوسيتا لاجنادو» كاتبة أمريكية أصدرت سنة 2005 كتابًا باللغة الإنجليزية بعنوان: «الرجل ذو البدلة البيضاء الشركسكين» أو «قصة خروج عائلتي من القاهرة إلى العالم الجديد» حكت فيه عن ذكريات عائلتها اليهودية في مصر ((159)) قبل 1952.

تعمل لوسيتا لاجنادو صحفية ومحققة بجريدة «وول ستريت جورنال»، وهي ابنة اليهودي المصري ليون لاجنادو أحد رجال الأعمال في مصر خلال حقبتي الثلاثينيات والأربعينيات، وقد اختارت أن تكتب ذكريات العائلة عن وطنها الأم الذي خرجت منه مع عائلتها مضطرة عام 1962.

وينقل لنا الكتاب الصادر عن «هاربر كولنز» للنشر بالولايات المتحدة تفاصيل الحياة اليومية للعائلات اليهودية المصرية خلال عهد الملكية، مع وصف تفصيلي للقاهرة ومبانيها وأحيائها وفنونها وحركات المثقفين فيها. وقد اختارت الكاتبة تعبير «الرجل ذو البدلة البيضاء الشركسكين» تعبيرًا عن أناقة والدها وثراء عائلتها حيث كانت تلك النوعية من الملابس قاصرة على أبناء الطبقة الأرستقراطية.

وحرصت الكاتبة على تقديم أفكار مغايرة لمسلماتنا

الثقافية الموروثة دون سند عن صورة اليهودي البخيل التي انتشرت في أفلامنا المصرية، فهي تحكي أن والدها كان مسرفًا يحب السهر والفنون ويلعب القمار ويتناول طعامه في الفنادق الفخمة ويعيش حياة رغدة. كذلك يبدو اليهود المصريون كمثقفين سمحاء أحبوا مصر وبكوا وهم يغادرونها مجبرين.

ويلفت النظر أن لوسيتا تتحدث عن مصر بشوق وروعة وانبهار لا حد له. فالقاهرة القديمة هي جنة العالم الساحرة بمبانيها الفخمة ونظافتها الجاذبة، والحياة فيها ممتعة جميلة ومثيرة حيث يعيش أبناء العائلات اليهودية الكبرى في ترفٍ واضح، فيقضون نهارهم في العمل المالي فيما يقضون الليل في النوادي والاستماع للغناء ومشاهدة الرقص. وغالبًا ما تتركز عائلات اليهود الكبرى مثل عائلة قطاوي وموصيري ومنشه في الأحياء الراقية كالزمالك والمعادي، بينما تقطن العائلات اليهودية الفقيرة في أحياء مثل الظاهر والسكاكيني وحارة اليهود.

وتتميز الجالية اليهودية في مصر بحرية حركة واندماج نسبي داخل المجتمع ناتج عن سماحة الشعب المصري وإيمانه بفكرة المواطنة بشكلٍ يقيني خلال عصر الملكية وما قبلها .

وتحدثنا لوسيتا عن والدها ليون، الأرستقراطي الذي يعيش في ترف ويحب الرقص والغناء ويستمتع بلعب البوكر. وقد وصل أبوها إلى سن الثانية والأربعين دون زواج حتى رأى أمها إيدث وتعارفا واتفقا على الزواج. قبل ذلك عاش والدها قصة حب شديدة الحساسية مع مطربة مصرية كبيرة وقد حال اختلاف الدين بين زواج الاثنين. وتذكر لوسيتا أن تلك المطربة كانت تعشق ليون لوجنادو لأنه يجيد التعامل بلطف ولياقة مع السيدات وكان يتمتع بجاذبية غير محدودة تجعله معشوق كثير من النساء.

وكانت الأسر اليهودية الغنية حريصة على تعليم أبنائها تعليمًا متميزًا، وتذكر لوسيتا أنه كان من الشائع أن يتحدث شباب تلك العائلات معًا في حفلاتهم بلغتين أو أكثر إلى جانب العربية. ويمكن القول إن أبرز اللغات السائدة بين أبناء اليهود كانت الفرنسية، ثم الإنجليزية والإيطالية والألمانية واليونانية.

وعندما افتُتح الأوبرج عام 1942 انتقل والد لوسيتا بحفلاته وسهراته الليلية إلى هناك، وكثيرًا ما التقى الملك فاروق ولعبا معًا البوكر. وكان الملك فاروق يغش في أوراق اللعب؛ لذا لم يكن أحد يستطيع هزيمته.

وتذكر لوسيتا أن الاضطرابات الحقيقية في حياة اليهود

المصريين بدأت مع ميلاد دولة إسرائيل. ففي ذلك الوقت تورط الملك فاروق في قيادة الجيوش العربية تجاه فلسطين وأصبحت صورة اليهود في المجتمعات العربية والمجتمع المصري شديدة السلبية. وكان العسكريون المصريون يرون أن الملك فاروق قريب في علاقاته الشخصية مع اليهود في نفس الوقت الذي يقود فيه الحرب ضد الدولة اليهودية.

وتحكي الكاتبة عن السبت الحزين في 26 يناير عام 1952 عندما اشتعل الغضب حرائق في وسط المدينة وتم تخريب ممتلكات كثير من الأجانب واليهود وحتى بعض المصريين الأثرياء.

كان الغضب يوم حريق القاهرة أعمى، حيث أُضرمت النيران في دور السينما والبنوك والنوادي والمحلات التجارية الكبرى والمطاعم لعدة أيام. كما أحرق الغاضبون فندق شبرد وماتت فتاة يهودية في الحريق. وتشهد الكاتبة الأمريكية أن الغضب المشتعل خلال حوادث 26 يناير 1952 لم يكن موجهًا ضد اليهود فقط، وإنما كان ضد البريطانيين والمشكوك في مناصرتهم للاحتلال البريطاني، مع ذلك كان هناك ضحايا كثيرون لم يرتكبوا خطأ.

المهم أن هذا الحادث كان بداية خروج اليهود من مصر.

فقد انتهى الحال بكثير من أبناء الطائفة إلى البقاء في منازلهم أيامًا طويلة خوفًا من الانتقام العشوائي من بعض الغاضبين. «نحن أبناء هذا الوطن» هكذا قالوا، لكن الكلام لم يكن مفيدًا في ظل الغضب الشعبي، الذي نجح قادة ثورة 23 يوليو فيما بعد في استثماره استثمارًا جيدًا.

في أيام قليلة تغير كل شيء. سقط الملك فاروق وتنازل عن عرشه وغادر البلاد على ظهر المحروسة وتولى العسكريون الحكم. تتذكر عائلة لوجنادو مشهد سيارات الملكية وهي تغادر بلونها الأحمر والناس تودعها بنظرات حزينة في شرفات المنازل. كان الملك فاروق يمتلك عدة سيارات من طرازات فريدة كان أبرزها سيارة رولز فانتوم، وأخرى فيراري، وثالثة ألفاروميو، وأخرى كاديلاك وغيرها. بعد سقوط الملكية سارع كثير من الناس بطلاء سياراتهم باللون الأحمر وقد صاحب إلغاء الباشوية والبكوية عملية تغيير شاملة لأسماء شوارع القاهرة. كما تم تغيير اسم شارع الملكة نازلي حيث تسكن عائلة لوجنادو إلى شارع نهضة مصر، ومن قبل كان الملك فاروق قد غيَّر اسم الشارع إلى شارع الملكة بعد خلافاته الشهيرة مع أمه. أما شارع فؤاد فقد تم تغييره إلى شارع 26 يوليو وهو يوم تنازل الملك فاروق عن عرشه. كما تم أيضًا تغيير اسم ميدان سليمان باشا إلى ميدان طلعت حرب رغم أن سليمان باشا هو القائد

الفرنسي الذي أسس ودرب أول جيش مصري حديث في عهد محمد علي.

وبعد تأميم قناة السويس وخروج عبدالناصر من حرب السويس زعيمًا بدأت مصر تغييرًا واضحًا في تشكيلها الاجتماعي وكان على العائلات اليهودية الغنية أن ترحل. في 9 نوفمبر عام 1956 أمهل جمال عبدالناصر كل مَن يحمل جواز سفر فرنسي أو إنجليزي 72 ساعة للخروج من مصر، وقد خرج كثير من المدرسين والمعلمين والمهندسين والأطباء المدنيين دون ذنب لهم رغم أن كثيرًا من هؤلاء ولدوا في مصر ولا يعرفون حياة لهم خارجها. وقتها – كما تقول لوسيتا – بدأ كثير من الشباب في توديع أهلهم والسفر إلى العالم الجديد، ولم يكن السؤال المطروح بين عائلات اليهود الثرية: هل نسافر أم لا؟ ولكن كان السؤال: متى نسافر؟

على أي حال لم يسافر والدها حبًا في مصر، رغم سفر كثير من أقربائه إلى إسرائيل وإنجلترا وأمريكا. كانت إسرائيل مختلفة تمامًا عمّا ظن اليهود المهاجرون، فالطقس لم يكن جيدًا وحكى بعض مَن هاجر من أقربائهم أنهم كانوا يوضعون في مستوطنات بدائية ضيقة، وكانت الحياة بائسة ولا يوجد أدنى اهتمام باليهود الشرقيين حتى إن خالتها

أصيبت بسرطان الرئة بعد وصولها إلى إسرائيل بشهور بسيطة، رغم أنها لم تدخن في حياتها سيجارة واحدة. وكل يوم كان والدها يؤجل الرحيل متعلقًا ببقايا أمل في حياة مستقرة، إلى أن تم تأميم شركاته واحدة تلو الأخرى ولم يجد بدًّا من الرحيل على ظهر باخرة مع مئات العائلات اليهودية والأجنبية إلى حيث لا يبغي ولا يتمنى.

تصف لوسيتا السفينة التي حملتهم إلى فرنسا بالسجن الكئيب الذي ضم أطنانًا من الحقائب والرجال والنساء والأطفال. وتذكر الطفلة التي كان عمرها ست سنوات في ذلك الوقت كيف صرخ والدها فور تحرك السفينة: «رجعونا مصر»، وأخذ في النحيب بتأثر شديد. ومرت الباخرة باليونان حيث هبط بعض المسافرين، ثم بإيطاليا حيث هبط آخرون، وأخيرًا في فرنسا حيث هبط الباقون. وهناك استقروا سنوات قليلة قبل أن يتحركوا مرة أخرى إلى أمريكا.

بعد ذلك بعقود وفي 2005 ستزور لوسيتا لوجنادو بلد أجدادها مرة أخرى بصحبة زوجها دوجلاس فيادين الصحفي الأمريكي، وستسير في نفس الشوارع التي عرفتها طفلة صغيرة وستذهب إلى «جروبي» الذي اعتادت الجلوس فيه مع والدها، وستلحظ كم تغيرت مصر وكم تغير ناسها.

***

- 7 -

كانت فضيحة لافون ضربة قاسية ونهائية لليهود المصريين، وقد استُغلت أسوأ استغلال. الحكاية ببساطة أن مجموعة من الإرهابيين اليهود شكلوا تنظيمًا سريًّا بالتعاون مع المخابرات الإسرائيلية كان هدفه تفجير عدد من المنشآت العامة في مصر، منها مبنى بوسطة، ومحطة قطار، ومكتبة أمريكية. وكان الغرض المعلن من العملية ضرب علاقة مصر والولايات المتحدة وتأجيل الجلاء البريطاني. وتم محاكمة المتهمين أمام محكمة عسكرية وحُكم على اثنين منهم بالإعدام هما موسى لتو مرزوق، وسامي عازر، وتم إعدامهما بالفعل. وقال زكريا محيي الدين وزير الداخلية وقتها إن الحادث نفذه إرهابيون خونة وإنه لا ينسحب على اليهود المصريين ككل، وإن معظمهم مواطنون شرفاء، والقضية لا تمسهم من قريب أو بعيد(158).

لكن ذلك لم يكن حقيقيًّا، فقد بدأت الإجراءات القاصمة ضد اليهود ككل، وبدأ تفعيل قانون الجنسية المصرية الذي صدرسنة 1948 ونص على عدم منح الجنسية إلا لمَن يثبت أن جده مصري، وهو القانون الذي أُدخل عليه سنة 1950 تعديل يسمح للحكومة بسحب الجنسية من أي شخص تراه

غير جدير بها.

المهم أن فشل كثيرين في الحصول على الجنسية، والتضييق على البعض الآخر واتساع عمليات القبض على اليهود تشككًا في ولائهم أدى إلى هجرة نحو عشرين ألف يهودي خلال عام 1954 فقط، وكانت السنوات التالية لإعلان قيام إسرائيل قد شهدت هجرة عشرين ألفًا آخرين.

في الوقت ذاته تم وضع ممتلكات 486 عائلة يهودية تحت الحراسة، وهو ما أثار حالة من القلق والفزع لدى معظم أصحاب الثروات الذين اضطروا إلى تهريب ثرواتهم خوفًا من المصادرة.

لم تكن السلطة المصرية في وقتٍ يسمح لها بالتيقن من نوايا اليهود، وكان القرار الأسهل هو الاستبعاد التام، والتخوين، وحتى أولئك الذين قدموا خدمات وطنية جليلة لمصر مثل الناشط الشيوعي هنري كورييل، فقد ظلوا مُبعدين، بعد أن سُحبت منهم الجنسية المصرية.

ولم يكن غريبًا أن يتفق كثير من الباحثين المصريين على تحميل اليهود مسئولية خروجهم من مصر لأنهم ارتكبوا جريمة «لافون» التخريبية، وهو منطق مغلوط لأنه يفترض أن جميع اليهود المصريين شاركوا الجناة تخطيطهم وتدبيرهم وتآمرهم، وهو مستحيل عمليًّا.

وهكذا استمرت سياسات الحكومة الحادة تجاه أي آخر، والمتشككة في الجميع في التعامل البوليسي مع اليهود المصريين ليتم تطفيشهم تدريجيًّا، غير أن هناك مَن أبوا مغادرة بلدهم مصر، لكنهم دفعوا الثمن.

***

- 8 -

شحاتة هارون، مواطن مصري عنيد، رفض أن يغادر مصر لأنه يهودي. كان الرجل كمَن يقبض على الجمر، فأينما ذهب فهو متهم بالخيانة، ومتى تحدَّث ناله الشك، وطاردته العيون المتربصة. والأدهى أن الدولة المصرية ظلت متشككة في نواياه، تفتش في داخله عن أي تصورات أو خطط تخريبية، لتقوم باعتقاله كلما حدث هجوم إسرائيلي على مصر.

كتب «هارون» رسالة إلى الرئيس جمال عبدالناصر في فبراير سنة 1967 قال فيها شاكيًا: «كيف لي أن أُعلل سياسيًّا أني وغيري من اليهود محروم من أداء واجب الخدمة العسكرية؟ أني وغيري من اليهود لا أستطيع مغادرة البلاد إلا نهائيًّا بعد التنازل عن الجنسية المصرية أو الإقامة في مصر! أني وغيري من اليهود محروم من العمل في المؤسسات العامة. كيف أُعلل سياسيًّا كلمة يهودي المضافة

إلى جانب بيان الجنسية في بطاقات العمل؟ كيف أُعلل أن يتضمن القانون نصًّا صريحًا على وضع اليهود في القائمة السوداء بموجب قرار وزير الداخلية رقم 183 لسنة 1964؟»

وأضاف قائلًا: «سيدي الرئيس: إنكم تدركون مدى حرجي السياسي، إلى جانب ألمي النفسي من هذه التدابير التي تُعد من رواسب ماضٍ بغيضٍ أعلنتم مرارًا عن حتمية محوه»(157).

لكن اللطيف في الأمر أن شحاتة هارون قُبض عليه بعد إرساله هذا الخطاب إلى الرئيس، ولم يقف الأمر عند ذلك، بل كانت سلطات الأمن تقوم بالقبض عليه كلما حدث اشتباك على الجبهة المصرية مع إسرائيل، ففي يونيو 1967 قُبض على الرجل وظل في قسم الشرطة عدة أيام دون تحقيق، وتعرض للضرب، وتكرر الأمر نفسه عدة مرات كان آخرها سنة 1975، وبعد الإفراج عنه أجرى الأستاذ صلاح حافظ(156) حوارًا معه نُشر في «روز اليوسف» في يونيو 1975.

واللافت في الحوار أن أسئلة المحاور عدائية، ومتأثرة إلى حد كبير بمناخ التربص العام باليهود، فنجده مثلًا يسأله: «أليس غريبًا أن تكون يهوديًّا، ومعاديًا للصهيونية؟»،

فيجيب شحاتة بمنطق قائلًا: «ليس أغرب من أن تكون مسلمًا وترفض الإخوان المسلمين أو أمريكيًّا أبيض وترفض التفرقة العنصرية تجاه السود..»، ويعود صلاح حافظ ليسأله: «ألا تؤمن بتفوق الجنس اليهودي؟» فيرد: «لا أومن بتفوق أي جنس». ويسأله صلاح حافظ قائلًا: «لكن معظم اليهود نزحوا من مصر الآن.. فلماذا لم تنزح أنت؟» فيجيب في عقلانية: «لأنني أرفض أن أنزع عن نفسي صفتي كمواطن وحتى كإنسان وأرفض صورة اليهودي التائه، وعلى المواطن اليهودي أن يتبنى قضايا الوطن الذي ينتمي إليه فهذا ضمانه وليست الصهيونية».

ونلمح مع انسياب الحوار وحِدّة الأسئلة ومنطقية الإجابات حالة من التعاطف تتسرب لدى المحاور، وهو صحفي مصري مخضرم يقصد ما يقول، فنجده يسأله عن المتاعب التي يواجهها نتيجة الخلط بين كونه يهوديًّا ووجود صراع عسكري مع إسرائيل، فيحكي شحاتة هارون أنه في أحد الأيام جاءته ابنتاه من المدرسة تبكيان لأن دروس التربية القومية تسب اليهود وتلعنهم، وبعد أيام زاره صحفي أجنبي سبق وزار إسرائيل وسأله عمّا يتم تدريسه للأطفال في المدارس فأخبره بأنهم يمجدون اليهود ويعتبرونهم أرقى البشر ويحقرون العرب، فنادى ابنتيه وشرح لهما أن ما يحدث هنا هو رد فعل لما يسمعه التلاميذ هناك. كلاهما خطأ.

وهكذا لم تعُد إحداهما من المدرسة باكية(155).

بالطبع، فإن ما واجهه المحامي المصري شحاتة هارون موجع للنفس، فكثيرًا ما اتُّهم بالخيانة وتعرَّض للسخرية والضرب والسَّب، لكن أقسى من ذلك في تصوره هو نزع مصريته، فقد ساءه جدًّا أن تنشر الصحف خبر القبض عليه بوصفه يهوديًّا يساريًا وليس مصريًّا يساريًا. لقد دفعه ذلك إلى أن يقول للصحافة المصرية كلها: «لن أترك وطني حتى لو قطعوا رقبتي. إنه وطني، حقي وواجبي، وأنا محامٍ ولن أفرط في حقي. اسمعوا أنا إنسان ولي أكثر من هوية. أنا مصري عندما يُضطهد المصريون، وأسود حين يُضطهد السود، ويهودي حين يُضطهد اليهود»(154). المثير في الأمر أن هذا الرجل ظل مقاومًا للصهيونية ومعاديًا لإسرائيل لدرجة حادة حتى بعد توقيع مصر لاتفاقية السلام، وفي سنة 1979 علم أن إيجال يادين نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي في القاهرة وأنه سيزور المعبد اليهودي في شارع عدلي، وبالفعل ذهب إلى هناك وتعرَّض لتفتيش دقيق ليراه ويقول له: «إنني أريد أن أصارحك بأن معاهدة السلام مهينة، وأنني كواحد من أبناء شعب مصر أرفضها». ولم تمضِ أيام على الواقعة حتى اقتحم زوار الفجر بيته ولم يكن موجودًا فروعوا ابنته وجمعوا كل كتبه وصادروها ليدفع ثمن آرائه

السياسية كما دفع ثمن عقيدته الدينية التي ولد بها.

***

- 9 -

يمكن تفسير التنمر المجتمعي المصري تجاه اليهود بأكثر من وجه، لكن في ظني فإن سماح السلطة أو حظرها لذلك التنمر هو المتحكم الأول فيه.

ويبدو أن حقبة الخمسينيات كانت الحقبة الذهبية لممارسة كافة أشكال التمييز المُجتمعي تجاه الآخرين استنادًا لوجود رغبة لدى السلطة الحاكمة، التي تتصور أنها تواجه باعتبارها حاكمة بعد ثورةٍ عددًا من الثورات المضادة التي تُجيز اللجوء لسلوكيات لا أخلاقية في مواجهة خصومها.

من هنا لم يكن التمييز تجاه يهود مصر قاصرًا على القوانين والقرارات والإجراءات الحكومية الخاصة بنقل الأموال أو السماح بالسفر أو الحصول على الجنسية أو غيرها، وإنما امتد الأمر لنظر الناس، العامة، المجتمع، تجاه أحد فصائل المجتمع نفسه. لقد صار اليهود مُتهمين دائمًا وأبدًا، وفي كل كارثة أو أزمة أو جريمة ما كان السؤال الأول يبحث عن دور يهودي، وكان أي يهودي يُجابَه بنظرات اتهام دائمة تلاحقه أينما ذهب.

نُسجت النكات الشعبية، واختُلقت القصص، وصارت كلمة «يهودي» في الذاكرة الجمعية للمصريين مرادفًا لبخيل، وجشع، ومستغل، ولم تنجُ الثقافة العامة والسينما من ذلك. فعملت كثير من الأفلام السينمائية على ترسيخ فكرة اليهودي المحتال أو الشحيح، ومع الوقت تحولت الفكرة إلى مُسلمة راسخة.

ولم يكن غريبًا أن يمتد الخطاب الشعبوي النامي بضوءٍ أخضر سلطوي، إلى الخطاب الرسمي للدولة المصرية نفسها لنجد في بعض خطب الرئيس جمال عبدالناصر يتحدث عن إسرائيل بكلمة «اليهود»، فيقول: «تصدينا لقوات اليهود»، أو «اليهود عاوزين..» أو خلافه(153).

وفي الإطار ذاته وصل الأمر إلى مستويات متدنية من الإسفاف وسوء الخلق لم تُراعَ فيها أي مشاعر تعاطف أو احترام لأصحاب ديانة أخرى، فاستمعنا إلى نكتة شهيرة ما زالت تسجيلاتها موزعة على منصة «يوتيوب» للفنان إسماعيل ياسين، وهو يسب فيها الدين لليهود، ويرد الجمهور بالتصفيق الحار.

***

لم تخلُ إسهامات الأدب المصري الحديث من استنفار

مشابه تجاه اليهود الذين رُموا بنقائص عديدة، غير أن هناك بعض الإصدارات الحديثة التي حاولت رد الاعتبار لليهود المصريين، وتصويرهم كمجتمع طبيعي يضم الأخيار والأشرار.

ومن ذلك مثلًا رواية الروائي أشرف العشماوي التي حملت عنوان: «صالة أورفانيللي» وهي صالة مزادات يعمل فيها مصريان، أحدهما يهودي وهو الطيب، بينما المسلم شرير ومستغل، وحاولت الرواية تقديم صورة أخرى لليهود قبل 1952 ليظهروا كبشر عاديين، وليسوا كشياطين وخونة. والمثير هنا أن «العشماوي» التقى خلال رحلة بحثه الاستكشافية بشأن الرواية بكثير من اليهود المصريين الذين اضطروا في الخمسينيات والستينيات إلى تغيير أسمائهم إلى أسماء مسلمين كمحاولة منهم للفرار من تنمُّر المجتمع وتمييزه ضد كل يهودي.

وحكى الروائي لكاتب هذه السطور أن هناك موظفين اشتهروا بتزوير البطاقات الشخصية لليهود ليحملوا أسماء مسلمين، لكنهم ظلوا يهودًا في السر(152). وقال «العشماوي» إنه التقى يهوديًّا اسمه الرسمي أحمد، حدَّثه عن ذكرياته في حارة اليهود وحكايات زمن التسامح والجمال الإنساني، لكن كان من الموجع أن يبقى الرجل يهوديًّا في

السر فقط، فيحمل عقيدته في رأسه ويُغلق عليها خوفًا من اضطهاد أو تعصب الجهلاء.

لقد ذكرني الأمر بحكايات المسلمين الموريسكيين الذين اضطروا إلى التخفي في هويات مسيحية بعد سقوط الأندلس(151).

***

---

(172) عرفة عبده علي ـ يهود مصر منذ عهد الفراعنة حتى عام 2000 - هيئة الكتاب ص 23.

(171) شحاتة هاورن ـ يهودي في القاهرة . مذكرات. ص 60.

(170) انظر عرفة عبده علي ـ يهود مصر من الخروج الأول إلى الخروج الثاني. هيئة قصور الثقافة. ص 26 وانظر أيضًا محمد أبو الغار ـ يهود مصر من الازدهار إلى الشتات. ص60.

(169) عرفة عبده علي ـ يهود مصر منذ عهد الفراعنة. حتى عام 2000 - هيئة الكتاب ص 91،92.

(168) عبدالرحمن الرافعي وسعيد عاشور ـ مصر في العصور الوسطى.. دارالنهضة الحديثة ص 258.

(167) شحاتة هارون . مصدر سبق ذكره. ص61.

(166) عرفة عبده علي ـ المصدر السابق من ص344 إلى 345.

(165) عرفة عبده علي ـ المصدر السابق من ص14 إلى 17.

(164) أنس مصطفى كامل. اليهود في الاقتصاد المصري. «الأهرام الاقتصادي». حلقات مسلسلة إبريل 1998.

(163) مصطفى عبيد. التطبيع بالبزنس. أسرار علاقة رجال الأعمال بإسرائيل. ميريت للنشر 2009.

(162) محمود أبو الفتح ـ الوفد المصري. 1927.

(161) حوار هاتفي بين المؤلف والمؤرخ أحمد كمالي رئيس تحرير مجلة «أيام مصرية» المعنية بالتاريخ الحديث. في يوليو 2019.

(160) محمد أبو الغار ـ المصدر السابق ص 72.

(159) lucette lagnado. The man in the white sharkskin suite 2008.

(158) محمد أبو الغار ـ المصدر السابق ص 283 و284.

(157) شحاتة هارون ـ المصدر السابق من ص9 إلى 13.

(156) صلاح حافظ: كاتب صحفي مصري ولد في 1925 وتوفي سنة 1992، درس الطب وتركه للتفرغ للصحافة، تولى سنة 1964 رئاسة تحرير مجلة «آخر ساعة»، ثم تولى سنة 1974 رئاسة تحرير «روز اليوسف». كتب عددًا من الأفلام السينمائية أبرزها: السيرك، والمتمردون، والفلاح، كما كتب سيناريو مسلسل «زينب والعرش» للروائي فتحي غانم.

(155) شحاتة هارون ـ المصدر السابق من ص 47 إلى 51.

(154) شحاتة هارون ـ المصدر السابق ص 58.

(153) يقول عبد الناصر في خطابه بعد العدوان الثلاثي في نوفمبر 1956: «جميع قواتنا المسلحة اتجهت إلى سيناء لترد اليهود المعتدين.. لترد جيش إسرائيل وتكيل له الصاع صاعين».

(152) من لقاء للمؤلف مع الروائي أشرف العشماوي في

فبراير 2021.

(151) الموريسكيون: هم المسلمون الذين بقوا في إسبانيا بعد سقوطها في أيدي الأوزبيين وتحولوا إلى المسيحية ظاهريًّا وظلوا يمارسون عبادات الإسلام سرًّا.

الوجه الآخر للديكتاتور إسماعيل صدقي

«أنا لا أخاف الشعب. إن واجبي هو تبصير بلادي بعواقب وخيمة متوقعة، وإذا لم أفعل أكون مجرمًا»

إسماعيل صدقي في حوار مع «أخبار اليوم» سنة 1947

- 1 -

يربح الشعبيون ولو أخطأوا. يفوز بالرضا السامي أصحاب الشعارات، والخُطباء، ومنافقو الجماهير. أما العُقلاء، النابهون، العمليون، مَن يزنون الأمور بمقياس المكسب والخسارة، فهم غالبًا مُتهمون، ودائما دائمًا منبوذون.

حدث ذلك مع أكثر من زعيم، اختار الواقعية، ولم يهتم بإرضاء الشارع. تمسك بديكتاتوريته في مقابل ديكتاتورية الجماهير، والتي في الغالب تبقى أكثر خطرًا باعتبارها ديكتاتورية مُسيَّسة، وموجَّهة، ومدفوعة من أطراف قد تمتلك القدرة على التأثير في الآخرين، ودغدغة المشاعر، والتلاعب بالعواطف.

إسماعيل صدقي (1875ـ 1950) مثال واضح ونموذج صريح على رجل لم يقتنع بموقف الشارع غير العلمي، ولم يتقبل إرضاء أصحاب الأصوات العالية على حساب قناعاته. صال وجال، وتمسك بقناعاته، وعاند القطيع، ورفض

الخضوع للناس، مقتنعًا بأن الجماهير ليست دائمًا على صواب، وأنه في بعض الأحيان، قد يكون من الأفضل مخاصمة الشارع لصالح ما يتصوره المسئول منفعة عُليا.

بالطبع، فإن ذلك سمت المستبدين في بلاد الشرق، لكن للأمانة العلمية، فقد يحدث في بعض الأحيان أن يترك هؤلاء المستبدون خلفهم منافع كثيرة؛ لذا يمكن بعد حين استقراء إنجازاتهم التي عميت عنها الأبصار في زخم انتقادهم وخصامهم والنفور منهم ومن سيرتهم.

لقد نال إسماعيل باشا صدقي هجومًا متواصلًا من الصحافة على مدى عدة عقود، وظل محل استنكار معظم الناس في عهد الملكية، لدرجة تسمية العهود التي حكم فيها بعهود الإرهاب، وإطلاق صفة «عدو الشعب» عليه.

ولأن الرجل دخل في خلافات سياسية حادة، مع الحزب الأكبر والممثل للجماهير في مصر الملكية وقتها، وهوحزب الوفد. ولأنه كان يحسب كافة الأمور بمعيار العقل، وبميزان المصلحة العليا فقط.. ولأنه اعتاد الصراحة التامة، العارية، ولم يعرف المداورات، والمناورات.. ولأن المصريين في ذلك الزمان، وفيما بعده، وربما حتى الآن لا يقبلون اللون الرمادي للشخصيات السياسية، فالناس لديهم إما طيبون أخيار، أو هم أشرار فُجّار، فإن أحدًا لم يُبصر إنجازات وأعمال الرجل،

وظلت الصورة الذهنية السائدة عنه صورة مُنكرة مرفوضة، وربما طال ذلك حتى وفاته في 9 يوليو سنة 1950، ووقتها فقط تذكر البعض مناقبه، ومحاسنه، وإنجازاته.

***

ـ2ـ

يقولون إن السياسي البريطاني المخضرم ونستون تشرشل (1874ـ1965) مر ذات يوم بقبر ما مكتوب عليه: «هنا يرقد رجل السياسة والصادق العظيم فلان»، فتوقف وتساءل مندهشًا: «كيف يُدفن اثنان معًا في قبرٍ واحد». وكأن الرجل يحكم بأن كل سياسي يكذب بالضرورة، وأن الصدق صفة تكاد تكون منعدمة في المسئول الذي عليه إرضاء الجميع كل الوقت، كلٌّ بقدر استطاعته.

لكن الأمانة والصدقية هنا تقتضي أن نشير إلى أن هناك بعض الساسة في العالم وفي مصر ناقضوا هذه الفكرة، واعتبروا الصدق ضرورة سياسية. ولا شك أن أحد أبرز الصفات المميزة للسياسي إسماعيل صدقي كانت صراحته العارية، وهو ما يمكن استشرافه بعمق من خلال مرور لطيف على سيرته كما حكاها هو في مذكراته والتي حملت عنوان «مذكراتي».

ففيها لا يخجل الرجل من أن يُشير صراحة ـ دون ضغط ـ إلى أن والده أسماه إسماعيل صديق، على اسم وزير مالية الخديوِ إسماعيل، الشهير، والذي عُرف بإسماعيل المُفتش، وكان شقيقًا لحاكم مصر في الرضاعة، وتمتع بنفوذٍ واسع، وسلطاتٍ متعددة، حتى إن البعض كان يعتبر كلمته بمثابة أمر خديوي. لكن لأن السياسة دومًا غادرة، فقد تعرض إسماعيل صديق هذا مثل كثيرين لنوبة غضب مفاجئة من حاكم البلاد، فتم إعدامه سرًّا في حفل نيلي ساهر، وأُلقيت جثته في قاع النهر بحسب كثير من المؤرخين. وهنا فقد اضطر الأب إلى تغيير اسم ابنه من إسماعيل صديق، إلى إسماعيل صدقي، ربما هروبًا من مصير الوزير المغضوب عليه(150).

كما أن صاحب المذكرات لا يخجل من أن يشير لحكاية أخرى تخص جده لأمه، سيد أحمد باشا، رئيس ديوان الوالي محمد سعيد، حيث غضب الوالي عليه يومًا، لسبب غير معروف مثلما هي عادة ولاة الأمور، فقام بالقبض عليه وإلقائه في سجن منسي في أبي قير، وظل الرجل هناك شهورًا طويلة حتى ضاقت الأحوال بأسرته تمامًا فطلبت زوجته من ابنيها انتظار الوالي صباحًا في حديقة قصره وهو يتنزه، والارتماء على قدميه وتقبيلهما طلبًا للعفو عن

والدهما، وهو ما حدث بالفعل، ليستجيب الوالي سعيد لهما ويُطلق سراح والدهما، ثم يرق قلبه له أكثر فقرر تعويضه بمنحه عزبة كبيرة في بركة غطاس في البحيرة مساحتها تسعمئة فدان(149).

وتعكس الحكايتان معًا جانبا مهما في شخصية إسماعيل صدقي، هو الصدق الإنساني العميق، دون أي اكتراث لاحتمال قيام خصومه السياسيين بتوظيف ذلك الصدق في محاولة الإساءة إليه. ففي تصور الرجل، فإن النبل الحقيقي ليس في تصنُّع البطولات الزائفة للآباء والأجداد، وإنما في حكي الواقع الإنساني كما كان، بمرارته وإنسانيته وتجنُّب الخداع والكذب والتجميل.

وهكذا لم يعُد غريبًا أن يواصل صاحب المذكرات صراحته الصافية لدرجة تشعر معها أن الرجل يعترف بكل ما فعل كاملًا ربما بصورةٍ نادرةٍ لم نشهد لها مثيلًا من قبل إلا في مذكرات سعد زغلول. من هنا يشير «صدقي» دون غضاضة إلى حرصه بعد تخرُّجه في كلية الحقوق سنة 1894م على كسب المال، والبحث عنه، والاهتمام به، والانتقال من وظيفة لأخرى سعيًا لراتب أكبر. إنه لا يدَّعي هنا ـ مثلما شهدنا من كثير من الساسة الآخرين ـ زُهدًا كاذبًا، ولم يحاول ارتداء قناع الرضا بالقليل، وإنما صدم قراءه بأنه كان مهمومًا براتبه،

بل وأنه ترك وظيفة وذهب لوظيفة أخرى لأن الراتب أعلى.

إنه يقول عن ذلك: «عُينت كاتبًا في النيابة بخمسة جنيهات فقط رغم أني أول دفعتي. ثم انتقلت مع محمد سعيد رئيس النيابة للإسكندرية براتب عشرة جنيهات، وأعلنوا بعدها عن مسابقة لوظيفة سكرتير إداري بلدية الإسكندرية براتب 30 جنيهًا وكان معظم المتقدمين من المحامين الأجانب وكان السؤال هل الأفضل أن تكون المواصلات في يد الحكومة أو شركة أهلية، وفنَّدت رأيي وعرضت لماذا تنجح المواصلات لو كانت في يد شركة.. ونجحت في الاختبار وكنت الأول..»(148).

وهنا، فإننا نلمح أول بادرة لفكر الرجل الاقتصادي، والذي جعله جديرًا باعتباره أحد أهم الاقتصاديين في مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين، فهو يؤمن بالقطاع الخاص، ويراه جديرًا بالإدارة الأفضل، والتطوير الأعظم؛ لأن الشركة الخاصة تهتم بالتجويد والتحسين سعيًا للربح الذي لن يتحقق إلا في ظل خدمة جيدة بسعر مناسب.

وتتواصل مذكرات الرجل عارضة ـ بدون صخب ـ لأدواره الاقتصادية والسياسية وصولًا لتوليه وزارة الزراعة سنة 1914، ثم وزارة الأوقاف فيما بعد، ثم اختياره رئيسًا للجنة الصناعة والتجارة في مصر، ومشاركته لسعد زغلول في

المطالبة بالاستقلال وتعرضه للاعتقال والنفي إلى مالطة، وما تلا ذلك من خلاف مع سعد ثم عودته لمصر، وتوليه وزارة الداخلية، والمالية، حتى تولى رئاسة الحكومة عام 1930 بعد إقالة مصطفى النحاس باشا، ثم تولى رئاسة الحكومة مرة أخرى عام 1946 قبل أن يرحل عن دنيانا في يوليو 1950 عن عمر ناهز خمسة وسبعين عامًا.

***

-3-

لا شك أن الإشارة للوجه الآخر لإسماعيل صدقي تعني في الأساس إنجازاته الاقتصادية والعمرانية الملموسة. وربما يجهل كثيرون دور الرجل المنسي في تأسيس البناء الفكري والعملي للصناعة الوطنية الحديثة.

وهذه القصة تعود بنا إلى مارس 1916 عندما اختير رئيسًا للجنة التجارة والصناعة، وهي اللجنة التي أُسّست للحد من آثار الحرب العالمية الأولى على الاقتصاد المصري. وكانت اللجنة مكونة من إسماعيل صدقي رئيسًا، وسيدني ويلز مدير التعليم الفني والصناعي نائبًا، وكل من يوسف قطاوي (وزيرالمالية فيما بعد)، وأيمن يحيى بك، وطلعت حرب، ومردوخ، والمستر كريج أعضاء.

وطبقًا لتقرير اللجنة، فقد قام أعضاؤها بزيارة عدد من مصانع وورش القاهرة والإسكندرية وبعض المدن الأخرى لمعاينة الصناعة المصرية، والاطلاع المباشر على واقعها، والتعرف على مشكلاتها، واستمع الزائرون إلى شكاوى أصحاب المصانع، وتم إعداد تقرير نهائي بمقترحات وتوصيات إحياء الصناعة صدر في نوفمبر سنة 1917.

والمثير في الأمر أن التقرير اقترح تعديل نظام الجمارك بما يمنح الصناعة مزايا تنافسية من خلال زيادة الرسوم الجمركية على المنتجات التي لها بديل محلي وإعفاء الخامات ومستلزمات الإنتاج تمامًا من الجمارك.

كما اقترحت اللجنة فتح مدارس صناعية وفنية متنوعة، وكان تصور صدقي باشا أن مستقبل مصر الحقيقي في التعليم الصناعي والفني وليس في التعليم الجامعي.

كذلك اقترحت اللجنة منح إعفاءات وإعانات لبعض المشروعات الصناعية مثل استخراج المعادن. بالإضافة إلى إنشاء معهد للأبحاث الصناعية يقدم المعلومات الفنية للراغبين من المجتمع الصناعي.

وكان من بين مقترحات اللجنة أيضًا إنشاء معمل فني لإجراء التجارب وعمل الأبحاث العلمية وإقامة المعارض التجارية والصناعية، وهو ما يكفل تنشيط القطاع الصناعي

بشكل حقيقي.

واللافت أيضًا أن يتناول التقرير الذي يُعد وثيقة تاريخية عظيمة قضية التصدير، في ذلك الوقت المبكر، ويؤكد على أهميتها باعتبارها قضية «حياة أو موت» كما نقول الآن، بل يصل الأمر به إلى انتقاد القانون التجاري نفسه والمطالبة بتعديله بما يمنح الصادرات المصرية مزايا تنافسية في مختلف الأسواق الدولية.

فضلًا عن ذلك طرح التقرير أهمية إقرار مبدأ الشفافية في كافة المناقصات العامة، بل وأوصى بتطبيق مبدأ العلنية في الاتفاقات التجارية وسَن تشريع خاص لذلك.

وذكر تقرير إسماعيل صدقي بوضوح أن مصر مؤهلة لقيام صناعة عظيمة لكن ما ينبغي النظر إليه هو ضرورة قيام الصناعة برؤوس أموال مصرية محضة خاصة أن عطف الجمهور ورعاية الحكومة يكونان أعظم وأوفى بالنسبة للصناعات المصرية الأصيلة. واستعرض التقرير بعض الصناعات التي يمكن أن تنافس الصناعات الأجنبية في الأسواق الخارجية مثل صناعة الخزف والمواسير والفخار والزجاج والورق والنسيج والأقمشة والأسمنت والصابون والزيوت(147).

وفي الحقيقة، فقد لعب الرجل دورًا بارزًا في ميلاد أول اتحاد للصناعات المصرية، وذلك تحت اسم جمعية الصناعات في القُطر المصري. ففي عام 1920 حدث الميلاد الحقيقي للرأسمالية الوطنية بعد تأسيس محمد طلعت حرب باشا لبنك مصر، وقد صاحب ذلك دعوات وطنية لإنشاء غرف صناعية وتجارية مصرية خاصة في ظل وجود غرف تجارية أجنبية عديدة. ثم ساهم الرجل إلى جانب عدد من الصناعيين المصريين والأجانب المتمصرين، بعد ذلك في إنشاء أول اتحاد للصناعات المصرية سنة 1922، وهو الذي ترأسه رجل الصناعة البلجيكي هنري نوس، وبدأ بثلاثة غرف صناعية هي المقاولات، والملاحة النهرية، وصناعة الدخان والسجائر(146).

وطبقًا للأوراق الرسمية لبرنامج عمل اتحاد الصناعات والمعروف وقتها بجمعية الصناعات المصرية، فقد تضمنت الدعوات التي تبناها ودعا إليها إسماعيل صدقي ومعه رموز الرأسمالية الصناعية في مصر وقتها ستة بنود أساسية وهي:

1 - خفض الرسوم الجمركية ورسوم الرصيف على كافة الواردات من المواد الأولية ومستلزمات الإنتاج.

2 - خفض قيمة النقل في السكة الحديد بالنسبة للسلع والخامات الصناعية.

3 - عمل مبدأ رد الضريبة «الدروباك» على المواد الأولية المستخدمة في سلع يتم تصديرها إلى الخارج.

4 - تفضيل المصالح الحكومية المصرية للمنتجات المصرية في مشترياتها.

5 - تحسين وترقية طرق ووسائل النقل بالبر والبحر والنهر.

6 - إصلاح النظام الجمركي طبقًا للمصالح الاقتصادية(145).

***

- 4 -

عندما رحل إسماعيل صدقي عن الحياة وهو في باريس سنة 1950، تذكرت الصحافة المصرية مناقب الرجل وعددت أفضاله، خاصة في المجال الاقتصادي الذي كان محل اتفاق حتى بين خصومه السياسيين.

وكتبت بعض الصحف عن عبقرية الفكر الاقتصادي للرجل، والذي مكنه من أن ينأى بمصر عن الغرق في الأزمة المالية العالمية سنة 1930، وهي الأزمة التي ضربت مختلف بلدان العالم، وعلى رأسها الولايات المتحدة ودول أوربا. وكان من الواضح أن الإجراءات التي اتخذها «صدقي» وهو رئيس

وزراء مصر ساهمت في إنقاذ البلاد من أزمات طاحنة كان يمكن أن تودي بآلاف الأسر إلى التشرد بسبب فقدان الوظائف تأثرًا بالأزمة.

فمع اتساع حالة الكساد في العالم، وهبوط أسعار القطن، وتأثر ملاك الأراضي والمزارعين في مصر، تفاقمت المديونيات على أصحاب المشروعات الزراعية بشكل كبير، ووقع كثير منهم فريسة للمرابين الجشعين الذين غالوا في تقدير فوائد الإقراض.

واستعان إسماعيل صدقي بشخوص معروفين كخبراء أكفاء في مجال الاقتصاد كان منهم وكيل وزارة المالية وقتها واسمه أحمد عبد الغفار باشا، والذي أعد له دراسة عن الاقتصاد المصري بصورة واقعية وبالذات عن السياسة القطنية المستديمة واقترح فيها تحرير أسعار القطن تمامًا وتركه لظروف العرض والطلب والتوسع في إنتاج القطن إلى أقصى حد مع خفض تكاليف الإنتاج.

كذلك فقد قرر «صدقي» بعد مشاورات ودراسات الإقدام على تخفيض قيمة العملة المصرية، وهو ما حد من الواردات السلعية بشكلٍ واضح، وقلّل في الوقت ذاته من أعباء الديون الخارجية على مصر.

فضلًا عمّا أتاحه ذلك التخفيض من فرص جيدة لزيادة

الصادرات المصرية إلى الخارج وتعويض التراجع المتحقق نتيجة انخفاض أسعار الأقطان بزيادة كميات التصدير منها(144).

لكن العمل الأهم والأبقى كان فيما يخص القطاع الزراعي حين قررت الحكومة التدخل بقوة وحزم لتأكيد أن حرية الاقتصاد لا تعني أبدًا ترك المزارعين يواجهون الأزمة وتداعياتها وحدهم، فهنا قررت الحكومة إنشاء التسليف والائتمان الزراعي(143).

ولم يكن غريبًا على إسماعيل صدقي وقتها أن يستغل علاقاته برموز الرأسمالية الأجنبية لتساهم في إنقاذ الاقتصاد المصري، فتشارك بنصف رأسمال البنك، وهو ما ينفي ادعاءات كثيرة كان يتم الترويج لها بأن الرأسمالية الأجنبية مستغلة ولا يهمها سوى المكاسب(142).

في الوقت ذاته، ضغطت الحكومة مصروفاتها إلى أقصى مدى ممكن، حتى إنها اتخذت لأول مرة في تاريخ مصر قرارًا جريئًا بتخفيض رواتب الموظفين الحكوميين. وهكذا أمكن لمصر الإفلات من شبح أزمة عالمية ضارية عانت منها بلدان كثيرة.

لكن إنجازات الرجل لم تقتصر على مجال الاقتصاد وحده،

وإنما امتدت لمختلف جوانب العمران، ويكفي أنه أنشأ كورنيش الإسكندرية، رغم معارضة الكثيرين له وقتها، وكان لذلك فضل كبير في تجميل مدينة الإسكندرية وتنشيط الحياة الاقتصادية فيها، وتقليل حوادث الغرق، وزيادة أثمان الأراضي والمباني داخل المدينة الكبرى.

***

- 5 -

ليس أصعب من نفاق المحكوم للحاكم سوى نفاق الحاكم للمحكوم. أن يتقبل المسئول مطالب غير ممكنة أو أفكارًا لا يؤمن بها نفاقًا للشعب. وهنا فقد كانت إحدى الصفات النبيلة لدى إسماعيل صدقي هي رفضه القاطع لنفاق الشارع.

يحكي مصطفى أمين(141). ثلاث حكايات تؤكد هذا المعنى عن إسماعيل صدقي. الأولى تقول إن «صدقي» تزوج من فتاة في العشرين من عمرها هي سونيا خليل شاهين، وعندما تولى الحكومة سنة 1946 توفيت زوجته الأولى، وقرر إعلان زواجه، فذهب له مصطفى أمين ونصحه ألا يفعل حتى لا يغضب الشعب. وقال له إن ذلك سيكون بمثابة إعدام لمستقبله السياسي. ورد الرجل بأنه لا ينظر لمستقبل سياسي؛ لأن له ماضيًا عظيمًا. وكرر «أمين» القول بأن

الشعب لن يرضى بذلك. فقال صدقي باشا: «إنني لا أفهم هذا الشعب. هل يسكت على رجل إذا كان بينه وبين امرأة ما علاقة غير شريفة، ويغضب إذا تزوج رجل بامرأة؟ أيهما أفضل أن يحب سياسي عجوز فتاة صغيرة أم يتزوجها؟» وأضاف قائلًا: «على أي حال لقد عودت الشعب أن أواجهه بالحقيقة المرة وقد يجيء يوم يفهم فيه وجهة نظري».

والحكاية الثانية تقول إن الرجل اتصل يومًا بمصطفى أمين، وأخبره بأنه يريد الادلاء بحديث لصحيفة «أخبار اليوم»، وأجابه لذلك وتم الحديث بالفعل وختمه «صدقي» بقوله: «وستبقى وزارتي ما دامت متمتعة بثقة البرلمان وتأييد الملك»، لكن مصطفى أمين الذي يقدم نفسه دومًا كناصح ومستشار وليس مجرد صحفي، قال له: «إنني أفضل أن تكون العبارة: وستبقى وزارتي ما دامت متمتعة بثقة الشعب والبرلمان وتأييد الملك». وهنا فقد أصر الرجل على رأيه وقال له: «لا أريد كلمة الشعب». وعاد مصطفى أمين يُكرر بأنها ضرورية ، لكن صدقي باشا أفحمه شارحًا ومفسرًا بأن هذا نفاق للجماهير لا يرضاه لنفسه. فالحكومات لا يقيمها الشعب ولا يسقطها الشعب وإنما تبقى ما دامت متمتعة بثقة البرلمان وتأييد الملك.

أما الثالثة ففي حرب فلسطين، عندما أدلى بحديث

لصحيفة «أخبار اليوم» عارض فيه دخول مصر الحرب في فلسطين، وقال له مصطفى أمين: «سأنشر الحديث ولكن واجبي أن ألفت نظرك إلى أن هذا الكلام سيثير الشعب»، فرد صدقي باشا قائلًا: «أنا لا أخاف الشعب. إن واجبي هو تبصير بلادي بعواقب وخيمة متوقعة وإذا لم أفعل أكون مجرمًا».

ولا شك أن هذه الحكايات ـ رغم ما تحمله من مبالغة الراوي في تعظيم دوره كمتدخل في شئون الدولة العليا ـ إلا أنها تُظهر لنا جانبًا مهمًّا في شخصية الرجل، الواقعي، الذي يأبى اللف والدوران، والتظاهر، وقول ما لا يؤمن به، والانسياق وراء القطيع، ونفاق الناس.

وفي ظني أن هذه الحكايات، لا تشين الرجل وإنما تنصفه؛ لأنه ليس أسهل من تلوين وتزويق الكلام بلا أفعال!

***

ـ 6 ـ

هل كان إسماعيل صدقي عدوًّا للصحافة؟ وهل كان بالفعل لا يحتمل رأيًا آخر؟ ربما.

لكن في تصوري كباحث فإن الرجل كان لا يجيد التعامل مع الصحافة، لكنه لم يكن يمقتها أو يرفض وجودها.

إننا نجده يفطن لذلك في مذكراته فيصف الصحافة بأنها أقوى سلاح حاربه به خصومه في الحياة. ويفسر الرجل ذلك قائلًا: «إن الصحافة قوة تستطيع أن تبني، وتستطيع أن تهدم، واستطاعتها في الهدم أشد منها في البناء، خصوصًا في بلدٍ لم ينضج بعد النضوج الكافي، ولم يتعود التفكير الذاتي. ولو كانت إلى جواري صحافة مؤيدة لما استطاع خصومي محاربة دستور سنة 1930، ذلك الدستور الذي بينت كيف وضع بعناية وروية ودقة، والذي كان من أرقى دساتير العالم، وأقلها عيوبًا بالنسبة لدستور سنة 1923. بل إنه كان خاليًا من تلك العيوب التي عانتها البلاد في الماضي، وما زالت تعانيها إلى اليوم. لقد كان لدى خصومي صحافة قوية لها دعاية حزبية استطاعت أن تنشرها في ربوع البلاد وكانت حرة من كل قيد، فأمكن لها أن تشوه أغراض الدستور الجديد..»(140).

ولا شك أن الرجل يقصد هنا صحافة «الوفد» التي كانت وقتها ـ في الثلاثينيات ـ الأكثر تأثيرًا وانتشارًا، وهي صحافة قوية لها فرسانها وجنودها المخلصون، لكنها كانت ناجحة متى رضي عنها حزب الوفد، وفاشلة إذا اعتبرها غير معبرة عنه، وهو ما حكته باستفاضة السيدة «روزاليوسف» في مذكراتها.

وما يهمنا هو أن الرجل كانت لديه فلسفة ورؤية واضحة مفادها أن الصحافة الحزبية تحديدًا قد تمارس دورًا لا يعبر عن الحرية بقدر أن يدخل في إطار صراعات اللعبة السياسية السائدة.

وقد انتبه البعض لما يثار بشأن عداء الرجل للصحافة، فكتبت مجلة «الصباح» عقب وفاته موضحة حقيقة ذلك العداء فقالت: «لقد تصور الناس أن إسماعيل باشا صدقي عدو للصحافة؛ لأنه وضع في سنة 1931 قانونًا يمنع إصدار أي صحيفة جديدة إلا إذا كانت لديها مطبعة واشترط دفع ضمان نقدي قدره ثلاثمئة جنيه للصحيفة اليومية، ومئة وخمسين للصحيفة الأسبوعية.. وعندما قيل له إن هذا حجر على حرية الصحافة قال: بل هو خدمة لها لأنه يحصر المهنة في الأكفاء القادرين». ورغم أن مجلة «الصباح» كانت تصدر قبل صدور القانون بسنوات وسنوات فقد قام صاحبها بدفع التأمين النقدي، لكن إسماعيل صدقي علم بذلك فطلب من وكيل الأمن العام إعادة التأمين لصاحب المجلة والاكتفاء بالضمان الشخصي. كذلك تدخل الباشا وهو وزير داخلية لدى وزير المواصلات لإعفاء جريدة «أبوالهول» من دفع فاتورة التليفونات نظرًا للأزمة المالية التي كانت تعانيها وعدم قدرة أصحابها على السداد..»(139).

***

- 7 -

لا جدال أن إسماعيل صدقي لم يكن موفقًا في تصوراته السياسية الخاصة بالقضية الوطنية، ولا يمكن حال تقييم موقفه في ذلك الميل إلى تصويب وجهة نظره في كيفية النضال لتحقيق استقلال مصر. لكن كل ذلك لا يعني بأي حال أن الرجل كان خائنًا أو عميلًا للإنجليز أو مُهادنًا لهم، وإنما كان رأيه أن البراجماتية ضرورية في التعامل في الشأن الوطني، انطلاقًا من قاعدة كون السياسة هي فن الممكن، وأن تحقيق ما هو ممكن، أفضل من عدم تحقيق أي شيءٍ على الإطلاق.

ولا شك أن ذلك التصور كان وراء دخوله المفاوضات مع الإنجليز عدة مرات أولها سنة 1922، والتي كان من نتائجها صدور تصريح 28 فبراير، حيث نص وقتها على استقلال مصر اسميًا عن بريطانيا. كما شارك الرجل في مفاوضات اتفاقية سنة 1936، ثم دخل بعدها في مفاوضات صدقي - بيفن سنة 1946. ورغم أن كل المفاوضات التي دخلها الرجل لم تسفر عن تحقيق الاستقلال الحقيقي المنتظر، فإن مجرد مشاركته فيها وحماسه للتفاوض يؤكد حرصه على السعي لتحقيق الاستقلال، لما فيه من مصلحة عُليا لمصر.

كما يؤكد في الوقت ذاته إيمانه بأن الواقعية تفرض أن يبقى ذلك السعي سلميًا، ولا يتجاوز ذلك.

في الغالب، فإن التقييم الموضوعي لهذه الرؤية قد يحكم بقصورها، لكن كما ذكرنا، فإن هذا لا يمكن أن يحكم على «صدقي» أبدًا بالخيانة، أو أن يسمح باتهامه بالجبن والخنوع والاستسلام للمحتل.

لقد كان واضحًا من مسيرة الرجل أنه أميل للحلول السلمية، وأنه يُقدم حلول السياسة على حلول الحرب في النزاعات والصراعات الدولية، لكن الأمانة تقتضي منَّا أن نقرر بصدق أن بعض تلك الحلول كانت أنجع وأنفع. وليس أدل على ذلك من موقف الرجل المُعلَن من قرار الأمم المتحدة رقم 181 لسنة 1947 الخاص بتقسيم فلسطين بين العرب والصهاينة، حيث كان من أنصار قبول القرار، وعدم الانجرار للدخول في حرب تلتهم عائدات الاقتصاد وتعرقل التنمية.

ونص القرار الصادر في 29 نوفمبر سنة 1947 على إنهاء الانتداب البريطاني عليها، وتقسيم أراضيها إلى ثلاثة كيانات جديدة، هي دولة عربية اسمها دولة فلسطين، وتقع على الجليل الغربي، وعكا، والضفة الغربية، والساحل الجنوبي الممتد من شمال مدينة أسدود، وجنوبًا حتى رفح، مع جزء من الصحراء على طول الشريط الحدودي مع مصر. والكيان

الثاني يمثل دولة يهودية هي إسرائيل، وتقع على الساحل من حيفا وحتى جنوب تل أبيب، والجليل الشرقي بما في ذلك بحيرة طبريا، وإصبع الجليل، والنقب وإيلات. أما الكيان الثالث فهو كيان دولي يضم القدس، وبيت لحم.

وفي رأي المحلل السياسي أسامة الغزالي حرب، فإن هذا القرار أعطى 55% من أرض فلسطين للدولة اليهودية، و 45% للدولة العربية، على أن توضع مدينة القدس تحت الإدارة الدولية. ووقتها كان عدد الدول أعضاء الأمم المتحدة 57 عضوًا فقط، شارك منهم في التصويت 56 دولة، تعرَّض معظمهم لضغوط هائلة من جانب الولايات المتحدة الأمريكية للموافقة على القرار، فكانت النتيجة هي: 33 صوتًا إلى جانب التقسيم، وهي: الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي وفرنسا وهولندا وكندا والسويد والنرويج والدنمارك وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وأوكرانيا وبيلاروس وأستراليا وأيسلاندا ونيوزيلاندا وفنلندا وليبيريا والفلبين وجنوب إفريقيا والبرازيل وفنزويلا وباراجواي وأوروجواي وبيرو وبوليفيا وكوستاريكا وبنما ولوكسمبرج والدومينيكان والأكوادور وجواتيمالا وهاييتي ونيكاراجوا. لكن كانت هناك 13 دولة ضد القرار هي: مصر وسوريا والعراق ولبنان والسعودية واليمن وتركيا وباكستان وإيران وأفغانستان والهند واليونان وكوبا، وامتنعت عن التصويت

عشر دول (في مقدمتهم بريطانيا).

وتساءل «حرب» إن كان رفض مصر قرار التقسيم وقتها صائبًا؟ وأجاب نافيًا ومذكرًا بأن أحد أذكى الساسة المصريين في ذلك الوقت وهو إسماعيل صدقي كان يدعو إلى قبول قرار التقسيم، محذرًا من دفع اليهود للتحول للحرب والقتال، ولكن مصر الملكية انجرفت وراء الدعوات الشعوبية المقيتة. وكانت النتيجة هي الصراع الطويل المرير، الذي ذهب ضحيته الآلاف وانتهى لابتلاع أرض فلسطين كاملة(138).

وفي رأي السياسي والدبلوماسي مصطفى الفقي، فإن ما رآه إسماعيل صدقي في ذلك الوقت كان يمثل واحدة من الفرص الضائعة على الفكر العربي. فالرجل كان يرى أن اليهود الذين احتشدوا من كافة أنحاء العالم على أرض فلسطين سيحيلون الأراضي المحتلة إلى ترسانة أسلحة ويستقطبون الخبرات العسكرية من كل مكان، وهو ما يعني أن نساهم برفضنا التقسيم في تحويلهم من شعب لا يجيد القتال إلى دولة محاربة، وهو ما حدث تمامًا.

لقد كانت قراءة الرجل للصراع واعية وكان يدرك أن البراجماتية السياسية ضرورية في كثير من الأحيان لحسم مشكلات تبدو عويصة(137).

***

-8-

اختلاف البعض مع مَن نحب قد يحول هؤلاء البعض إلى أعداء لنا. وهذا المنطق حاكم للتاريخ البشري منذ القدم، ربما انطلاقًا من أن عدو العدو، صديق، وخصم الصديق، عدو.

ويمكن القول إن أحدًا لم يحظَ في تاريخ مصر الحديث بشعبية مثلما حظي بها سعد زغلول، وهي ما يمكن قياسه في كونه الرجل الوحيد الذي أدى ظلمه إلى اندلاع الثورة الشعبية الوحيدة في تاريخنا وهي ثورة 1919. وهنا فقد تحول «زغلول» إلى أسطورة في العشرينيات والثلاثينيات وصلت إلى حد قبول رأيه وقراراته وتصوراته قبولًا تامًّا، والتسليم بآرائه في الساسة المناوئين له دون مناقشة. وربما كان ذلك سببًا في تصاعد العداء لإسماعيل صدقي، الذي اختلف مع سعد زغلول في سنة 1919 عندما قرر الوفد توثيق انتهاكات السلطات البريطانية ضد المصريين وعرضها في أوزبا، وهو ما اعتبره «صدقي» تصعيدًا للخلاف، وانتهى الأمر بفصل «صدقي» نهائيًّا من الوفد.

رغم ذلك، فإن سعد زغلول لم يتحول لدى الرجل إلى عدو، وظلت نظرة إسماعيل صدقي للرجل نظرة تقدير واحترام.

وليس أدل على ذلك ممَّا ذكره «صدقي» في مذكراته عن سعد وقوله إنه «رجل امتلك الأفئدة والنفوس، وبقي طوال حياته الزعيم الأكبر»(136).

ويحلل «صدقي» ذلك بتروٍّ وموضوعيةٍ فيقول: «كان سعد زغلول زعيمًا وطنيًّا بكل ما تؤديه هذه الكلمة من معانٍ، ولو أن كلمة زعيم لا تمنع كونه سياسيًّا قديرًا، وقائدًا ماهرًا في أوقات الشدائد، ورُبَّانًا بارعًا صارع الأنواء والأمواج، وواجه الأخطار، فلم تؤثر في عزيمته ولم تزعزع من جبروت نفسه وإرادته»(135).

ثم يضيف قائلًا: «صحيح أنني اختلفت معه، وصحيح أنه كان للرجل أخطاء. ومَن ذا الذي لا يُخطئ. وصحيح أنه كان فيه عيوب، ولكنها كما يقول الفرنسيون: العيوب التي تلازم الصفات الكبيرة، وقد قيل عني في باريس ما دعاه إلى تصديق عبارات ألقاها إليه بعض الواشين، ولكن عندما تلاقينا ووقف على حقيقة الأمر لم نلبث أن تفاهمنا. ولم يكن بيني وبينه في بعض المواقف إلا ما يكون بين رجلين مختلفين في الرأي لمصلحة بلدهما، فكنت أُجلُّه كل الإجلال، وكان يشملني بتقديره، حتى إذا زالت أسباب الخلاف عاد اتصالنا وتعاوننا معًا. وقد بقي الاحترام والإجلال من جانبي، والعطف والتقدير من جانبه حتى وفاته. وكانت أخريات

أيامه تمتاز فيما يختص بشخصي بعطفٍ شامل، بل بمحبة فائقة، فإذا ذكرته تمثلت أمامي مواهبه العظيمة التي فقدناها وخسرتها مصر من الوجود»(134).

***

-9-

إن جانبًا مهمًّا آخر يميز شخصية إسماعيل صدقي، يمكن أن يزيد نفور العامة منه، ألا وهو الإنصاف الإنساني. وهو إنصاف يدفعه أن يستحسن ذكر شخص ما يبغضه الناس، أو انقضى زمنه، وبات انتقاده أمرًا مباحًا في ظل لا اكتراث السلطة الجديدة في ذلك.

وليس مثالًا على ذلك من إصرار إسماعيل صدقي على تذكر محاسن وإيجابيات الملك فؤاد بعد مرور أربعة عشر عامًا على رحيله، وفي ظل وجود نفور عام من الناس من عهده.

لقد صدرت مذكرات إسماعيل باشا عام 1950 وكتب فيها مذكرًا بعظمة الملك السابق أحمد فؤاد، مكررًا حسناته وإنجازاته دون أن يكتب حرفًا واحدًا عن الملك الآني للبلاد فاروق الأول. صحيح أن فاروق هو ابن فؤاد، لكن الإشارة لمناقب الملك السابق دون أي ذكر للملك الآني لم يكن أمرًا

معتادًا، خاصة لدى السياسيين الذين كانوا يلجأون في بعض الأحيان إلى انتقاد السابق للتدليل على حسن سياسة الحاضر.

نقرأ في مذكرات «صدقي» عن الملك فؤاد قوله: «كان الملك فؤاد وطنيًا صميمًا متعصبًا لمصريته، مع أنه عاش طويلًا في الخارج، وأعجب بحضارة البلاد الغربية، ولكن إعجابه كان مقصورًا على رغبته في الإفادة من حضارة الغرب بما يدفع مصر خطوات في طريق الرقي والنجاح. وكان إلى سماحة نفسه ونزاهته وتواضعه الكبير، عظيم الترفع عن الصغائر، حريصًا على المحافظة على كرامته وكرامة العرش؛ لأنه كان يرى العرش رمزًا لعظمة الأمة ومجدها، فكان ينأى به من أن يمسه شيء قريب أو بعيد خصوصًا في بلد شرقي. وكان الحكم في نظره ينبغي أن يُبنى على العلم والعرفان، وقد عني منذ كان أميرًا بتقدُّم مصر العلمي، ووقف جهوده على ترقية الحياة العقلية للأمة. ولما تولى العرش اهتم بالجامعة المصرية فيما اهتم به من جلائل الأعمال، ونقلها إلى الحكومة وجعلها من كبريات الجامعات. كما اهتم بالجمعيات العلمية فأحيا الجمعية الجغرافية وجدَّد نشاطها، وأسَّس جمعية الاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع، وأنشأ معهد الأحياء المائية، وأنشأ متحف فؤاد الصحي، ومعهد البحوث

الصحراوية...»(133).

***

---

(150) إسماعيل صدقي ـ مذكراتي - هيئة الكتاب - 1950، ص 9.

(149) المصدر السابق ص 10 و11.

(148) المصدر السابق ص 16.

(147) تقرير التجارة والصناعة ـ الحكومة المصرية ـ سنة 1917.

(146) مجلة مصر الصناعية. العدد الأول. سنة 1925.

(145) من الغريب أن تبقى توصيات إسماعيل صدقي الداعمة للصناعة والتي أطلقها قبل مئة عام، مكررة في اجتماعات لجان الصناعة بمجلس النواب خلال السنوات العشر الأخيرة، باعتبارها الحلول العملية لمشكلات الصناعة.

(144) محمود متولي ـ الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها ـ قصور الثقافة. 2011 ص 137و138.

(143) صدر المرسوم الملكي بتأسيس البنك الزراعي في 25 يوليو 1930.

(142) محمود متولي ـ المصدر السابق ص 141.

(141) انظر مصطفى أمين ـ عمالقة وأقزام. أخبار اليوم. فصل كامل بعنوان «الرجل الذي لا يخشى الشعب»، والغريب أن هذا الكتاب الذي ضم مشاهير السياسة قبل 1952 مثل سعد زغلول، وإبراهيم عبدالهادي، والنقراشي، وإسماعيل صدقي؛ أعاد مصطفى أمين سنة 1988 طبعه في كتاب آخر حمل عنوان «شخصيات لا تنسى. الجزء الأول» واستثنى من كافة فصول الكتاب الفصل الخاص بإسماعيل صدقي، وحذفه دون مبرر واضح.

(140) إسماعيل صدقي ـ المصدر السابق ص 99.

(139) مجلة «أيام مصرية» فبراير 2001. من مقال بعنوان: «موقف الصحافة المصرية من رحيل إسماعيل صدقي».

(138) أسامة الغزالي حرب - في ذكرى تقسيم فلسطين - «الأهرام»، 30 نوفمبر 2020.

(137) مصطفى الفقي ـ اليهود وإسماعيل صدقي -

«المصري اليوم»، 4 إبريل 2015.

(136) إسماعيل صدقي ـ المصدر السابق ص 62.

(135) إسماعيل صدقي ـ المصدر السابق ص 61.

(134) إسماعيل صدقي ـ المصدر السابق ص 62.

(133) إسماعيل صدقي ـ المصدر السابق ص 89.

الكتاب الأسود للرجل الأبيض

«لقد اشتركت في كتابة الكتاب الأسود، والآن أقول بصدق: إن ما كان من فساد فيه لا يقارن بما عرفنا من فساد في عصر ما بعد يوليو ..»

جلال الدين الحمامصي في حوار مع محمد عبد القدوس في 1986

- 1 -

بعض السهام قاتلة، وبعضها ينغرس في جسد الفريسة ليزيدها تحصنًا وقوة. هذا ما حدث مع مصطفى النحاس، زعيم الوفد المصري، بعد وفاة سعد زغلول سنة 1927 وحتى رحيله في أغسطس 1965.

النحاس، الولي، النزيه، الشريف، النبيل، الذي مات فقيرًا، لا عزب ولا أطيان، لا ثروة، ولا رصيد بنكي، لا ممتلكات عقارية، لا قصور هنا أوهناك. لا شيء البتة.. لا شيء سوى قيم النبل والشرف والرقي الإنساني في أسمى معانيه.

نُبذ قهرًا، وعُزل دهرًا، وأفاض خصومه في لعنه، وسبِّه، والسخرية منه، واتهامه بكل نقيصة، لكن الله شاء أن يبقى رغم كل شيءٍ مُنزرعًا في قلوب الناس كواحد من الأولياء الصالحين. وهذا الوصف تحديدًا أطلقه عليه خصومه،

لدرجة أنهم خشوا أن يحاكموه عقب ثورة يوليو، حتى لا تطاردهم اللعنات على حد تصورهم.

سهام وراء سهام، وطعنات تلو طعنات تلقاها الرجل، ومحاولات اغتيال عديدة، ومتنوعة نجا منها جميعًا، ليزداد صلابة وقوة، وتعلو همته و مقدرته على المقاومة، لكن أصعب محاولة اغتيال، كانت معنوية، وجاءت في أوج تألقه، وللأسف الشديد صدرت من صديق عزيز كان يومًا موضع أسراره ومحط ثقته، وهو مكرم عبيد باشا، السياسي المخضرم، والمحامي اللبق، شديد الذكاء، بليغ اللسان، والذي أملى بما حازه من معلومات على الكاتب جلال الدين الحمامصي «الكتاب الأسود» حاشدًا اتهامات مشينة للرجل، بعد زواجه من السيدة زينب الوكيل، ومتهمًا إيَّاه بالفساد في سبيل إرضاء أصهاره.

ورغم ردود «النحاس» بموضوعية وصبر وتفصيل عجيب على الاتهامات واحدًا تلو الآخر، إلا أن الصحافة الموجهة من السلطة المناوئة للزعيم فيما بعد أعادت تكرار الاتهامات باعتبارها حقائق، بل إن بعض الصحف أعادت نشر الكتاب مرات ومرات كنوع من الدعاية السوداء ضد حزب الوفد الذي كان حائزًا للشعبية عند قيام حركة يوليو سنة 1952.

لكن عودتنا للكتاب، وقراءته برفق وتحليله بروية والرجوع

للكتاب الأبيض الذي قدمه النحاس للرد على كل الاتهامات يعلو بالرجل الجميل إلى آفاق قصوى، ويفتح لنا نافذة للاستمتاع بعصر من الأدب والرقي والجمال الإنساني الأخاذ سواء في تجييش الخصم لاتهاماته وعرضها ببلاغة، أو في رحابة صدر المُتهم، والذي هو في الوقت ذاته رأس السلطة الحقيقية، سواء كان الوفد في الحكم أو خارج الحكم، وذلك لاستناده على شعبية الزعامة.

ولا شك أن الوقوف عند حكاية مكرم عبيد ومصطفى النحاس وما تتضمنه من دراما وما تبثه من سمات شغف لزمن أكثر تعددية وحرية يُحول عنوان الكتاب الأسود إلى أبيض نظرًا لمدلولات الواقعة في حد ذاتها.

لقد كان واضحًا من البداية أن مكرم عبيد بكتابه تجاوز الأعراف القائمة والمعمول بها في السياسة المصرية في ذلك الوقت، من قصر الخلافات السياسية بين الساسة على أدائهم السياسي، وأعمالهم، وتصرفاتهم هم، دون الالتفات أو التطرق إلى ذكر الزوجات أو الشقيقات أو النساء عمومًا، ودون محاولة إقحامهن في الأحداث، خاصة أنهن ـ في ذلك الوقت ـ غير ممارسات للسياسة.

لقد انصب هجوم مكرم عبيد على سيدة من خارج المشهد السياسي، وهي زينب الوكيل زوجة النحاس باشا، اعتقادًا

منه، وممَّن احتشدوا معه للنيل من زعيم الشعب، أنها تمثل نقطة ضعف الرجل الذي تجاوز عمره وقتها الستين عامًا. وهكذا خاض مكرم عبيد واحدة من أسوأ حروب تصفية الحسابات في التاريخ المصري الحديث، لكن النتائج لم تكن قطعًا في صالحه.

***

-2-

تدفعنا قصة الكتاب الأسود الذي أطلقه مكرم ضد زعيم الأمة للعودة سريعًا إلى تصورات متعجلة، للأسف تورط في قبولها كثير من المحبين والمساندين لمصطفى النحاس من الوفديين، ترى أن زواجه بالسيدة زينب الوكيل كان خصمًا من شعبيته؛ لأنه منح خصومه الفرصة لطعنه بسبب وجودها في حياته.

والثابت تاريخيًّا طبقًا لجريدة «الجهاد» أن مصطفى النحاس تزوج رسميًّا السيدة زينب الوكيل في 12 يونيو سنة 1943 (132)، بعد أن تجاوز عمره الخامسة والخمسين، وأنها كانت الزوجة الأولى، والوحيدة للرجل، الذي شغلته القضايا الوطنية والسياسية عن استكمال مسار حياته الطبيعي.

ومع اتساع حجم الإنجازات التي تحققت خلال السنوات القليلة التي تولى فيها «النحاس» رئاسة الحكومة والتي لا تزيد مجتمعة على ست سنوات، في خمس مرات، فإننا سنلاحظ ببساطة أن معظم تلك الإنجازات تحققت عقب تاريخ زواجه.

إن معظم مَن تناولوا بالتجريح والاتهام شخص مصطفى النحاس، من ساسة ومؤرخين وكُتّاب صحافة متملقة للسلطة، حاولوا الإيحاء بتغير مبادئ وأخلاق زعيم الوفد بسبب زواجه (وكأنه مطلوب من زعماء الأمة ألا يمارسوا حياة طبيعية) واستكانته إلى الدعة ومهادنة الملك والإنجليز في سبيل استمراره في الوزارة والتمتع بالنفوذ والسطوة، لكنهم يغفلون عن حقيقة ما أنجزه الرجل خلال استوزاره في السنوات التالية على زواجه.

لقد تولى مصطفى النحاس رئاسة الحكومة خمس مرات كانت الأولى في 16 مارس 1928 واستمرت لمدة 99 يومًا أُقيل بعدها، ثم كانت المرة الثانية في أول يناير 1930 واستمرت 199 يومًا قدم بعدها استقالته، ثم كانت الثالثة في 9 مايو 1936 واستمر لأكثر من عام ونصف العام وتحديدًا لمدة 586 يومًا. وكانت المرة الرابعة بعد ذلك في 4 فبراير عام 1942 بعد حصار الدبابات البريطانية لقصر

عابدين وإجبار الملك على تولية حكومة يرضى عنها الشعب(131)، وظل في الحكم لأكثر من عامين وثمانية أشهر وتحديدًا لمدة 970 يومًا، ثم كانت المرة الأخيرة في 12 يناير 1950 وظل النحاس حتى أُقيل في 27 يناير عام 1952 أي بعد 745 يومًا.

وهنا، فإن أبرز إنجازات مصطفى النحاس في سبيل القضية الوطنية كان توقيعه لاتفاقية الصداقة مع بريطانيا عام 1936 والتي لولاها ما دخل معظم الضباط الأحرار فيما بعد إلى الكلية الحربية، حيث اعترفت تلك الاتفاقية لمصر بالاستقلال وسمحت لأبناء الطبقات المتوسطة والدنيا بدخول الكلية الحربية، كما ألغت تمامًا الامتيازات الأجنبية. ويعني ذلك أنه لولا تلك الاتفاقية التي ألغاها النحاس باشا عام 1951 في إطار دعمه ومساندته لحركة الفدائيين في القناة ضد قوات الاحتلال البريطاني، ما كان لثورة 23 يوليو أن تحدث. والمدهش أن الذين يتقوَّلون على السيدة زينب الوكيل ويُحمِّلونها تراجع أداء حزب الوفد يتجاهلون أن اتفاقية الصداقة وقِّعت بعد زواجه بنحو عامين.

كما أن كافة المؤسسات الكبرى في مصر أُنشئت في ظل حكومات ترأسها النحاس باشا عقب زواجه، وتشمل هذه المؤسسات: البنك المركزي المصري، الجهاز المركزي

للمحاسبات، الاتحاد العام لنقابات عمال مصر، مصلحة التجارة والصناعة، هيئة البحث العلمي، هيئة الطاقة الذرية، الجهاز المركزي للتنظيم والإدارة، المجلس الأعلى للنقل البحري. فضلًا عن إصدار قوانين العمال، والتعداد، ومجانية التعليم الابتدائي والثانوي والفني والتجاري، واستقلال القضاء، ومنع غير المصريين من تملك الأراضي الزراعية، وتنظيم الغرف التجارية، وحماية الآثار، وتعويضات العاملين(130).

فضلًا عن ذلك يمكن القول إن مواقف الرجل من الديكتاتورية والطغيان لم تتغير بسبب زواجه بزينب الوكيل وهو ما يعبر عنه إبراهيم فرج بقوله: «إذا كانت ثورية مصطفى النحاس قد تأثرت بزواجه، فلماذا أقالوه في ديسمبر 1927، ثم أقالوه في أكتوبر سنة 1944، ثم أقالوه في يناير 1952. لو كان النحاس باشا قد تأثر سلبيًا بزواجه لظل في الحكم»(129).

لكن على أي حال، فإن اتهامًا واضحًا وصريحًا وجِّه إلى السيدة الفاضلة بأنها وراء خلاف مصطفى النحاس ومكرم عبيد الأشهر، والذي دفع الأخير إلى فعلته الغادرة. وليس أدل على ذلك من أن الكتابات السابقة لانشقاق مكرم عبيد، تصفه بأنه النصف الآخر للنحاس، أو المعادل الطبيعي للرجل

المتدين الطيب. فهو يُكمله بلباقته ومكره وقدرته على الهجوم والانتقاد، فضلًا عن أن كونه قبطيًا يجعله مُعبرًا عن سماحة الرجل وإيمانه بالوحدة الوطنية.

إن تعبير مصطفى أمين عن العلاقة بين مكرم والنحاس يكشف إلى أي مدى كانت العلاقة بينهما. إنه يقول عن ذلك: «كان النحاس ومكرم أشبه بالتوأمين الملتصقين، لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، إلا بعملية جراحية تقتل التوأمين معًا، وكان بيت مكرم في منشية البكري في طريق النحاس إلى القاهرة، فكان النحاس في كل صباح يمر بسيارته على بيت مكرم ويأخذه معه، ويوصله إلى مكتبه بشارع قصر النيل، ثم يذهب إلى بيت الأمة وبعد انتهائه من مقابلة زواره والوفود يركب سيارته ويمر على مكتب مكرم، فيصحبه معه في طريقه إلى بيته في مصر الجديدة، ويوصل مكرم إلى بيته في منشية البكري، ويتكرر هذا الشيء نفسه في المساء، ومكرم لا يفترق عن النحاس في أي يوم من أيام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة عندما يذهب النحاس إلى الجامع ليؤدي فريضة الجمعة»(128).

ثم يقول مصطفى أمين: «وكانت ثقته بمكرم لا حد لها، لا يبت في أمر إلا بعد استشارته، ولا يذيع نداءً إلا بعد أن يراجعه ويحذف منه ما يشاء ويضيف إليه ما يريد، وإذا

غضب مكرم على وفدي غضب عليه النحاس دون أن يسأله لماذا غضب، وإذا رضي مكرم على موظف وافق النحاس على ترقيته ثقة منه بأن مكرم لا يُخطئ في الحكم على الرجال. وكان الفرق بين مكرم والنحاس أن مكرم رجل إذا أحب أفنى نفسه حبًا، وإذا كره أفنى نفسه حربًا. لكن النحاس أطيب قلبًا يغضب بسرعة ويرضى بسرعة، يثور كالعاصفة ثم يهدأ كالنسيم»(127).

بالطبع، فثمة مبالغات في رسم مصطفى أمين لعلاقة الرجلين معًا، لكنها على أي حال مبالغات مقبولة في إطار الأسلوب الصحفي الذي يعتمده الرجل، وربما هي قريبة من الحقيقة ما دامت تُعبر عن درجة الترابط والاتفاق بينهما. لقد تصاحبا بالفعل معًا في سنوات الثورة بعد أن أُحيل مصطفى النحاس إلى المعاش بقرار من مجلس الوزراء في يوليو سنة 1919 ونُفيا معًا إلى عدن عام 1921، وهناك أُصيب مكرم بمرض الكوليرا، وكاد أن يموت، وجلس النحاس يُطببه بنفسه ويسهر عليه غير عابئ بعدوى محتملة حتى امتثل تمامًا للشفاء(126).

وحتى عندما تزوج النحاس للمرة الوحيدة في حياته كان ذلك بوساطة مكرم عبيد، والسيدة قرينته، وهو ما جعل زوجة النحاس تتصادق فيما بعد مع السيدة عايدة زوجة

مكرم، وتصبح السيدتان أقرب إلى التوأم الروحي في حياتهما وأفكارهما وملابسهما. لقد صارت علاقتهما متوازية مع علاقة مكرم والنحاس ومثلت انعكاسًا حقيقيًّا لقوة تلك العلاقة. ولا شك أن ذلك تحديدًا يضع أيدينا على خيط براءة زينب من فصل صداقة الرجلين الوطيدة. إن إبراهيم فرج ينقل لنا لمحة من ذلك في أعقاب انشقاق مكرم وقيام الوفد بفصله عندما تقول زينب الوكيل في حضوره: «كيف سألقى عايدة بعد الآن؟ ستتصور أن لي يدًا في ذلك»(125).

إن أبرز تحليل يؤكد براءة زينب من التدبير والتخطيط للدس بين مكرم والنحاس أن زواجها من النحاس تم عام 1934 وأن انشقاق مكرم جرى بعد ذلك بثماني سنوات. ويعني ذلك أنها لو كانت تقصد إبعاد مكرم لتم ذلك خلال السنوات الأولى للزواج. لقد مرت علاقة الرجلين خلال حكومة الوفد التالية للزواج والتي تولت عام 1936 بسلام ولم يُعكر صفو العلاقة أي طارئ، وكان واضحًا أن زينب الوكيل بعيدة كل البعد عن الدس بين الرجلين.

لكن ذلك على أي حال لا يعني عدم وجود بعض الحساسيات في العلاقة مع مكرم، خاصة أن التصاق مكرم بالنحاس كان مبالغًا فيه ومتجاوزًا للحدود المفترضة اجتماعيًّا. ويقدم لنا إبراهيم طلعت قصة واقعية ربما جرت

في السنوات الأولى للزواج خلال الثلاثينيات من القرن العشرين للدلالة على ذلك، فيحكي أن حرم النحاس باشا وبعض الأقارب الذين كانوا لصيقين بهما بدأوا لا يخفون تبرمهم من إصرار مكرم عبيد على ملازمة النحاس حتى وهو في حمام منزله للاغتسال، وانتظاره خارج الحمام. وقد حدث ذات يوم أن فوجئت السيدة زينب الوكيل بمكرم واقفًا في الممر الذي به الحمام، وكانت خارجة منه وهي ترتدي قميص نومها، وكان زوجها لم يستيقظ بعد، فأسرعت إلى غرفة نومها، وبعد أن ارتدت ملابسها صارحت مكرم في أنه يسبب حرجًا لها بتصرفاته ورجته في أدب أن يستأذن قبل صعوده إلى الدور الأعلى من المنزل. صحيح أن مكرم تمتم قائلًا إنه يعتبرها أخته أو ابنته، ولكنها كررت قولها في أدب حازم. ويومها غضب مكرم عبيد ونزل إلى الدور الأرضي، وغادر المنزل غاضبًا»(124).

وهذه الحكاية التي قد تكون أغضبت مكرم لا تثير أي سوء نية لدى السيدة زينب حرم النحاس باشا، وإنما تنبع من إرادة طبيعية لزوجة ترى أن من حقها أن تحافظ على خصوصياتها والتي من بينها خصوصية تحركها داخل منزلها بثياب لا ترغب أن يراها بها غير أهل المنزل أنفسهم.

وثمة رواية أخرى تشير لأزمة ما بين مكرم وعبدالواحد

الوكيل ـ والد زينب ـ جرت عام 1941 عندما أجرى النحاس باشا عملية جراحية، وفيها كان عبدالواحد الوكيل في زيارة للنحاس بعد إجرائه للعملية وعلم أن مكرم عبيد استدعى الدكتور إبراهيم عبدالسيد من الإسكندرية للاطمئنان على حالة النحاس بعد العملية، وغضب عبدالواحد الوكيل وقال: «عشان ما هو قبطي يريده أن يكشف على الباشا»، ورد عليه كامل البنا سكرتير النحاس بأن هذا الكلام لا يليق، وبعد قليل حضرت حرم النحاس واعتذرت لـ «البنا» عن سلوك والدها، الذي قد يعبر عن نزعة طائفية تخالف رؤى النحاس نفسه، وقالت له: «اعتبره كوالدك وأرجوك لا تغضب منه». وعلم مكرم بالواقعة فثار واستطاع بعد أن تماثل النحاس للشفاء أن ينقل له ما جرى وحاول النحاس التحقيق في الواقعة، فأنكر عبدالواحد الوكيل أن يكون قد قال لكامل البنا قصة قبطي ومسلم. وسأل النحاس سكرتيره عن حقيقة الأمر فطلب إعفاءه من الشهادة، ثم التقى بمكرم وحكى له، فقال له مكرم: «أنا أعلم أنهم يُبيتون لي أمرًا»(123).

وتؤكد هذه الواقعة أن عائلة الوكيل لم تكن تحب مكرم عبيد رغم أنه كان سببًا في مصاهرتهم للنحاس باشا، وأن مكرم نفسه كان مهيأ للدخول في حرب مع آل الوكيل ظنًّا منه أنهم يبيتون لأمر ما ضده. لكنها تؤكد أيضًا أن زينب

الوكيل حاولت تخفيف التوتر واعترفت بخطأ والدها واعتذرت لسكرتير النحاس عن تصرفه.

***

-3-

ثمّة شيطان خفي في انقلاب مكرم عبيد على النحاس. شيطان داهية، ماكر، شديد البأس، ولديه قدرات عظيمة تجعل لمخططاته آثارًا قوية، ألا وهو أحمد حسنين باشا، رئيس الديوان الملكي، الرجل المُحنَّك، المغامر الذكي، هاوي الرحلات والصيد، والعاشق الشهير.

هذا الرجل تحديدًا له ثأر سابق مع النحاس والوفد بسبب الاعتداء على كرامة سيده، الملك فاروق في 4 فبراير سنة 1942. لقد كان إجبار الملك فاروق من جانب سلطات الاحتلال على القيام بتكليف زعيم مصري بمنصب الحكومة بمثابة جرح لكرامته، ما جعل رئيس ديوانه، ومعلمه الأول حسنين باشا، يُعد العدة رويدًا للثأر، ولو من خلال السعي لفصل توأم السياسة المصرية: النحاس ومكرم. ولا شك أن «حسنين» كان خبيرًا بالرجال، ومستقرئًا شعورًا لدى مكرم بالاستئثار بمهمة الرجل القوي القادر على إدارة الحزب الأكبر في مصر.

يكشف كريم ثابت، السكرتير الصحفي للملك فاروق، أن فاروق كان يُكن كراهية شديدة لمصطفى النحاس باشا، لسببين الأول أن فاروق كان في لندن، وقت وفاة الملك فؤاد، وإعلان فاروق ملكًا على مصر والسودان، وكان النحاس وقتها في باريس، ولكنه لم يُكلف نفسه بمشقة الذهاب إلى لندن لتهنئة المليك الجديد، وحتى عندما جاء بعد أن نبهوه لذلك فقد حضر بعد الموعد بساعة كاملة.

والسبب الثاني أن النحاس تعامل معه بفوقية لا يتقبلها الملوك عندما قال له عقب حلفه اليمين الدستورية سنة 1937: «أرجو من جلالتك أن تعتبرني بمثابة والدك»، وهو ما تضمن ندية أشعرت الملك باستصغار رئيس الوزراء القادم من عامة الشعب له(122).

ويؤكد محمد التابعي صحة الاستنتاج الخاص بدور حسنين باشا في الوقيعة بين النحاس ومكرم، ويقول إن الرجل أقسم أن ينتقم من مصطفى النحاس ومن السير مايلز لامبسون السفير البريطاني في القاهرة(121).

لقد كانت إحدى سمات القوة في «الوفد» اتحاد عنصري الأمة في قيادته بحيث يكون الرئيس مسلمًا، والسكرتير العام قبطيًا، وهو ما يعبر بشكل مثالي عن الوحدة الوطنية. وبتعبير المؤرخ الفذ الدكتور حسين مؤنس فإن «مصطفى

النحاس كان يحب مكرم، وعندما اختلف معه وانفصل أحدهما عن الآخر تحطم الاثنان معًا. وقد تولى المؤامرة باشا من عتاولة باشوات السراي وهو أحمد حسنين»(120).

وهنا فقد كانت زينب الوكيل بالطبع بعيدة كل البعد عن تلك المؤامرة المرسومة بعناية شديدة، والتي يرصدها «التابعي» بتفصيل واسع في كتابه عن أحمد حسنين باشا. والمثير في الأمر أن النحاس باشا نفسه كان يعلم بذلك، وقد أشار في مذكراته عن عام 1942 إلى وساوسه في استغلال مكرم من قبل السراي فقال: «ووسوس لي الشيطان أن مكرم ربما يكون يعلم أشياء كتمها عليَّ ولكني طردت هذا الوسواس لأني لا أشك فيه بعد عِشرة قرابة ربع قرن من الزمان، جهاد ونفي واضطهاد وتشريد وكفاح»(119).

***

- 4 -

من مستصغر الشرر تولد الحرائق العظيمة..

لم يبدأ انقلاب مكرم عنيفًا وحادًّا، وإنما جاء متدرجًا، ولاح غضبه متصاعدًا، ما يؤكد أن أحدًا ما - في الغالب هو أحمد حسنين باشا - نفخ فيه.

جاءت البداية بخبر صغير في الصحف، لم يلبث أن اتسع

ليتحول إلى نشرات موزعة حول زيارة مكرم عبيد إلى الملك، وثنائه المبالغ فيه عليه.

هل كان ذلك مُغضبًا للنحاس؟ ربما. لكن النافورة انفجرت عقب تعيين أحمد حمزة في وزارة التموين، وكان مكرم قائمًا بأعمالها إلى جوار عمله وزيرًا للمالية. أغضبت الواقعة المفاجئة مكرم، الذي لم يُستشر فيها، مثلما أغضبت زيارته للملك دون تشاور أو تنسيق داخل الحزب الوفديين. ولم تلبث أن انتشرت الشائعات والحكايات بين موظفي وزارة التموين وجلساء مكرم حول فساد عائلة الوكيل ورغبتهم في السيطرة على الثروة في مصر وطلبهم لعدة استثناءات، وهو ما اعتبره النحاس طعنًا مباشرًا في نزاهته.

لقد جاء انتقام مكرم من آل الوكيل الذي اصطدم مع كبيرهم عبد الواحد الوكيل مركزًا في شخص أحب وأقرب الناس إلى قلب النحاس وهي زينب الوكيل. أطلق الرجل المؤتمن على بيت وعائلة رئيس الوفد سهام الحقد والثأر تجاه حرم النحاس، وحكى لكل مَن عرف وقابل أنها تُكن له كراهية شديدة وأنها تسيطر على زوجها سيطرة كاملة وأنها تتدخل في السياسة(118).

وطالت الأزمة وطلب النحاس عن طريق عثمان محرم أقدم الوزراء سنًّا من مكرم الاستقالة من وزارة المالية،

ورفض مكرم، ثم طلب النحاس إقالته، لكن الملك فاروق رفض، فاضطر النحاس إلى تقديم استقالة الوزارة كلها، ثم أعاد تشكيلها مرة أخرى دون مكرم الذي اعتبر ذلك سقوطًا لكل جسور المودة والعِشرة بينهما. ويُعلِّق النحاس حزينًا على ذلك بقوله: «وأنا آسف جد الأسف على أن ظني خاب في صديق العمر وتقديري أخطأ في رفيق النفي والسجن والجهاد، ولكن هدَّأ من عاصفة قلبي وثورة نفسي أني ما بدأته بل طاولته، ولا هاجمته بل هادنته، ولم أضق به مع تكرار اعتدائه، بل احتملته حتى بلغ السيل الزبى»(117).

وممَّا لا شك فيه أن أحمد حسنين رئيس الديوان استمر في توسيع الهوة وإضعاف الوفد بهذا الانشقاق، فسعى إلى أن يُعظِّم الإحساس بأن آل الوكيل سيطروا بالفعل على الوفد، فذهب في ظل الصراع الدائر بين مكرم والنحاس إلى دار النحاس الذي كان يصلي، وبعد فراغه أخبرته حرمه أن أحمد حسنين باشا ينتظره في الصالون، وفوجئ به يخبره بأن الملك فاروق أنعم على والد حرمه عبدالواحد الوكيل برتبة الباشاوية. لا شك أن النحاس ـ مع حبه الجم لزوجته ـ لم يعجبه التوجه وشعر بالريبة في ذلك التصرف حتى إنه قال عنه في مذكراته: «قلت له: إني لم أطلب رتبة لصهري، وقال: إن جلالة الملك أراد أن تكون مفاجأة سارة لرفعتك،

وقلت له: مع شكري لجلالة الملك كنت أحب أن أُستأذن بصفتي رئيسًا للوزارة وبصفتي صهرًا للمُنعَم عليه، قال: خشينا مخاطبتك لكيلا تعارض. فقلت: طبعًا أعارض لأنه لا توجد مناسبة تقتضي هذا الإنعام ولا داعي له»(116).

والواضح أن الرجل كان حريصًا كل الحرص على ألا تناله سهام واتهامات مكرم باستغلال أسرة زوجته لمنصبه للحصول على مكاسب مادية ومعنوية، وربما أراد الداهية السياسي حسنين باشا أن يؤكد اتهامات مكرم ويستغلها في إضعاف الوفد بإقناعه للملك فاروق بالإنعام على صهر خصمه الأكبر.

قد تكون زينب في ذلك الوقت لا ترى بأسًا في الإنعام على والدها بالباشوية، لكنها بالطبع لم تكن ترضى بأي ضرر للوفد من خلال شخص والدها. لقد كانت تؤمن بزعامة زوجها بشكل غير مسبوق لدرجة أنها دخلت بالفعل في خصام كبير مع مكرم نتيجة ذلك، لكنها - كما يحكي التابعي - لم تخبر والدها وأسرتها بذلك الخصام حتى إن بعض الوفديين حاولوا توسيط والدها في رأب الصدع المزمع نتيجة خروج مكرم، لكن يبدو أن الوقت كان قد فات، فمكرم الذي سبق وأطلق مقولته الشهيرة: «هكذا خلقت.. إذا أحببت وهبت وإذا ضربت قتلت»، كان قد بدأ يعد العدة للانتقام من

النحاس والوفد وآل الوكيل، وهكذا أصدر «الكتاب الأسود في العهد الأسود».

***

- 5 -

بعد استعراض الأجواء السابقة التي أدت إلى ظهور الكتاب الأسود، وهو الكتاب الوحيد في تاريخ السياسة المصرية الحديثة الذي تعرض بالاتهامات التفصيلية لرئيس حكومة لدرجة أنه لم يترك شاردة أو واردة قام بها النحاس وحكومته في ذلك الوقت إلا ووصمها بالفساد، يُصبح من المهم قراءة الكتاب والرد عليه بتريث وعمق.

إن أول ملاحظة في هذا الشأن، وهي ملاحظة غير موضوعية وإنما شكلية تتعلق بتقديم الكتاب إلى الملك فاروق الأول باعتباره صاحب الجلالة، وكان المنطقي في ظل اتهام لحكومة أو سياسي بالفساد أن يُقدم إلى البرلمان باعتباره ممثلًا للشعب.

ثاني الملاحظات هي أن الكتاب عبارة عن مذكرة تضم 265 صفحة، وتضمن النص 103 أخطاء مطبعية، تم تبيانها في آخر الوثيقة، والتي أُعيد طباعتها بعد ثورة يوليو في إطار حملات التشويه المنظمة ضد الوفد ورجاله.

كذلك، فإن الاتهامات الواردة بالوثيقة لا تقتصر على شخص النحاس وعائلته أو حرمه وأشقائها وحدهم كما قد يتبادر للذهن، وإنما تشمل معظم الوفديين بمَن فيهم عثمان محرم، وفؤاد سراج الدين، وإبراهيم فرج، وأمين عثمان، ونجيب الهلالي، ومحمود سليمان غنام، وغيرهم.

ويهمنا في الكتاب الأسود ما ورد بحق زينب الوكيل وعائلتها من اتهامات، ثم رد النحاس باشا على ذلك، وتحليل بسيط لتلك الوقائع التي اعتبرت في زمانها جرائم مزرية، ثم استغلت من قبل الحكومات التالية في تشوية النحاس وحرمه، ونعتهما بكل نقيصة، والتشهير بهما أيما تشهير خلال العهد الناصري.

لقد ذكر مكرم عبيد أن «السيدة زينب الوكيل قامت بشراء 80 فدانًا و7 قراريط و14 سهمًا من فؤاد سراج الدين باشا بعقد بتاريخ 18 مارس 1942، وسُجل في 23 يوليو 1942. وتقع هذه الأرض بمركز شربين، مقابل 4283 جنيهًا بسعر 53 جنيهًا للفدان، وتم دفع 1427 جنيهًا وتبقت 2855 جنيهًا تعهدت المشترية بسدادها إلى خزينة مصلحة الأملاك الأميرية رأسًا على جملة أقساط سنوية ينتهي آخر قسط منها سنة 1955. كما قامت السيدة بشراء 74 فدانًا و18 قيراطًا و22 سهمًا من الخواجة إميل نسيم بتاريخ 8

أكتوبر 1942 وسُجل بتاريخ 24 أكتوبر بقيمة 8974 جنيهًا. وتلك الأرض موجودة بزمام ناحية البركة مركز شبين القناطر ونص العقد على أن الثمن 120 جنيهًا للفدان الواحد»(115).

ويُعلق مكرم باشا قائلًا: «وهذه الصفقة رابحة بلا شك؛ لأن النحاس اشترى الفدان بقيمة 120 جنيهًا في المرج الغربية في وقت كان يُباع فيه الفدان بـ 200 جنيه في الصعيد»(114).

ويحاول مكرم أن يدلل على فقر زينب الوكيل وعدم إمكانية شرائها للأراضي المذكورة بإيراده لخطاب مقدم من عبدالحميد بك الوكيل نيابة عن ورثة المرحوم عبدالواحد الوكيل الذي توفي عام 1942 يلتمس فيه تعديل القسط الذي يُدفع عن ديونهم للبنك العقاري الزراعي باعتبار أن القسط الحالي لا يتناسب مع الغلة. ويتضمن الخطاب تراكم الأقساط وصعوبة دفعها من جانب الورثة، وهم فريدة شعير زوجة عبدالواحد الوكيل، وعبدالحميد عبدالواحد الوكيل، وأحمد عبدالواحد الوكيل، وزينب عبدالواحد الوكيل، وحافظ عبدالواحد الوكيل، وعزيزة عبدالواحد الوكيل، وحسين عبدالواحد الوكيل، وعبدالفتاح عبدالواحد الوكيل، وعبدالقادر عبدالواحد الوكيل، وسعاد عبدالواحد

الوكيل(113).

ويخصص مكرم عبيد صفحات مطوَّلة من عريضته لذكر الواقعة الأشهر التي تخص زينب الوكيل وهي واقعة الفراء. ويبدو أنه يعرف أن سلوكه مناقض لما هو مقبول أخلاقيًّا في خصومات السياسة، فنجده يقول: «لقد عنيت يا مولاي في هذه العريضة عناية خاصة ألا أعرض شئون النحاس الخاصة، فهي بعيدة عن نطاق النقد العام، ويجب أن تكون محل الرعاية والاحترام، ولكن النحاس باشا المسكين لم يعُد في حالة تسمح له بأن يفرق بين الخاص والعام، فالحكم قد أصبح محل استغلال خاص له ولأهله. ولقد وصل إلى علمي من أوثق المصادر وإني أتحدى الحكومة أن تكذبني إذا اجترأت، أن برقية أُرسلت أخيرًا بالشفرة من وزارة الخارجية المصرية إلى سعادة سفيرنا في لندن لشراء 6 قطع من الفراء (فرو الثعلب الأبيض) قيمة كل منها 500 جنيه ومجموع ثمنها ثلاثة آلاف جنيه لصاحبة العصمة حرم رفعة رئيس الوزراء. أي عبثٍ يا مولاي بعد هذا بكرامة الدولة وأعمال الدولة ووظائف الدولة، ثمَّ من أين لك هذا يا سيدي النحاس باشا وقد كنت الرجل الفقير إلى وجه الله تعالى، وإذا أنفقت ثلاثة آلاف جنيه على مواد الترف والزينة، فأنت الآن رجل ثري وثري جدًّا، فهل لي أن أسألك كيف تنفق مبلغًا كهذا على

شيء كمالي ومثله لشراء سيارة كوتسيكا وآلاف أخرى من الجنيهات على شراء النفائس والأثاثات؟»(112)

ويمضي صديق الأمس في غِلّه ليصل إلى انتقاد فؤاد سراج الدين، وزير الزراعة وقتها، زاعمًا قيامه بإصدار أوامره بجمع الزهور من المتحف الزراعي ووضعها على قبر عبدالواحد الوكيل ـ والد زينب ـ بعد وفاته وتخصيصه إحدى السيارات المملوكة للوزارة لنقل الزهور.

***

ـ 6 ـ

الجميل في الواقعة، أن مصطفى النحاس لم يُعلن غضبه على الافتراءات ويسكت، لم يسب ويلعن المدعي عليه، ويكتفي بالقول إنه متورط في مؤامرة ضده، مثلما فعل كثير من الساسة عند اتهامهم من قبل خصومهم. لم يفعل كل ذلك، وإنما أجاب عن وقائع الكتاب الأسود واقعة وراء أخرى، حتى وصل الأمر إلى إعداد كتاب كامل حمل اسم الكتاب الأبيض لدحض كل اتهام، وصل عدد صفحاته إلى 610 صفحات، وصدر عن الحكومة في عام 1943، ووصلت الشفافية إلى إتاحته للعامة دون أي تحرج أو تخوف من أنه يحمل اتهامات وجّهها أحد المنشقين إلى زعيم الأمة،

وزوجته وأقاربها.

وطُبع الكتاب في مطبعة بولاق، وحمل عنوانًا مأخوذًا من القرآن الكريم هو: «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ»، وأسفلها عبارة: «رد حكومة الوفد برئاسة مصطفى النحاس باشا حول كل واقعة من الوقائع التي تضمنها كتاب مكرم الأسود».

ولم تترك الردود واقعة دون إعادة ذكر، وتفصيل، ثم تفكيك تفصيلي وتبيان للحقيقة، ثم استشهادات مباشرة للتدليل على صحة الرد. ومن الأمثلة على ذلك قصة شراء زينب الوكيل للأرض الزراعية بثمن بخس، وقد جاء الرد كشهادة لفؤاد سراج الدين وزير الزراعة ليدحض اتهام استغلال النفوذ تمامًا حيث يشير تفصيليًّا إلى أن زينب الوكيل اشترت صفقتي أطيان إحداهما من سراج الدين نفسه، والأخرى من عدس، وكان ذلك قبل الوزارة بعد ارتفاع ثمن الحلي والمجوهرات نظرًا لظروف الحرب. وقامت حرم النحاس ببيع الكثير من مجوهراتها لشراء الأطيان بعلم مكرم وحرمه، وقد عرض النائب المحترم أحمد أبو الفتوح أراضي بسعر 20 جنيهًا للفدان، وكانت في كفر سعد بعيدًا عن العمران، وعدل النحاس عن الشراء فباعها أبو الفتوح لعبدالعزيز البدراوي بذلك السعر. وفي مزاد علني بتاريخ 29

يناير 1942 اشترى فؤاد سراج الدين القطعتين الثانية والثالثة المعروضتين للبيع لحساب السيدة حرم رفعة النحاس باشا، ولم يكن يدور بخلد أحد أن النحاس باشا أو أي من أقاربه سيتولى الحكم في 6 فبراير 1942.

ويواصل سراج الدين موضحًا أن إيجار أراضي آل عدس 12 جنيهًا في السنة للفدان، وهو ما يعني أن سعر الـ 120 جنيهًا للفدان ليس ثمنًا بخسًا خاصة أنها كانت مؤجرة وهي أرض قاحلة لا تقارن بأرض الشوربجي.

ويشير إلى أن النحاس باشا وحرمه دفعا ثمن الأرض الأولى من بيع مجوهراتها، وثمن الأرض الثانية من بيع منزله بسمنود بعشرة آلاف جنيه(111).

كما يتناول فؤاد سراج الدين أيضًا، باعتباره وزيرًا للزراعة في ذلك الوقت، واقعة إرساله الورد إلى قبر عبدالواحد الوكيل والد زينب عقب وفاته بكثير من الأسى قائلًا: «المؤلم أن يزج مكرم باشا باسم المغفور له عبدالواحد الوكيل باشا، ويقول إن الزهور التي أرسلت إلى منزلي إنما أرسلت لتوضع على قبر عبدالواحد الوكيل وكأنه لم يكفه الأحياء ينهش في أعراضهم فذهب إلى القبور ليشفي في ساكنيها غِله وحقده الدفين. لقد توفي الوكيل باشا في 9 أغسطس 1942 وتاريخ هذا الأمر المزعوم في 3 سبتمبر 1942 أي بعد نحو

شهر تقريبًا على الوفاة، وقد استخدم مستندًا مزورًا ليدلل على الواقعة، ولو كان الأمر صحيحًا لاستطاع مكرم أن يحصل على صورة صحيحة له»(110).

أما بالنسبة لواقعة الفراء، فيورد الكتاب الأبيض ردًّا تفصيليًّا جاء على لسان مصطفى باشا النحاس نفسه يمكن تلخيصه فيما يلي:

ـ كنا مع نشأت باشا سفير مصر في لندن سنة 1936 وكان معنا ونحن نشتري فراءً لنا ولحرم مكرم باشا، ولما حضر سألناه إن كان يوجد في لندن فرو بسعر مناسب.

ـ في أول أكتوبر وصلتنا برقية من نشأت باشا يقول فيها إنه عرضت عليه فراء ثعالب بيضاء من نوعين، نوع ثمن القطعة أربعة عشر جنيهًا وأربعين قرشًا، والآخر ثمن القطعة منه ستة عشر جنيهًا وأربعين قرشًا.

ـ أبرقنا لنشأت باشا نشكره على سؤاله عن صحتنا وطلبنا منه شراء ست قطع فراء لا تصل مجموع قيمتها مائة جنيه.

ـ كل ذلك مثبت ببرقيات تفصيلية أودعها لدى المجلس ليطلع عليها حضرات النواب المحترمين(109).

ولم يكتفِ النحاس باشا بذلك، بل أخرج من حقيبته قطع الفراء الخاصة بزوجته وعرضها على نواب البرلمان سائلًا

إياهم إن كانوا يرون أن سعر تلك الفراء يبلغ بالفعل ثلاثة آلاف جنيه كما يدعي مكرم، فرد فكري أباظة زعيم المعارضة أنها نفس الفراء التي تلبسها زوجاتهم، وأن سعرها في السوق على أكثر تقدير يساوي خمسين جنيهًا، وطلب فكري أباظة تقديم اللوم إلى النائب مكرم عبيد(108).

ولا عجب أن يكون الاتهام إلى هذا الحد، ويأتي الرد وافيًا وتفصيليًّا من رجل يعرف أنه مهما علا واتسعت سلطاته، مجرد موظف وأجير لدى الشعب، وأن من حق الشعب أن يسائله حتى لو كان يسأله عن أمور تبدو خارج نطاق العمل، مكررًا السؤال المنطقي الذي لم يُسأل لمسئول بعده: «من أين لك هذا؟»

***

-7-

لقد قام كثير من المؤرخين الذين كانوا في ذلك الوقت من خصوم النحاس باشا بتفنيد ما جاء من اتهامات في الكتاب الأسود، حتى إن أحد هؤلاء، وهو الدكتور محمد حسين هيكل، خصم الوفد اللدود، وصف ما احتواه الكتاب بالتوافه، وإن كان قد اعترض على فصل مكرم عبيد من البرلمان ردًّا على ذلك الكتاب(107).

كما أننا نجد مؤرخًا محايدًا مثل الدكتور عبدالعظيم رمضان يناقش ويحلل ما جاء في الكتاب الأسود بشكل تفصيلي معتمدًا على ما قاله مكرم في الكتاب الأسود، ومذكرات التابعي، ومذكرات الدكتور محمد حسين هيكل، وبيانات الحكومة للرد على مكرم، وينتهي إلى أن الكتاب لم يكن يستند إلى فساد حقيقي، وإنما تصيُّد وتحوير للوقائع للنيل من شعبية النحاس والوفد(106).

ولا شك أن أبرز رد على ما جاء في الكتاب الأسود أن أحد كتابه، وهو الكاتب الكبير جلال الدين الحمامصي نفسه قال في حوار له مع جريدة الوفد أجراه الزميل محمد عبدالقدوس: «أخشى أن أقول إنني استُخدمت في هدم الساسة القدامى، وإذا قارنا ما كان من فساد بالكتاب الأسود الذي شاركت في وضعه بما عرفناه فيما بعد في عصور ما بعد يوليو لعلمنا أن الفساد التالي كان مضاعفًا بمراحل»(105).

وهكذا لم يكن غريبًا أن يكتب الدكتور محمد الباز بعد تلك الوقائع بأكثر من ستة عقود من الزمان: «لو كانت اتهامات مكرم للنحاس باشا فسادًا، فما هي المفردات التي يمكن بها وصف ما جرى في العهود التالية من وقائع!»(104)

***

- 8 -

وخرج مكرم عبيد من الوفد، ليؤسّس حزبًا جديدًا أطلق عليه اسم «الكتلة الوفدية»، ويمد خيوط علاقة مودة غريبة مع جماعة الإخوان المسلمين، وكانت أبرز معالمها أن مكرم كان أحد رجال قلائل ساروا في جنازة حسن البنا مرشد الجماعة بعد اغتياله في فبراير سنة 1949.

وبدا أن الرجل حاول مرارًا تصحيح مساره، والعودة للوفد، واستعادة صداقة العمر مع مصطفى النحاس والاعتذار له عمّا فعل، لكن يبدو أن هناك أمورًا عديدة لا يمكن جبرها.

وفي عزاء صبري باشا أبوعلم سكرتير عام الوفد سنة 1947 التقى مكرم مع النحاس، وصافحه معزيًا، وحاول أن يُقبله، لكن النحاس حافظ على وقفته وصافحه في برود، ما دفع الدكتور سعيد عبده أن يكتب قصيدة شهيرة يتحدث فيها عن رغبة مكرم في تقبيل الزعيم الوفدي قال فيها:

ح ابوسه بكره وبعد بكره

وبعد بعده أبوسه بكره

يا كتلة هيصي

ح ابوس عريسي

صفصف رئيسي

ح ابوسه بكره

أقول له أهلًا

يقول لي مهلًا

ولما ابوسه أقوله بكره

يا قلبي جالك

سواد كتابك

واللي جرالك

عمره ما يجرى

---

(132) جريدة «الجهاد» عدد 10 يونيو، و11 يونيو 1934 وأخبار عن الزواج السعيد. (وكانت الجهاد لصاحبها توفيق دياب لسان حال حزب الوفد).

(131) حادث 4 فبراير سنة 1942 وفيه حاصرت الدبابات البريطانية قصر عابدين وهددت بخلع الملك فاروق نظرًا لعبثه في ظل تقدم قوات المحور داخل حدود مصر الغربية،

وأصرت على تولية الوفد باعتباره حزب الشعب، لدعم الاستقرار بالشارع، ورفض مصطفى النحاس تولي الحكومة، لكن الملك فاروق أصر حفاظًا على عرشه، فقبل النحاس إنقاذًا للعرش وسجل ذلك بذكاء شديد في خطاب الحكومة للملك بمناسبة توليها عندما قال فيه: «وبعد أن ألحجت عليَّ المرة تلو المرة، والكَرَّة بعد الكرة، أن أتولى الحكم، وناشدتني وطنيتي، واستحلفتني حبي لبلادي، من أجل هذا أن أقبل الحكم..». وانظر أيضًا: أحمد عز الدين ـ مذكرات النحاس كما أملاها على سكرتيره كامل البنا.. الجزء الثاني.

(130) انظر أيضًا كتابنا «زينب الوكيل سيدة مصر». الرواق للنشر 2014. ص 82.

(129) المصدر السابق ص 83.

(128) مصطفى أمين ـ من عشرة لعشرين ـ العصر الحديث للنشر 1990، ص 41.

(127) مصطفى أمين ـ المصدر السابق ص 42.

(126) عباس حافظ ـ زعيم الفقراء مصطفى النحاس ـ هلا للنشر ص 338 .

(125) حسنين كروم . إبراهيم فرج: ذكرياتي السياسية..

ص 88.

(124) إبراهيم طلعت ـ مذكرات ـ أيام الوفد الأخيرة . طبعة مكتبة الأسرة 2003، ص389.

(123) أحمد عزالدين ـ مذكرات النحاس كما أملاها على سكرتيره كامل البنا ج2، 2000، ص35 و 36 والنقل هنا شهادة لكامل البنا نفسه.

(122) كريم ثابت ـ عشر سنوات مع فاروق . الشروق. 2011 ص 14.

(121) محمد التابعي ـ من أسرار الساسة والسياسة: أحمد حسنين باشا . مكتبة الأسرة 1998 ، ص234.

(120) الدكتور حسين مؤنس ـ باشاوات وسوبر باشاوات ـ الزهراء للإعلام . ص 14.

(119) أحمد عز الدين ـ مذكرات النحاس ـ ج 2، ص 86.

(118) محمد حسين هيكل ـ مذكراتي في السياسة المصرية - ج2، دار المعارف 1977، ص224 و225.

(117) أحمد عزالدين ـ المصدر السابق ص103.

(116) أحمد عزالدين ـ المصدر السابق ص 101.

(115) مكرم عبيد ـ الكتاب الأسود في العهد الأسود ص 44 إلى 48.

(114) مكرم عبيد ـ المصدر السابق ص 49.

(113) مكرم عبيد ـ المصدر السابق ص 87.

(112) الكتاب الأبيض ـ الرد على عريضة مكرم عبيد ـ ص476 إلى 494.

(111) الكتاب الأبيض من ص155 إلى 160 (بتصرف).

(110) الكتاب الأبيض من ص51 إلى 56 (بتصرف).

(109) المصدر السابق - من 155 إلى 160 (بتصرف).

(108) الدكتور عبد العظيم رمضان ـ تطور الحركة الوطنية في مصر ـ هيئة الكتاب ـ الجزء الرابع ص282.

(107) د. محمد حسين هيكل - مذكرات في السياسة ج2 - ص 240.

(106) الدكتور عبد العظيم رمضان - تطور الحركة الوطنية في مصر - هيئة الكتاب ج4، ص282.

(105) جريدة الوفد في 22 أغسطس 1985.

(104) محمد الباز ـ عظماء وهلافيت ـ كنوز للنشر2010.

ساحر الكتب

امرأة قلبت حياة سيد قطب

«سارت معي في طريق فدَميت ودُميت، وشَقيت وشُقيت، ثم سارت في طريق، وسرت في طريق، جريحين بعد المعركة. لا نفسها إلى قرار، ولا نفسي إلى استقرار».

سيد قطب عن محبوبته في رواية «أشواك»

- 1 -

لا يُذكر اسم سيد قطب بمعزل عن الدم. لا تُطرح أفكاره وعباراته إلا في سياق حث الشباب الباحث عن هوية على القتل باسم الدين. لا يولد تنظيم راديكالي إسلامي في العالم العربي من المحيط إلى الخليج دون توصية أعضائه بقراءة كتب سيد قطب المنتشرة كالجراد.

يبدو الرجل ممنوعًا في كل مكان، ما يعني أنه موجود في كل مكان. كلماته سحر نفاذ يتسلل إلى عقول الشباب، فيسكنها في سلاسة. يبني فكرة الجاهلية بمنطق وهدوء ليصل إلى النتيجة الأخطر بأن الناس في ضلال، وأن الحكومات كافرة، وأن التعامل الأمثل معها هو العدوان. كراهية مكرورة تبث تربصًا، وتكفيرًا، سعيًا للتخريب والإقصاء ورفضًا باتًّا للآخر يصل إلى حد جواز تصفيته جسديًّا.

كان الرجل كاتبًا متعدد الإسهامات، شاعرًا، وروائيًّا، وناقدًا، ومحللًا، ثم أصبح كاتبًا تكفيريًّا من الطراز الأول، ما جعل نهايته درامية بشكل مستغرب، لينتهي في 29 أغسطس سنة 1966، مُعلقًا فوق مشنقة سجن الاستئناف بعد حكم صادر من محكمة عسكرية حاكمته على تشكيل تنظيم مسلح يتبنى العنف منهجًا للتغيير، ويجلب السلاح، ويُخطط للقتل والخراب.

ومن يومها اكتسب الرجل أهمية قصوى لدى الجماعات الراديكالية، فهو المُنظِّر الأول للتكفير، المُحرِّض على الآخر، الرافض للحضارة والتمدُّن، شديد العداء لأصحاب الأديان الأخرى، اللا مكترث للمرأة، والعائش في وهم المؤامرة الكونية الدائمة ضد الإسلام.

بالطبع لم تكن البدايات توحي بالنهايات، ففي لحظة فارقة، يصعب تحديدها قطعيًّا، انقلب سيد قطب من شاعر إلى ثائر، ومن كاتب إلى مُحرِّض، ومن رومانسي إلى دموي. تحولت السُّنبلة في مخيلته إلى قُنبلة، وتغيرت دواة الحبر بين أصابعه إلى خطة حرب، وتبدلت قيم الرحمة والمودة والتسامح في نفسه إلى كراهية، واستعلاء، وغطرسة.

تنوعت تفسيرات الانقلاب العجيب في حياة الرجل، وربط البعض بينه وبين رحلته لأمريكا سنة 1949، وعزا هؤلاء

التغير المفاجئ في شخصيته إلى ما شهده من صدمة حضارية حادة. رأى هؤلاء أن ما شهده وشاهده في العالم الغربي صدم قناعاته الذاتية وجعله يتصور أن مصر والشرق في تخلف تام لأنها بدلت دينها وانقلبت عليه، وأن مظاهر التقدم في الغرب، مجرد قشور زائفة لتدني أخلاقي وقيمي عظيم، وأن الحل هو إعلان الحرب. لكن الصدمة الحضارية لا تؤدي لكل هذا الحنق المنكتم الذي يصل به إلى الاستحلال، ثم ما علاقة تلك الصدمة بالمجتمع المصري، الذي كان يعيش فيه، ولماذا يخاصمه بهذا التطرف؟ كذلك فإن كُتّابًا ومبدعين ومفكرين سبقوه إلى الغرب، ربما صدموا وربما استوعبوا التباين لكنهم لم يحترقوا غضبًا إلى هذا الحد. بل إن بعضهم(103) عاد إلى مصر ولديه قناعة بضرورة محاكاة الغرب، والاستفادة القصوى من تراثهم الإنساني وعلومهم الحديثة.

وهناك مَن رأوا أن انقلاب سيد قطب إلى إرهابي، دموي، ومُستحلٍّ للدماء، جاء بسبب تعرُّضه لتعذيب شديد خلال فترة سجنه الأولى في سنة 1954، ومعايشته لوقائع تعذيب سجناء آخرين، ما جعله يُشبِّه ما يلاقيه هو وزملاؤه بما واجهه المستضعفون من المسلمين في بداية دعوة الإسلام، وانتهى إلى اعتبار جلاديه متساوين مع كفار قريش، ومن

هنا سعى لرسم خط منطقي لتأكيد ذلك الحكم، فوجد ضالته في فكرة الحاكمية، وطبَّقها على المجتمع المصري المعاصر، ثم على المجتمعات كافة.

لكن هذا التصور يتهاوى إن علمنا أن هناك سياسيين من تيارات أخرى غير دينية لاقوا معاناة أكثر قسوة داخل السجون في الزمن ذاته، ولم يتحولوا إلى وحوش كاسرة، وحسبنا أن نتذكر جرائم التعذيب التي طالت جميع التيارات الفكرية، والتي وصلت إلى حد وفاة بعضهم تحت التعذيب مثلما هو الحال مع شهدي عطية الشافعي(102).

لكن هناك مَن يشيرون إلى أن تحول سيد قطب جاء بسبب تجاهل استوزاره أو تكريمه من قبل جمال عبدالناصر ورفاقه، عقب ثورة 23 يوليو سنة 1952، بعد أن ساندهم ووقف إلى جوارهم في مواجهة الأحزاب السياسية القائمة(101).

واستدل هؤلاء بمقالات عديدة لسيد قطب هاجم فيها الساسة القدامى وخوَّنهم وحرَّض ضدهم، وربما كانت من أبرز تلك المقالات ما كتبه في جريدة «الأخبار» حرَّض فيه على الساسة السابقين وبشَّر فيه بالديكتاتورية، حيث كتب: «لقد احتمل هذا الشعب ديكتاتورية طاغية باغية شريرة خمسة عشر عامًا أو تزيد.. أفلا يحتمل ديكتاتورية عادلة

نظيفة ستة أشهر»(100).

وفي مقالٍ آخر يقول الرجل محرضًا ضد عمال كفر الدوار سنة 1952: «هذه الحوادث المفتعلة في كفر الدوار لن تخيفنا. لقد كنا نتوقع ما هو أشد منها. إن الرجعية لن تقف مكتوفة الأيدي وهي تشهد مصرعها. فلنضرب بسرعة. أما الشعب فعليه أن يحفر القبر وأن يهيل التراب».

ويكتب بعد ذلك محرضًا ضد التعددية والأحزاب القائمة وعلى رأسها حزب الوفد، فيقول في إحدى مقالاته: «هذه الأحزاب ليست صالحة للبقاء، إنها ستتفتت وتنهار سواء طلب الجيش ذلك أم لم يطلبه، لقد استوفت أيامها وعاشت بعد أوانها. لقد خرب الوفد بعد أن دخله الاقطاعي فؤاد سراج الدين وتحالف مع الملك»(99).

لكن ضباط يوليو الذين كانوا على صلة مودة معه، وصلت إلى حد زيارة جمال عبدالناصر له مرارًا في بيته بحلوان، لم يهتموا به، وخذلوه، ولم يعينوه وزيرًا للتعليم كما كان يأمل، فتحول للعمل ضدهم، ثم وصل معهم إلى حالة اللا رجعة في الخصومة، فكفَّرهم واستعدى الناس عليهم.

وهذا الطرح أيضًا غير كافٍ لتبرير درجة التطرف غير المسبوق التي وصل إليها قُطب فكريًا، فكم من أناس وقفوا

بجوار حركات وأنظمة وساندوها ولم يذوقوا عسلها، غير أنهم لم يتحولوا إلى معادين لها، وحتى لو تحولوا فإن ذلك العداء يبقى في إطار الانتقاد والقدح لا التكفير والسعي للتصفية.

وتصور البعض أن منهج سيد قطب الحاد والمُكفِّر هو نتيجة تورطه غير المحسوب في العمل التنظيمي بجماعة الإخوان المسلمين، وما استتبعه ذلك من نصرة التنظيم بأي طريقة وبأي فكر.

لكن على أي حال لم يستخدم أحد عبارة نابليون بونابرت الآثرة «فتِّش عن المرأة»! فالمرأة قد تكون سببًا في تبدُّل حال، وتغيُّر فكر، وتحول إنسان، خاصة إذا كانت هذه المرأة محل حب جارف وعنيف من هذا الإنسان.

أي امرأة؟ ومَن؟ وكيف وصلت إليه؟ وما آثارها عليه؟ تلك تساؤلات مهمة تظهر من هوامش سيرة الرجل، وتحديدًا من إنتاجه الأدبي الباقي وعلى رأسه رواية شهيرة حملت عنوان «أشواك».

ففي هذه الرواية تحديدًا جوانب من حكاية المرأة التي قلبت حياة سيد قطب رأسًا على عقب، لخبطت عقله كما يقولون، أشعلت أفكاره، أرهقت حواسه، ودوخته، ودفعته دفعًا ناحية التطرف، وكراهية الدنيا، ومجافاة العواطف

والمشاعر الإنسانية والآخرين تمامًا تمامًا.

***

-2-

ما هو متاح من معلومات عن رواية «أشواك» هو أنها صدرت سنة 1947، عن دار سعد بالفجالة، بالقاهرة، وأُعيد طبعها في مصر سنة 2011 بعد تمكن جماعة الإخوان في مصر ووصولهم إلى الحكم في لحظة تاريخية غرائبية، ونشرتها وقتها هيئة الكتاب بمقدمة للناقد والشاعر شعبان يوسف.

وبشكلٍ عام، فإن الرواية ركيكة أدبيًا، وتُعبر عن بدائية فنية ربما كانت مناسبة لزمن صدورها، فرسم الشخصيات فيها غير مكتمل، وخيوط تواصلها واهية. فضلًا عن أن لغة المحاورات بين شخوصها متشابهة الإيقاع، بحيث لا يختلف صوت شخص مثقف عن شخص غير مثقف، أو رجل عن امرأة. لكن على أي حال، فإننا لسنا بصدد نقد الرواية أو تقييمها الآن.

وما تفيدنا فيه هو أنها تدور في القاهرة في الثلاثينيات، وتقدم حكاية حب عنيف ومحمود جمع شابًا مرهف الحس، مثقفًا، نبيلًا يُدعى «سامي»، وفتاة مصرية متحررة ولطيفة

تُدعى «سميرة». ورغم أن تعارف الاثنين تم بشكل تقليدي من خلال رغبة سامي في الاقتران بزوجة من عائلة مناسبة، إلا أن ارتباطه بها كان قويًّا ومحبته لها اتسمت بالجنوح والحدَّة. لكن الحكاية بينهما انتهت بالفراق والألم والوجيعة بسبب تشككه الدائم في سلوكها، وتصوراته الخيالية بأنها ستخونه لا محالة.

وفي حقيقة الأمر، فإن سامي، بطل الرواية، لم يكن في الحقيقة سوى سيد قطب نفسه، خاصة أن الأدباء في ذلك الوقت، اعتادوا سرد أجزاء من حياتهم في قصص، أو روايات كنوع من الواقعية، مثلما فعل توفيق الحكيم في روايته «يوميات نائب في الأرياف» والصادرة سنة 1937، أو مثلما فعل عباس محمود العقاد في رواية «سارة».

ويؤكد على صحة هذا التصور أن رواية «أشواك» تصدَّرها إهداء من المؤلف إلى البطلة الحقيقية للقصة، إذ يقول فيه: «إلى التي سارت معي في الأشواك، فدميت، ودميت، وشقيت وشقيت، ثم سارت في طريق وسرت في طريق. جريحين بعد المعركة. لا نفسها إلى قرار ولا نفسي إلى استقرار»(98).

كذلك، فإن هناك إشارات عديدة في رواية «أشواك» تُشير إلى وجود تشابه كبير بين شخصية البطل سامي، وبين سيد

قطب نفسه، فإننا نجد البطل شخصًا معروفًا لدى الناس بسبب كتابته للمقالات في الصحف، حتى إن ضابط شرطة يلتقي به مصادفة فيسأله بعد أن يطلع على هويته، إن كان هو الكاتب المعروف الذي يكتب في الصحف، فيجيب بالإيجاب.

وبطل الرواية كذلك مؤلف لكتب عديدة في النقد والأدب، وتطلب منه حبيبته أن يختار لها كتابًا من مؤلفاته لتقرأه.

وهو أيضًا قادم ـ مثل سيد قطب ـ من مُجتمع ريفي شبه بدائي إلى القاهرة بصخبها وزحامها وقسوتها، وهو شخص مسكون بالبراءة والخجل وقلة الخبرات، ويحب الشعر محبة طاغية، ويكتبه.

ونلمح في حديث لأم سميرة، وهي تتحدث عن سامي ما يشير إلى شخصية سيد قطب الحقيقية حيث تقول عنه إنها تنظر له باعتباره شابًّا نبيلًا تثق في أخلاقه، ومستقبله طيب، وهو ملحوظ المكانة في الأوساط الأدبية والسياسية، وكأن سيد قطب يتحدث هنا عن نفسه.

فضلًا عن ذلك تُنبئ شخصية البطل ببعض صفات سيد قطب نفسه، والتي ربما تطورت وصارت أكثر حدَّة فيما بعد، فهو شخص كثير الشك، والغيرة، يرى المرأة دومًا مثيرة للفتنة وأداة للشيطان للهيمنة على البشر، وهو لا يستنكف أن

يشير مرارًا إلى هذا المعنى في أكثر من موقع، كما يسيء الظن بها كثيرًا لدرجة تدفعه فيما بعد إلى الندم على ما يبدر منه من تعبيرات تجاه إنسانة يحبها.

تبدأ الحكاية بشاب في العقد الرابع من عمره، يخطب فتاة مرحة، لطيفة، ابنة لأسرة متوسطة، تصغره بنحو عشر سنوات، هي سميرة، والتي تختار مصارحته من البداية، بمكنون قلبها وقصة ارتباط منطوية، فتحكي له عن خطبتها السابقة لضابط شرطة يُدعى ضياء، وتعلقها به لفترة قبل أن ينفصلا. وتدفعه هذه المصارحة إلى أن يظن كل حين بأنها ما زالت تحبه، لكنها تنفي ذلك، فيزداد تشككه ويصل به الأمر إلى أن يذهب يومًا إلى خطيبها السابق ويعرض عليه مساعدته للعودة لفتاته إن كان ما زال يحبها، غير أن الخطيب السابق يرفض، ويُخبره بأن حكايتهما انتهت إلى الأبد.

وتظل الوساوس مسيطرة على البطل وتُشعل شكوكه في خطيبته التي يحبها ويغار عليها، فتنشأ المشاحنات كل يوم بينه وبين سميرة، ويضطر مع سوء تفسيره لسلوكها إلى فسخ الخطبة، ثم يندم ندمًا شديدًا، ويقرر العودة مرة أخرى، ليعيش شهورًا من الحب والهيام والأشواق الملتهبة، لكنه ما يلبث أن يتشاحن مرة أخرى مع الخطيبة، ويحتد عليها،

ويعنفها ويكرر شكوكه فيها، فتفسخ هي الخطبة تمامًا وتُعيد له هداياه كافة.

ويمر العاشق بفترة تخبط وتعاوده الذكريات، فيحاول الرجوع مرة أخرى إلى خطيبته، لكنها تعتذر له لأنه يخلط بين خيالاته والحقيقة، وتقول له سميرة: «أنت لا تهرب من الخيالات. فعِش في رواياتك وقصصك واترك لي الحقيقة».

وتتكرر محاولات سامي للعودة إلى سميرة، فيقول لها بكبرياء لا يتخلى عنها: «اسمعي يا سميرة. إنني على استعداد أن أغفر لكِ كل شيء. كل شيء». وتجيبه بأن الحياة لن تصلح، ويسأل عن السبب، فتجيبه بصراحة قائلة: «لأنك لن تثق بي أبدًا. لا يخدعنك أنك تشعر بالتسامح الكبير، إن هذه اللحظة ستزول. ستزول عندما يضمنا بيت واحد. وعندما يطلب كلٌّ من صاحبه تبعات الحياة المشتركة فلن يجدها».

وتشرح له تصورها قائلة: «بربك تصور أننا كنّا معًا في الطريق، فلقينا ضياء. ألا تثور في نفسك المعركة من جديد؟ ألا تجثم عليك هواجسك؟»، وينتهي الأمر بأن تطلب منه أن يبقيا أصدقاء، فينصاع للأمر، ويتقبل مكلومًا فراق حبيبته، وينقطع عنها لبضع سنوات، وفي أحد الأيام يبصرها وهو سائر في أحد الأماكن العامة، فتسأله: «أما زلت وحيدًا يا

سامي؟»، فيقول لها بكبريائه المعتادة: «لا يهم»، ثم يجد طفلًا متعلقًا بثوبها فتخبره بأنه ابنها.

ويبدو سيد قطب الإسلامي المتطرف غائبًا عن سيد قطب الأديب، إذ نجده في القصة يصف لحظة تقبيله لمحبوبته بعفوية غريبة، إذ يقول: «أخذ جسدها يرتجف، وعيناها مغرورقتان بالدموع، وفي وجهها براءة عذبة، ثم لا يدري كيف نسي كل شيء، فإذا شفتاه تهويان على شفتيها، فتستجيب له بكل ما فيها من نهم، ثم يستمعان إلى وقع أقدام فينتبهان..»

ولا نتوقع للحظة أن يصطحب مُنظِّر الإرهاب الديني، فتاته إلى السينما لمشاهدة فيلمٍ ما، إذ يصف ذلك بكلمات صريحة يقول فيها: «ثم أطفئت الأنوار، وتحركت ذراعه قليلًا، فسرت في جسده هزة، ومالت إليه قليلًا، فصافح شعرها خده، وأحس بالنشوة فثمل، وطافت برأسه الرؤئ الغامضة في الفردوس النعسان».

ويكتب أيضًا في حكايته عن احتضانه لخطيبته خلال زيارته لها، فيقول: «ولم يكن يملك إلا أن يضمها بعنف، وهي تسكب في نفسه أحلى رحيقها المذخور بهذه النظرة وتلك الفتنة، ثم تملصت منه وانفلتت تجري، وعاد هو إلى الحجرة نشوان ولكنه تعبان.عاد فجلس ولم يلحظ أحد منهم عليه

شيئًا..»

ورغم ركاكة الوصف، نجده يرسم صورة جذابة لمحبوبته عندما يكتب: «لم تكن ممَّن يحسبهن العرف جميلات. كان تكوينها الجسدي ـ إذا استثنينا صدرها الفاتن ـ ليس ممتازًا، ولكن كان في وجهها جاذبية ساحرة. كانت خمرية اللون، واضحة الجبين، وفي عينيها وهج غريب تطل منه إشراقة مسحورة، وكان هذا الوهج أشبه بالإشعاع الكهربائي المغناطيسي..»(97).

وإذا كان المفكر الراحل محمد حافظ دياب يرى أن قصص سيد قطب تمتلئ بالحشو والاستطراد والتدخل في الأحداث وصياغة العناوين المباشرة، فإن ذلك لا يمنع أن تكون القصة واقعية، خاصة أنها تمثل محطة تحول واضحة في مؤلفاته التي تبلغ أربعًا وعشرين كتابًا(96).

فكتاب «أشواك» هو الكتاب السابع في مؤلفات سيد قطب من حيث الترتيب الزمني، بعد كتب اتسمت جميعًا بالإبداع الأدبي، بدءًا من ديوان شعر «الشاطئ المجهول»، الذي أصدره سنة 1935، مرورًا بكتاب سيرته «طفل من القرية»، ثم قصة «المدينة المسحورة»، وحتى كتابه النقدي «كتب وشخصيات» الصادر سنة 1946. ونلاحظ أن كُتب قطب التالية لـ «أشواك» تجنبت تمامًا الإبداع الأدبي، سواء السردي

أو الشعري، وانخرطت جميعًا في الشأن الديني لتنزع نحو التعصب والتطرف تدريجيًا، فنجده يُصدر كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» سنة 1949، ثم كتاب «معركة الإسلام والرأسمالية» سنة 1951، حتى يمتد به الأمر إلى إصدار موسوعة «في ظلال القرآن» نهاية الخمسينيات، ثم كتابَي «هذا الدين» و«المستقبل لهذا الدين» في وقت لاحق، قبل أن يُصدر كتابه الأشهر «معالم في الطريق» سنة 1964، والذي يطرح فيه فكره التكفيري بصراحة وعمق وتفصيل.

لقد انقلب الشاعر الرومانسي الخجول المُنتشي بالقُبلة، الملتاع بالحب، المحترق بالأشواق، إلى حامل راية إرهاب وتحريض، بعد أن غادرته المرأة التي عشقها. ومن تطرف إلى تطرف وصل به الحال إلى أن يكتب في كتاب المعالم: «إن الناس ليسوا مسلمين كما يدّعون. إنهم يحيون حياة الجاهلية. ليس هذا إسلامًا وليس هؤلاء مسلمين، والدعوة اليوم إنما تقوم لرد هؤلاء الجاهليين إلى الإسلام، ولتجعل منهم مسلمين من جديد».

ثم يقول: «إن وجود الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع من قرون كثيرة، ولا بد من إعادة وجود هذه الأمة لكي يؤدي الإسلام دوره المرتقب في قيادة البشرية مرة أخرى. لا بد من بعث لتلك الأمة التي واراها ركام الأجيال وركام التصورات،

وركام الأوضاع، وركام الأنظمة التي لا صلة لها بالإسلام»(95).

ويكتب أيضًا: «إن القوى الإنسانية نوعان، قوة مهتدية، تؤمن بالله وتتبع منهجه، وهذه يجب أن نؤازرها ونتعاون معها على الخير والحق والصلاح.. وقوة ضالة لا تتصل بالله ولا تتبع منهجه. وهذه يجب أن نحاربها ونكافحها ونغير عليها»(94).

***

- 4 -

تبقى حياة سيد قطب وتحولاته وانقلاباته المنتجة لأخطر فكرة في تاريخ المسلمين الحديث محل اهتمام والتفات كثير من الباحثين المخضرمين على المستويين العربي والعالمي. وليس أدل على ذلك من إعداد مئات من رسائل الماجستير والدكتوراه وزمالة في كبرى الجامعات العالمية عنه وعن فكره، وربما كان من أهم الكتب التي صدرت في السنوات الأخيرة وحاولت تحليل أفكاره وقراءتها كتاب الأمريكي جيم توث، عن حياة وتراث المفكر الراديكالي سيد قطب(93).

ورغم أن هذا الكتاب لا يشير إلى حكاية المرأة التي كان لها

أثر بالغ في تحول شخصية سيد قطب، فإنه تضمن تحليلًا حياتيًا رائعًا، حيث تتبع سيرته منذ ميلاده في قرية موشا بأسيوط سنة 1906 في عائلة عصرية كانت ثرية إلى حدٍّ ما، ثم بدأت ثروتها تنحسر رويدًا بسبب الإسراف. وكان والد سيد ذو الأصل الهندي شخصًا بارزًا بين مجتمعه كمالك أرض معتدل وواحد من الأعيان، و ناشط سياسي في الفرع المحلي لحزب مصطفى كامل الوطني، وكان أحد رعاة جريدة «اللواء» الصادرة عن الحزب.

كذلك يحكي جيم توث أن فاطمة، والدة سيد قطب، جاءت من أسرة أخرى لكنها أكثر مكانة واحترامًا، حيث كان لها شقيقان تخرجا في الأزهر، و يرى أن تأثير والدة قطب الكبير عليه دفعه على مدى حياته إلى التفوق حتى يستعيد مكانة وثروة الأسرة الضائعتين. والتحق قطب في القاهرة بكلية دار العلوم كبديل للأزهر، مفضلًا بذلك الدراسة المدنية عن الدراسة التقليدية، وتخرج عام 1933، وهو نفس عام وفاة والده، وقد تم تعيينه فور تخرجه بوزارة التعليم، وعمل في البداية مدرسًا لست سنوات، ثم مشرفًا تربويًا، حتى عندما سافر إلى الولايات المتحدة فقد كان هدفه ظاهريًا دراسة المناهج الدراسية الإصلاحية.

وفى تصور«توث» فإن سيد قطب لم يرفض الحداثة

والعلمانية، وكان فقط غير متصل دائم بالإسلام التقليدي، وبحث عن فهم جديد للإسلام يمكنه منافسة الحداثة.

ففي كتاب «طفل من القرية» نجد الشخصية الرئيسية لطفل هو في الغالب سيد قطب نفسه، ويظهر مثاليًا جدًا، مستورًا عن الخطايا، وبريئًا تمامًا.

في عام 1921 ترك سيد قطب خلفه الأسرة والألفة وذهب إلى القاهرة ليقيم نحو أربع سنوات مع خاله أحمد حسين في شارع عثمان شمال ضاحية الزيتون بعد حي هليوبوليس. وخلال السنوات الممتدة من 1925 إلى 1928 التحق قطب بمدرسة المعلمين الأولية، وهي مدرسة تمهيدية تساوي المدرسة الأمريكية الابتدائية العليا، ثم درس لمدة عام في المدرسة الإعدادية العليا «تجهيزات دار العلوم»، ثم التحق في العام التالي بكلية دار العلوم وصار طالبًا في الشئون الأكاديمية والأدبية.

وفي عام 1933 عندما كان عمره 27 سنة تخرج سيد قطب في دار العلوم ومعه إجازة في اللغة العربية والأدب، وكان أول عمله في مدرسة الداودية الإعدادية بالقاهرة خلال الفترة من 1933 إلى 1935. بعد ذلك انتقل إلى المدرسة الابتدائية في دمياط على شاطئ البحر المتوسط لمدة نصف عام في 1935، لكنه وافق على اقتراح نقله إلى

بني سويف لأسباب صحية ليُدرس بمدرسة ابتدائية لمدة عام، عاد بعدها مرة أخرى إلى القاهرة، حيث عمل في مدرسة إعدادية في حلوان لمدة ثلاث سنوات حتى عام 1940.

وبعد أن أنهكه التنقل والسفر عمل موجهًا في إدارة الثقافة العامة في مارس عام 1940، ثم توجّه بعد شهر واحد إلى إدارة الترجمة والإحصائيات بوزارة التعليم. وفي يوليو عام 1944 تم إبعاده إلى وظيفة مفتش في التعليم الابتدائي بسبب أنشطته السياسية، لكن بعد 15 شهرًا تم ترشيحه لإدارة الثقافة العامة، حيث عمل هناك خلال الفترة من 1945 إلى 1948، بعد ذلك سافر بمنحة من وزارة التعليم في بعثة دراسية متخصصة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وتحديدًا في 3 نوفمبر 1948 كي يطلع على أساسيات نظام التعليم هناك.

وعاد قطب إلى القاهرة في 23 أغسطس عام 1950 ليعمل كمفتش مساعد في مكتب وزير التعليم، ثم ينتقل بعدها للعمل في إدارة جنوب القاهرة التعليمية في أكتوبر 1951، وأخيرًا انتقل في مايو 1952 إلى مكتب الأبحاث الفنية والمشروعات، إلا أنه استقال من منصبه بالوزارة بعد ستة أشهر في 18 أكتوبر 1952 احتجاجًا منه على

سياسات التعليم غير الإسلامية لحكومة الثورة الجديدة.

وفي تصور جيم توث، لم يكن انتقال قطب من شخص علماني وحداثي إلى إسلامي ومتطرف تقليدي مفاجئًا تمامًا، فقطب أتم حفظ القرآن بالكامل في سن العاشرة، واتبع المذهب السائد للمفكرين الوسطيين؛ لذا فإن تحركه نحو الإسلاموية لم يكن مختلفًا عن تحركات أقرانه. كما أن حياته الخاصة قد تكون دفعته أسرع وأعمق في هذا المسار.

وفي رأيه أيضًا فإن سيد قطب أصبح وقتها أكثر صرامة وأقل تسامحًا فيما يخص الأخلاق. لقد كان دائمًا متسامحًا، لكن وفاة والدته، ودمار الحرب العالمية الثانية عام 1939 أظهر ذلك الوقت تعصبه الخفي. كانت الصدمة الثقافية التالية بين قيم الصعيد وفسوق الجنود البريطانيين غير التقليدي أكبر من اللازم ليظهر سخط قطب واستقامته الذاتية.

وبحلول عام 1940 أصبح قطب أخلاقيًا محافظًا بعمق. وفى سبتمبرمن ذلك العام نشر موضوعًا بعنوان «الغناء المريض» في مجلة «الرسالة» استنكر فيه الأغاني التي تُبث عبر الراديو، والنوادي الليلية، وشركات التسجيلات الفنية، واعتبرها خطرًا لأنها مثل «السم الذي يسري عبر روح الأمة».

كما انتقد قطب السينما، خاصة الأفلام الرومانسية التي بدأت تغزو السوق المصري، ورفض أيضًا مشهد الاصطياف في الإسكندرية، وأبدى عدم إعجابه بموكب الفتيات غير اللائق على الشواطئ معتقدًا أنه يهدر كرامتهن.

يقول سيد قطب في أحد مقالات ذلك الوقت: «في مصر تقوم معظم الأفلام التي تُعرض في السينما سواء محلية أو عالمية على الحب. وتُظهر بعض الأفلام العالمية رغبات الإنسان في صورة نبيلة ورحيمة بما ينعكس على كرامته وصلاح روحه. إننا لا نعني بكرامة الإنسان تلك الصورة الروحية أو الأفلاطونية، لكننا نعني أن الصورة هي صورة حية لرغبة الإنسان وليس للحيوانات المثارة ولا للبغاء الرخيص. إن هناك أفلامًا عديدة تُظهر هذه الرغبة الإنسانية في شكل مبتذل. وللأسف فإن بعض هذه الأفلام مصري خالص؛ لذا فإن الفيلم المصري معروف أنه الأدنى في العالم، ففيه يصبح العشاق مخنثين، ناعمين، وضعفاء، وليس لديهم أكثر من الحزن والبكاء. مثل هذه الأفلام مدمرة وخطرة على الإنسانية»(92).

ويضع مؤلف الكتاب يده على فترة التناغم الأولى بين جماعة الإخوان وثوار يوليو، وهو ما سوف يؤدي إلى تناغم وتفاهم مبدئي بين سيد قطب والضباط الأحرار. لقد قامت

الثورة بينما كان قطب يرى نفسه واحدًا من أعضاء الإخوان، والذين استقبلوا مؤلفاته بانبهار وتقدير كبير. وكان الإخوان يأملون أن تقيم الثورة دولة إسلامية، خاصة أن مجلس قيادة الثورة أعاد فتح التحقيقات في حادث اغتيال حسن البنا، وأغلق البوليس السري بوزارة الداخلية، وقبض أيضًا على محمد الجزار رجل الداخلية المكروه من جانب الإخوان لقسوته وتعذيبه لهم. كما أفرج مجلس قيادة الثورة كذلك عن كثير من السجناء الإخوان. وكان قطب يعتقد أنه هو والإخوان سيلعبان دورًا مهمًّا في الحكومة الجديدة، خاصة أن قطب شارك في عدة اجتماعات للضباط الأحرار بعد نجاح الحركة. ففي الشهر التالي للثورة، دُعي قطب لمحاضرة في نادي الضباط بالزمالك حول التحرر الفكري والروحي في الإسلام، وتم استقبال محاضرته باهتمام بالغ من الضباط الحاضرين. وتم تخصيص مكتب لقطب في مبنى مجلس قيادة الثورة بالزمالك، وطلب منه المساعدة في كتابة مناهج تعليمية جديدة. وبعدها بقليل في 18 أكتوبر 1952 استقال قطب من وزارة التعليم متوقعًا تعيينًا بمنصب أعلى في الوزارة، لكنه لم ينَلْ شيئًا، وحاول إسماعيل القباني رئيسه في الوزارة إثناءه عن الاستقالة، ثم حاول أن يؤجلها لمدة سنة حتى يتسنى لقطب الحصول على معاش أفضل لكنه لم يفلح؛ لذا فقد ترك قطب وزارة التعليم بعد 34 سنة دراسة

وعملًا.

في يناير 1953 قرر مجلس قيادة الثورة إلغاء الأحزاب بدعوى القضاء على الفساد، واستحسن قطب ذلك خاصة أنه لم يكن مؤيدًا لتعددية الأحزاب السياسية. وفي 23 يناير 1953 تم تعيين قطب سكرتيرًا عامًّا لهيئة التحرير لكنه استقال قبل مرور أقل من شهر في فبراير، مؤكدًا أن الهيئة لم تكن الحزب الجماهيري الذي تصوره في البداية.

وهناك سبب آخر يحدده مؤلف الكتاب لاستقالة قطب هو أن خطة عبدالناصر لتعيينه وزيرًا للتعليم لم تنجح، وهو ما جعل قطب غاضبًا تجاه الحكم الجديد. كانت عزلته تعكس الموقف المتطور للإخوان، مع هؤلاء الذين اهتم بهم أكثر، وبدأ كلاهما - قطب والإخوان - التباعد عن الحكم الثوري الوطني، وقد كان ذلك متاحًا لأن قطب اقترب أكثر من الهضيبي منافس صالح العشماوي ذي التوجه الراديكالي، وبعد إعلان الجمهورية، بدأ الهضيبي يساند محمد نجيب وكلاهما اعتبرهما عبدالناصر عناصر معارضة تُشكل تهديدًا في تحالف مع الملك السابق والعائلة الملكية، وأصرت جماعة الإخوان على العودة للعب دور مدني، وهو الموقف الذي اعتبره الحكام جزءًا من الثورة المضادة.

و في 12 يناير 1954 تم القبض على قطب وحسن

الهضيبي لمدة ثلاثة أشهر بسبب تصريحاتهما ضد السياسة الخارجية للحكومة في قناة السويس في حشد طلابي بجامعة القاهرة. كما قبض على قطب أيضًا لدوره كرئيس تحرير لجريدة «الإخوان المسلمون» التي منحها ترخيص الطباعة عبدالناصر نفسه في ديسمبر السابق، وأعلنت جماعة الإخوان كمؤسسة سياسية محظورة، وفي 28 مارس سعى محمد نجيب لإطلاق سراح قطب والهضيبي، ولما كانت قوة وتأثير عبدالناصر ما زالت محدودة، فقد نجح نجيب في مسعاه، واستعاد قطب منصبه كرئيس تحرير فور إطلاق سراحه، كما استأنفت جريدة «الإخوان المسلمون» في طبعة جديدة بدأت 20 مايو 1954، وبعدها أصدرت 12 عددًا فقط حتى تم إغلاقها مرة أخرى في أغسطس من نفس العام، وبين مايو وأغسطس نشر قطب موضوعات قوية معادية لنظام الحكم، وكثيرًا ما انتقد عبدالناصر وسياسته الخارجية. ومع تعرض عبدالناصر لمحاولة اعتداء في ميدان المنشية بالإسكندرية تحركت الحكومة وقبضت على الإخوان وأُزيح الرئيس محمد نجيب من السلطة، وقُبض على قطب وحُكم عليه بالسجن 15 عامًا.

وحتى ذلك الوقت ظل قطب كسجين سياسي مسموحًا له بالكتابة، وكان قد بدأ قبل سجنه مشروعًا رئيسيًا لتفسير القرآن، والذي نُشر مسلسلًا في جريدة «الإخوان المسلمون»

خلال الفترة من يناير إلى يوليو 1952. وشاعت حلقات المشروع حتى إن دار إحياء الكتب العربية تعاقدت معه على استمرار كتابة خواطره ونشرها معًا. وفي السجن قرر استكمال جهوده وتحويل الموضوعات إلى سلسلة باسم «في ظلال القرآن». وعندما منعت إدارة السجن قطب من الكتابة أقام ناشره دعوى قضائية سمحت له بالكتابة لكن تحت رقابة مسئولي السجن. ويرى «توث» أن سنوات السجن ساهمت في تحول قطب الشديد نحو الراديكالية.

في وقتٍ ما من النصف الأول من عام 1964 عانى قطب من أزمة قلبية وساءت وتدهورت حالته الصحية أكثر من قبل، وقد تدخل الرئيس العراقي عبدالسلام عارف - الذي كان قريبًا من عبدالناصر ومتعاطفًا مع الإخوان المسلمين في العراق - للإفراج عن قطب خلال زيارته لمصر، وأُفرج عنه بالفعل في مايو 1964 إفراجًا صحيًا. لكنه عاد للمشاركة في تنظيم آخر وضع خططًا لتفجيرات واغتيالات كبرى، ليُحكم عليه بالإعدام.

***

-5-

كتب عن الرجل كثيرون..

مصريون وعرب وأجانب. أفاضوا، وحللوا، وصالوا وجالوا، ونبشوا أعماله وقيموا أفكاره، وفتشوا حياته تفتيشًا، عجنوه وخبزوه حكيًا وتفكيكًا(91).

وبقي الرجل حقلًا خصبًا لدراسات أخرى حديثة حول لحظة تحوله، وأسبابها، وكواليسها، وفي ظني يمكن لباحثين ومحللين قادمين المشاركة فيها.

وبقي الرجل لغزًا في حياته..

ولغزًا في موته..

ولغزًا بعد رحيله.

لكن لا يمكن إغفال حكاية سميرة، وما تركته في ذاته من رواسب، وعلامات انهزام، قد تقلب كل شيءٍ رأسًا على عقب..

وهذا أمر مُحتمل، والتاريخ كله محل احتمال.

***

---

(103) انظر طه حسين ـ مستقبل الثقافة في مصر. مؤسسة هنداوي للنشر 2014، وراجع قوله: «إن علينا أن

نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادًا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يُحَب منها وما يُكره، وما يُحمد منها وما يُعاب».

(102) شهدي عطية الشافعي: سياسي مصري وناشط شيوعي من مواليد الإسكندرية 1911، عمل مدرسًا ومفتشًا بالتعليم، وكان متحمسًا لثورة يوليو وكتب كتابي «أمريكا والشرق الأوسط»، و«تطور الحركة الوطنية المصرية»، واعتقل مع الشيوعيين سنة 1959 وقُتل خلال تعذيبه في يونيو 1960 داخل سجن أبوزعبل.

(101) من هؤلاء عادل حمودة في كتابه الشهير «سيد قطب من القرية إلى المشنقة» سينا للنشر 1987، وحلمي النمنم في كتابه «سيد قطب وثورة يوليو» مدبولي 2011.

(100) الأخبار 8 أغسطس 1952.

(99) الأخبار15 أغسطس 1952.

(98) سيد قطب ـ أشواك ـ دار سعد بالفجالة ص3.

(97) سيد قطب ـ المصدر السابق.

(96) راجع كتاب محمد حافظ دياب - سيد قطب الخطاب

والأيديولوجيا. رؤية للنشر 2010.

(95) سيد قطب ـ معالم في الطريق. طبعة غير مؤرخة.

(94) تتكرر إشارات التكفير المباشرة لدى سيد قطب في كتابيه «معالم في الطريق» و«في ظلال القرآن»، ويقول في الظلال (ص 1057) : «لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية بلا إله إلا الله، فقد ارتدت البشرية إلى عبادة العباد، وإلى جور الأديان، ونكصت عن لا إله إلا الله، وإن ظل فريق منها يردد على المآذن: لا إله إلا الله دون أن يدرك مدلولها... إلا أن البشرية عادت إلى الجاهلية، وارتدت عن إله إلا الله، فأعطت لهؤلاء العباد خصائص الألوهية، ولم تعد توحد الله، وتخلص له الولاء.. فالبشرية بجملتها، بما فيها أولئك الذين يرددون على المآذن في مشارق الأرض ومغاربها كلمات: «لا إله إلا الله» بلا مدلول ولا واقع.. وهؤلاء أثقل إثمًا وأشد عذابًا يوم القيامة؛ لأنهم ارتدوا إلى عبادة العباد - من بعد ما تبين لهم الهدى». ويقول في المعالم (ص 6): «إن وجود الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع من قرون كثيرة، ولا بد من إعادة وجود هذه الأمة لكي يؤدي الإسلام دوره المرتقب في قيادة البشرية مرة أخرى.. لا بد من بعث لتلك الأمة التي واراها ركام الأجيال وركام التصورات، وركام الأوضاع، وركام الأنظمة التي لا صلة لها بالإسلام».

(93) James Toth. Sayyid Qutb: The Life and Legacy of a Radical Islamic Intellectual 1st Edition.

(92) نفس المصدر السابق.

(91) للكاتب الروائي نجيب محفوظ شهادة تحليلية لافتة في كتابه الأدبي «المرايا» عندما كتب عنه باسم عبد الوهاب إسماعيل. إذ ذكر أنه «هو اليوم أسطورة، ويختلف فيه التفاسير. وبالرغم من أنني لم ألقَ منه إلا معاملة كريمة أخوية إلا أنني لم أرتَح أبدًا لسحنته ولا لنظرة عينيه الجاحظتين»، ويفسر نجيب محفوظ ذلك بثلاثة مواقف لمح منها انتهازيته وتعصبه وكراهيته للآخر، أولها حديث دار بينهما حول كاتب قبطي امتدحه سيد قطب عندما كان ناقدًا أدبيًا وقال إنه ذكي وحساس ومطلع وذو أصالة في التفكير، فسأله نجيب محفوظ أن يكتب عنه، فرد أنه لن يساهم في بناء قلم قد يُستخدم يومًا في تجريح التراث الإسلامي! وثاني المواقف أنه قال له إنه يحتقر شخصًا ما لديه مجلة يمتلكها ويكتب فيها ثم فوجئ بمقالة له في مجلة «الرسالة» يمتدح فيها ذلك الشخص ويرفعه فيها إلى السماء، وعلم بعدها أن صاحبنا اتفق مع صاحب المجلة أن ينشر له كتابًا بمقابلٍ مجزٍ. وثالث المواقف كان قبيل إعدامه بقليل، عندما

أُفرج عنه عام 1964 والتقاه محفوظ ودعاه لأن يعود للنقد الأدبي، فسمع منه كلمة جاهلية. وقال له الرجل وقتها إن القوانين كافة يجب أن تنحى وتُستبدل بالقرآن وإن على المرأة أن تلزم بيتها، وإن الاشتراكية والوطنية والحضارة الأوربية خبائث علينا أن نجتثها من أصولها.

محمد نجيب ديكتاتور لم يأخذ فرصته

«إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله. يدُ الله فوق أيديهم..»

الشيخ عبد اللطيف السبكي شيخ الأزهر عن محمد نجيب بعد انتخابه رئيسًا للجمهورية

- 1 -

في عالم السياسة، المُستبعد مندوب، والخاسر مرغوب، والبعيد عن العين قريب من القلب، والبديل دومًا عظيم.

ولا شك أن هناك تعاطفًا واسعًا مع مَن خرجوا من المشهد، وتركوا السلطة لينطرح السؤال الافتراضي مرارًا وتكرارًا: ماذا لو استمروا؟ ماذا كان سيحدث لو لم يُنحوا؟ أي خسائر لحقتنا تجاه ذلك؟ وأي ثمار طيبة فاتتنا نتاج ما جرى؟ هل فاتنا الخير الكثير بخروجهم؟ ماذا لو ظلوا في أماكنهم لفترات أطول؟

ورغم أن الفيلسوف الألماني فريدريش هيجل يقول: «لو كان شيء من الممكن أن يحدث لكان حدث»، فإن علوم التاريخ الحديثة تحتمل استخدام كلمة «لو» لمناقشة البدائل، فتقييم الشخوص والأحداث يتم في كثير من الأحيان من خلال دراسة البدائل.

ولأننا عرب، ولأننا شرقيون، ونحب الخيال، ونخاصم الواقع، فإننا مجبولون على التعاطف مع المُنهزم، وحسن الظن بالمبعدين، ما يشوش نظرتنا للخاسرين، خاصة في مجال السياسة فنعتبرهم ملائكة، مثلما نرى المنتصرين جبابرة. نحن نتعاطف دائمًا وأبدًا مع المنهزمين.

من هنا لم يكن غريبًا أن يرى البعض إبعاد الرئيس أحمد بن بله (2012- 1916) أول رئيس جمهورية جزائري على يد رفيقه في الثورة، ووزير دفاعه هواري بومدين؛ ردة عن مسار الوطنية، أو ينظر آخرون لتنحية الرئيس العراقي الأسبق أحمد حسن البكر (1984- 1914) على يد نائبه صدام حسين باعتباره سحقًا لمشروع تنموي، فذلك كله لم يكن صحيحًا البتة.

وربما لو شئنا الدقة هنا، لقلنا إن ديكتاتورًا ترك مقعده لآخر، وإن وجوه المستبدين جميعًا تتشابه، وإن خروج أحد الساسة مبكرًا من المشهد السياسي لا يعني أنه شخص بريء، عادل، غير متورط في الشر.

بالمثل، راج في مصر، خاصة بين الشباب خلال السنوات الأخيرة تصور غير صحيح مفاده أن محمد نجيب أول رئيس للجمهورية كان حاكمًا نموذجيًا. بل يراه البعض مثالًا يحتذى في العدل والحكمة والإصلاح، ويزعم هؤلاء أنه

انتصر للحريات، ويتصورون أنه أُبعد عن الحكم، وحُددت إقامته،وتعرض لما تعرض له من اضطهاد، وضُيق عليه؛ لأنه كان صاحب مشروع ديمقراطي عظيم.

والمعروف أن نجيب كان برتبة لواء عند قيام حركة الجيش في 23 يوليو سنة 1952 واعتبره الضباط الأحرار واجهة لائقة يمكن التمترس خلفها، فاختاروه رمزًا لثورتهم، ثم رئيسًا لمجلس قيادة الثورة، واختاروه بعد ذلك رئيسًا لجمهورية مصر العربية.

وكطبيعة الثوار في كثير من الأنظمة الجديدة دب الخلاف سريعًا بين الرئيس الصورة، والرئيس الحقيقي للثورة، ولما كان الرئيس الحقيقي وهو جمال عبدالناصر، شخصًا شديد الدهاء، واسع الحيلة، يُمسك بكافة خيوط الحركة، ويحرك الأحداث بما شاء وكيف شاء، فقد انتصر في النهاية وتمكن من تنحية الرئيس الصورة تمامًا في نوفمبر 1954 وحُددت إقامته حتى مطلع السبعينيات حين سُمح له وقتها بحرية التحرك، ليكتب مذكراته بعنوان: «كلمتي للتاريخ» طارحًا فيها الفكرة نفسها ومعتبرًا إبعاده عدوانًا على الديمقراطية والحريات قبل أن يرحل عن عالمنا في 28 أغسطس سنة 1984.

ومن بعدها، وهناك تعاطف شديد مع الرئيس المُبعد

المُضطهد من رفاقه، ما دفع البعض - وكنت في وقت سابق منهم - إلى اعتباره زعيمًا حقيقيًّا له منهج إصلاحي، كان يمثل الديمقراطية المشتهاة. ولم يكن غريبًا أن يهدي صديقنا الروائي اللامع أحمد مراد روايته «تراب الماس»(90) إليه باعتباره «رجل الفرصة الضائعة»، والذي كان يحمل فكرًا وتوجهًا لتحديث ودمقرطة مصر بعد إسقاط الحكم الملكي فعليًّا في 26 يوليو 1952 بطرد الملك فاروق الأول، ورسميًّا في 18 يونيو سنة 1953 بإعلان الجمهورية وإسقاط النظام الملكي.

***

-2-

للمرة الأولى بكيت، عندما قرأت «كلمتي للتاريخ». كان ذلك قبل ربع قرن، إذ شعرت أن الرجل، البطل، الشجاع، والمهاب ظُلم ظلم الحسين؛ لأنه نادى بالديمقراطية وناضل من أجل الحرية.

في يوم من أيام شهر نوفمبر سنة 1954 ذهب كعادته إلى مقر الحكم، وفوجئ بضابط من البوليس الحربي، ومعه عشرة عساكر يمنعونه من الدخول، ويخبرونه بأن لديهم أوامر بذلك، واتصل بجمال عبدالناصر، الذي أبلغه بأنه

سيرسل عبدالحكيم عامر لحل المشكلة، ولم تمر دقائق حتى وصل عامر ليقول للرئيس: «إن مجلس قيادة الثورة قرر إعفاءكم من رئاسة الجمهورية». امتثل الرجل بهدوءٍ لقرار الإعفاء، غير أنه فوجئ بقرار آخر بتحديد إقامته في فيلا زينب الوكيل بالمرج. وفي الطريق أخبروه بأن ذلك سيكون لبضعة أيام فقط، لكن الأمر تعدى ثمانية عشر عامًا.

بدت محنة الرجل شديدة القسوة، إذ سُجن في منزل قديم منعزل، ولم يخرج هو وأسرته إلى أي مكان وعانوا معًا حتى إن اثنين من أبنائه رحلا في حياته، في حوادث مريبة. وكان من الموجع أن الذين فعلوا به ذلك لم يكونوا أعداءه، وإنما هم تلامذته المخلصون، والذين سبق واعتبروه رمزًا لهم.

بالطبع، فإن في الأمر صدمة عنيفة، لكنها متوقعة من شباب طموح كان يحلم بالسلطة، وتوجه مرتقب من تلميذ فاق أستاذه استبدادًا وتسلطًا ورغبة في الحكم، هو جمال عبدالناصر.

إن ثمة ظلمًا حقيقيًا وعظيمًا لا يمكن إنكاره، تعرض له اللواء محمد نجيب، وربما لم يرده وينصفه سوى قيام الرئيس عبدالفتاح السيسي في يوليو سنة 2017 بإطلاق اسمه على قاعدة استراتيجية مهمة، والاحتفاء بدوره الوطني في تاريخ مصر.

لكن ذلك الظلم الذي تعرض له نجيب، ومحاولات رده من جانب كثير من المنصفين، لا تعني أبدًا أن نفترض أنه كان فلتة عدل، وطاقة أمل، وفرصة خير ضائعة. وبمعنى أدق لا يدفعنا ما جرى له أن نتصور أنه لو ظل حاكمًا، أو انتصر على خصومه، ولو تخلص منهم قبل أن يفعلوا هم لتغير تاريخ مصر، ولتحولت إلى دولة ديمقراطية، ليبرالية، ومن ثم تقدمت اقتصاديًّا وعلميًّا ومجتمعيًا(89).

إننا هنا لن نستعين بشهادات المعاصرين، والتي قد تختلف باختلاف مواقف أصحابها، ودرجات مكاسبهم وخسائرهم من الرجل، وعصره. كذلك فإن آراء المؤرخين اللاحقين تتباين بحسب توجهاتهم السياسية، وهو ما يُصعِّب الاقتناع المطلق بأمرٍ ما، أو الارتكان لحكم نهائي تجاه أحد شخوص التاريخ.

لكن الوثائق الرسمية وتحليل مضمونها يمكن أن يقدم رأيًا آخر، فالوثائق تبقى حتى الآن أفضل شاهد، وأصدق راصد لزمان ولَّى، وعصر أفل، خاصة إن كانت تلك الوثائق غير شائعة، ولا يتوقع صانعوها ما جرى بعدها من أحداث.

ومن هنا تأتي أهمية وثيقة «الكتاب الأول للثورة» الصادر في 22 يوليو سنة 1953 بعد نحو شهر من إعلان الجمهورية واختيار محمد نجيب قائد الحركة كأول رئيس جمهورية

لمصر، وهو كتاب نادر وقد حرره ضابط من المقربين من اللواء محمد نجيب، وهو اليوزباشي محمود فوزي الوكيل (توفي سنة 1984) بمناسبة مرور عام على حركة يوليو، راصدًا فيه كافة خطب وتصريحات وقرارات نجيب باعتبارها استقراءً لعهد جديد يعتبره عهد إصلاح وتنمية.

ولما كان ذكر نجيب ممنوعًا من الحاكم التالي الذي أزاحه، فقد جُمعت نسخ الكتاب من الأسواق وأُعدمت معظمها، ونُزع اسم نجيب من كتب التاريخ المدرسي ليُستبدل به سلفه جمال عبدالناصر باعتباره أول حاكم مصري لمصر منذ آلاف السنين، وظل هذا مدونًا حتى الثمانينيات والتسعينيات، حتى إن كاتب السطور يتذكر سؤالًا مكررًا في دراسته الابتدائية عن أول رئيس مصري لجمهورية مصر لتتكرر الإجابة بأنه جمال عبدالناصر، وكأن نجيب لم يترأس الجمهورية، أو أنه كان أجنبيًا(88).

وهكذا ظل اسم نجيب متواريًا لسنوات طويلة حتى أطل بمذكراته التي حملت عنوان «كلمتي للتاريخ» وصدرت في بيروت، قبل أن تصدر في القاهرة، ثم أعاد تحريرها الكاتب عادل حمودة في كتاب شهير حمل عنوان «كنت رئيسًا للجمهورية»، وتوالت من بعدها الكتابات المتعددة عن نجيب، وعصره(87).

في الوقت ذاته، فإن الأمر الصادر بإعدام الكتاب التذكاري عن حكم نجيب، لم يُنفذ كما هو مفترض على الوجه الأكمل، فبقيت بعض النسخ النادرة بأيدي هواة جمع الكتب النادرة والأوراق القديمة، ووصلت لكاتب هذه السطور نسخة من هذا الكتاب.

ورغم أنه كتاب يحتفي بالقائد الهمام والبطل الشجاع والزعيم المحبوب والرجل الحكيم محمد نجيب، إلا أنه يحمل إدانة دامغة لتصوراته وأفكاره وأطروحاته بشأن الديمقراطية والحرية والعدالة، وينفي تمامًا ما ذهب إليه المحبون بأنه لو استمر حاكمًا لكان خيرًا لمصر.

***

- 3 -

إن الكتاب التذكاري النادر «الوثيقة» يتضمن رصدًا لكافة خطب وكلمات وتصريحات وصور محمد نجيب خلال السنة الفاصلة من يوليو 1952 إلى يوليو 1953.

ويبدو محمد نجيب في الحكم على حقيقته، وبطبيعته دون أي استدرار تعاطف أو تبديل في رواية مواقفه، شخصًا شديد الاعتداد بنفسه، مستبدًّا إلى أقصى مدى، لا يؤمن بالتعددية ولا يقبل رأيًا آخر، بل إنه يرى نفسه الأول والأعظم

والأكبر والأحكم، ويستخدم دومًا نظرية المؤامرة لكسب التأييد. ففي كل موقف، هناك مَن يتآمرون على مصر، وكل خصم له هو بالضرورة خصم لمصر وشعبها.

إن محمد نجيب الرئيس يختلف تمامًا عن محمد نجيب السجين المضطهد، وصوته في 1953 يناقض كثيرًا صوته في السبعينيات وما بعدها، فلم يكن الرجل ديمقراطيًّا بأي حال، وإنما كان مثله مثل الآخرين عدوًّا واضحًا للديمقراطية.

وكل هذا يدفعني للقول إن تفعيل قانون «لو» يقودنا إلى نتائج شديدة الإزعاج للمتعاطفين مع الرجل، فلو استمر رئيسًا لمصر، ولو استتبت له أمور الحكم، ولو ظل رئيسًا للجمهورية، لبقي حتى وفاته، ولصار مثالًا في الاستبداد، والجنوح، ولشاخت الوجوه كافة حوله. ربما دخلت مصر حربًا مع إسرائيل، وربما مرت بسيناريوهات شبيهة لما حدث، لكن لأن الزعيم يؤمن بصورته كبطل، فإن ما جرى مع ناصر كان في الغالب هو ما سيحدث مع نجيب.

***

- 4 -

في الكتاب التذكاري لرئاسة الجمهورية المصرية تظهر

صورة نجيب بجلاء، ووضوح كرجل فوق العادة، شخص خارق، استثنائي، وفريد لا يتكرر(86).

يبدو نجيب حاكمًا يمتلك الحق المطلق، والعدل التام، ويرى أن كل مختلفٍ معه عدو، وهو ليس عدوًّا له فقط، وإنما للوطن وأهله. ففي مثل هذه الظروف تسقط الحدود الفاصلة بين الحاكم والوطن، فيصبح هو صوته، وعقله، وإرادته.

ومَن يختصم الحاكم، يختصم بالضرورة وطنه، بل يخونه، ويخون أهله وناسه، ومَن يحبه ويتفق معه فهو أهل للوطنية. وهو يرى الماضي كله بغيضًا، والسابق كله فسادًا. أما أفكاره فتبدأ كأنها رغبات الناس، ثم تُصبح حلولًا سحرية، وتتحول مع الوقت إلى أوامروالتزامات، وتتحول في النهاية إلى وعيد وتخويف.

وهو كاره للأحزاب تمامًا، ويرى أنها صورة من صور الانقسام والفرقة، وإرث قبيح من عهود مظلمة. وهنا، فإن الأحزاب جميعًا على باطل، وهي تعبر عن مصالحها الذاتية، وهي لا تقود إلى أي ديمقراطية؛ لأنها تنطلق من عمالتها لجهات أجنبية وأصحاب مصالح اقتصادية ضيقة.

ومن خلال استقراء تصريحات وكلمات الرجل نخلص إلى

رؤيته بضرورة أن يكون الرأي واحدًا، والصوت واحدًا، والقرار واحدًا، حتى تنصلح الأحوال، وبمعنى آخر فإن نجيب يظهر كنموذج شديد الوضوح لديكتاتور فريد.

ويبدو واضحًا من خلال الكتاب أن الرجل لديه ولع شديد بالظهور، فلا يكاد يخلو حدث من وجوده، ولا تمر مناسبة قومية أو شعبية دون حضور، ليظهر كمبادر، وقائد، وفاعل، وخطيب، ومراقب، وغير ذلك، يلتقط التصاوير المختلفة في كل المواقع، مرة وهو يحمل فأسًا في عيد الفلاح، ومرة وهو يرتدي جلبابًا، أو زيًّا عماليًّا، وأخرى وهو يفتخر بزيه العسكري.

وللرجل خطاب في ذكرى الهجرة النبوية، وآخر في عيد الفطر، وغيره في عيد الأضحى، وفي رأس السنة، وعيد العمال، وهو حاضر بقوة في كل فرصة للحديث والظهور. وفي كل مدينة يمر موكبه الخرافي ليُحيي الجماهير على الطرقات بوقفة تعالٍ يظهر فيها كبطل عظيم منتصر.

***

- 5 -

ويراعي مَن قام بإعداد الكتاب أن يتخذ ترتيب مواده أسلوبًا تاريخيًّا من بيان 23 يوليو سنة 1952 وحتى خطابه

في الذكرى الأولى للحركة في يوليو 1953.

وبعد أربعة أيام فقط على طرد الملك فاروق من مصر، وتحديدًا في 30 يوليو 1952 ينقل لنا الكتاب تصريحًا خطيرًا لنجيب يُدلي به أمام وفد من الصحفيين والطلبة، حيث يقول: «إن التخلص من الثعبان لا يكفي فيه قطع ذيله». وهو ما يُمهد لتصفية حسابات واسعة مع القوى السياسية القائمة كافة.

وفي 31 يوليو 1952 يطلب نجيب في بيان رسمي له من الأحزاب القائمة بالبلاد أن تعلن برامج محددة للشعب، وكأنه يؤكد أن حديثه عن الثعبان ورأسه يعنيهم، وأن عينه مستعرة على الحياة الحزبية كلها، فلا يمكن للتعدد أن يبقى في ظله.

ثم ترتفع نبرة الديكتاتور داخله لنجده في حديث آخر مع صحيفة «الأهرام» في 9 أغسطس من العام ذاته يقول مهددًا: «إننا نحذر، ثم ننذر، ثم يكون لنا شأن آخر». ويكشر بعد ذلك عن أنيابه قائلًا: «إذا لم تُطهر الأحزاب نفسها كما يجب سنطهرها بالقوة».

وفي الكتاب أيضًا نجد سمات التبشير بالقوة العظمى للوطن والرخاء العظيم يتدفق عبر خطب متنوعة لنجيب، وكأنه يُعبر عن عظمة عهده، فمصر بخير لأنه يحكمها، وهنا

يقول نجيب في عرض عسكري كبير أقيم بالقاهرة يوم 22 أكتوبر 1952: «إن مصر يجب أن تتحول إلى دولة عظمى، وليس هذا وهمًا أو خيالًا. فنحن لسنا أمة صغيرة، ولا ينبغي أن نظل أمة صغيرة لأننا نملك من تاريخنا وموقعنا ما يؤهلنا لذلك».

ويبدو ذلك الطرح أصيلًا لدى حكام مستبدين كثيرين مروا بمصر، إذ يعدون بدولة «سوبر» ومكانة عظيمة خيالية، ليُخدروا الناس بمستقبل لا يجيء أبدًا، ويتناقض تمامًا مع معطيات الواقع.

وتعصف الحركة الجديدة بكثير من مظاهر الحرية والديمقراطية، ويتم في يناير 1953 حل جميع الأحزاب السياسية القائمة، ويحوي الكتاب بيانًا رسميًا من نجيب نُشر في 16 يناير يقول فيه: «لقد اتضح لنا أن الشهوات الشخصية والمصالح الحزبية تريد أن تسعى سعيها ثانية بالتفرقة، فلم تتورع عن الاتصال بدول أجنبية ونسي هؤلاء أننا نقف بالمرصاد لكل مَن تحدثه نفسه بالخروج على الشعب أو العبث بمستقبله؛ لذلك فقد أمرت باتخاذ أشد وأعنف التدابير ضد كل مارق وخائن يسعى بالفتنة بين صفوف الأمة». ثم يقول بلهجة أكثر صرامة: «ومنذ اليوم، فإنني لن أسمح أبدًا بأي عبث أو إضرار بمصالح الوطن

وسأضرب بمنتهى الشدة على يد كل مَن يقف في طريق أهدافنا».

وتتكرر تبريرات الرجل غير المنطقية لقرار مجلس قيادة الثورة بتصفية الأحزاب وتأميم الحياة السياسية القائمة في خطاب له يوم 23 يناير 1953 إذ يقول: «لقد رأيناها جريمة كبرى أن ندع هذه الحرب الطاحنة بين الأحزاب تطحن الأمة جميعًا، فعزمنا أن نضع حدًّا لها».

وفي خطاب آخر بميدان التحرير يوم 6 فبراير من العام نفسه، يواصل محمد نجيب سبَّ الأحزاب ولعنها ليقول: «لقد كان هم الأحزاب أن تخدع الناس بالكلام المعسول وأن تنيم بطونهم الخاوية وتملأ عقولهم بالأكاذيب»(85).

والخطير في الأمر ما يكشفه الكتاب من ارتباط قوي ووثيق بين حركة الضباط الأحرار عمومًا ونجيب من ناحية، وبين جماعة الإخوان المسلمين من ناحية أخرى، وهو ذلك الارتباط الذي حاول كثير من المؤرخين نفيه. لقد كان هناك تحالف بين القوتين اللتين التقتا في رفض الديمقراطية والتعددية، واستمر ذلك التحالف طوال العامين الأولين للحركة. وليس أدل على الأمر من تضمُّن الكتاب التذكاري لتفاصيل زيارة الرئيس محمد نجيب إلى قبر حسن البنا، مؤسس ومرشد الجماعة السابق، وإلقائه خطابًا أمام ضريحه

في 12 فبراير سنة 1953. والغريب أن يتحدث نجيب ومعه جمال عبدالناصر خلال الزيارة باللغة نفسها التي يتحدث بها أعضاء جماعة الإخوان إذ يُلقِّب كلاهما حسن البنا بـ «الشهيد» ويعتبره قائد الحركة «رجل يعيش لأمته، فيهب لها حياته ويحصر فيها آماله؛ لذا فإن الفجيعة فيه لم تكن فجيعة جماعة ولا فجيعة طائفة ولكنها فجيعة أمة بأكملها، بل أمم غزا قلوبها جميعًا»(84).

ويبدو استخدام الدين واضحًا لتجميل صورة الرئيس في عدة مواضع بالكتاب، فيرد قرار إسقاط المَلَكِية وتعيين نجيب كأول رئيس للجمهورية مسبوقًا بالآية الشريفة ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(83).

وهنا، فإننا لا نستغرب أن تكون أول زيارة للرجل بعد توليه رسميًا رئاسة الجمهورية إلى جامع الحسين بهدف استثمار محبة الحسين الطاغية لدى الناس لكسب تأييدهم. والمثير في الأمر أن يخطب في الناس هناك الشيخ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف وأحد أعضاء جماعة الإخوان.

وتتكرر لعبة تسييس الدين في وثيقة الرئاسة المنسية، لتنشر كلمات رجال الدين في مباركة تولي نجيب الحكم،

فتبدأ بكلمة شيخ الأزهر وقتها الشيخ عبد اللطيف السبكي، مسبوقة بالآية الكريمة:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(82).

ثم تليها كلمة الأنبا يوساب الثاني بطريرك الأقباط في مصر داعيًا بحفظ الرئيس المحبوب وصحبه الكرام. وتأتي بعد ذلك كلمة حاخام اليهود حاييم ناحوم (وكانت توجد في مصر وقتها طائفة يهودية كبيرة كما ذكرنا سابقًا) وفيها شبَّه الحاخام رجال الثورة بالفرقة الموسيقية وشبَّه الرئيس محمد نجيب بالقائد ذي العصا التي تتحرك لتعزف الفرقة أبدع الألحان.

وحتى الرئيس نجيب نفسه شارك في استغلال الدين في توطيد مكانته إذ استخدم في خطابه الأول الموجَّه للشعب باعتباره رئيسًا للجمهورية آيات من القرآن الكريم وأحاديث نبوية عديدة واستشهد بخطبة الخليفة الراشد أبي بكر الصديق. وبالطبع كرر رجال الثورة الأسلوب ذاته ليهب جمال عبدالناصر، نائب الرئيس وقتها، خاطبًا ويطلب من الناس ترديد قسم مبايعة للرئيس نجيب يقول فيه: «اللهم إنا نشهدك وأنت السميع العليم أننا بايعنا الرئيس نجيب رئيسًا لجمهورية مصر...»

والغريب أن تفضح لنا الوثيقة مواقف وآراء متناقضة لأعضاء مجلس قيادة الثورة الذين قاموا بعد ذلك بخلع نجيب وتحديد إقامته، فبعد أيام قليلة من تعيين نجيب رئيسًا للجمهورية يخطب عبدالحكيم عامر عضو مجلس قيادة الثورة وقائد الجيش وقتها في بلدته محييًا القائد العظيم الذي استحق محبة الناس فصار أول رئيس منهم ولهم.

كذلك يخطب صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة في مدينة المحلة الكبرى، فيقول: «إن البعض كان يرى انتخاب رئيس الجمهورية انتخابًا شعبيًّا، وأعتقد وكلكم تعتقدون معي، أن محمد نجيب نجح في أكثر من انتخاب. لقد سار في كل ركن من أركان البلاد والتف حوله ملايين البشر، ولقد سرت اليوم بينكم وتبينت حبكم؛ لذا فإن ذلك أكبر من أي استفتاء وأقوى من أي انتخاب تُدفع فيه الأموال لشراء الذمم والنفوس».

وتبدو الوثيقة سلاحًا ذا حدين، إذ تكشف مواقف الرئيس نجيب من الحريات والتعددية والديمقراطية، ما يضعه في الضفة الأخرى. كما تكشف في الوقت نفسه نفاق ضباط يوليو لرجل شاءت الظروف أن يجعلوه رئيسًا لهم، إذ قالوا فيه مدائح لم تلبث أن انقلبت إلى لعنات عند خلعه وما بعد

إبعاده عن الحكم.

***

ـ 6 ـ

لقد حاول محمد نجيب في مذكراته التبرؤ من عدوانه على الديمقراطية، وقتل الأحزاب، ومحاكمة الساسة السابقين، وتحديد إقامتهم، ومصادرة أموالهم، وظلم الكثيرين.

حاول الرجل التبرؤ من إعدام عاملَين شابين قادا مظاهرات العمال في كفر الدوار للمطالبة بإنصافهم، لكن منطقه لم يكُن مقنعًا.

يقول محمد نجيب: «ووردت الأنباء بأن تظاهرات وقعت في كفر الدوار وأن العمال اعتدوا على رجال البوليس وسقط بعض القتلى من العساكر خلال محاولة لمنع انتشار الاضطرابات أو إشعال الحرائق... وأخذت الأخبار على حذر في البداية، ووافقت على تشكيل مجلس عسكري ينعقد في مكان الحادث برئاسة البكباشي عبدالمنعم أمين لتظهر الحقيقة سافرة وأنا في دوامة من الحيرة. وصدر الحكم بإعدام العاملَين مصطفى خميس ومحمد البقري، وجاء لي الحكم بالتصديق.. وتوقفت. لن أصدق على حكم بالإعدام وحركتنا لم يمضِ عليها عشرات الأيام، وطلبت مقابلة

المتهمَين بعد أن أفصحت عن رأيي بصراحة، وأحاطتني تقارير مخيفة بأن أي تهاون في مواجهة العمال سوف يؤدي إلى انتشار الإضرابات والتظاهرات.. وكنت أعرف أن هذه التقارير كُتبت بأقلام رجال الأمن السابقين - البوليس السياسي - والذي غيرنا اسمه إلى المباحث العامة بعد الثورة. وحضر إلى مكتبي مصطفى خميس. دخل ثابتًا، وعندما رجوته أن يذكر لي عمّا إذا كان أحد حرضه لأجد مبررًا لتخفيف الحكم أجاب في شجاعة بأنه لا إنسان من ورائه، وأنه لم يرتكب ما يبرر الإعدام. وامتد الحوار نصف ساعة طلبت له فيها فنجانًا من الشاي، وكنت ألح عليه كما لو كان أخًا عزيزًا لكن دون فائدة، وخرج وقد أثقل الحزن قلبي بعد أن صدَّقت على الحكم»(81).

وهذا الكلام متناقض المعنى، لا يمكن أن يُعبر أبدًا عن رجل مسئول يعرف قيمة اتخاذ القرار، ويعي أن التورط في ظلم إنسان ـ يعلم هو يقينًا أنه مظلوم ـ أمر مُناقض للإنسانية، وأن طلب فنجان شاي لمظلوم في طريقه إلى الموت لهي نكتة سخيفة(80).

ويجمل نجيب موقفه بشأن الأحزاب محاولًا الإيحاء بأنه كان ضد حل الأحزاب، وأن القصة كلها تمت بتدبير من سليمان حافظ، نائب رئيس مجلس الدولة، الذي استعان به

جمال عبدالناصر لتقنين تصفيته للأحزاب.

ويزعم قائد الحركة في مذكراته أنه حاول إيقاف حل الأحزاب وفشل وأنه صرح للصحف بعدها بأنه إذا تم تطهير قواعد الأحزاب فستجري الانتخابات في فبراير 1953، وأنه مهما أحاط بقادة الأحزاب من شبهات، فإنها لا شك سليمة لأنها تشكل في مجموعها شعبنا العظيم(79).

وهذا الكلام يناقض ما تضمنه الكتاب التذكاري، من طعن ولمز في الأحزاب، بل ورؤية غريبة ترى أنها تعمل لمصلحة قادتها وحدهم.

ويمضي كتاب مذكرات محمد نجيب مُدعيًا اعتراضه على تحديد إقامة مصطفى النحاس، ثم اعتراضه على إعدام الضابط حسني الدمنهوري، وإصراره على تخفيف الحكم بإعدام إبراهيم عبدالهادي رئيس الوزراء الأسبق إلى الأشغال الشاقة المؤبدة، مُكررًا أن معظم الأحكام المشينة صدرت بدون علمه، ونُشر بعضها في الوقائع الرسمية دون أن يراها(78).

لكننا حتى مع هذا الطرح غير المنطقي، نعود للغة الرجل وخطبه وكلامه لنجد شخصًا آخر، لا يمكن أن يكون رقيقًا كما يدعي في مذكراته.

إن هناك شهادة ضرورية يقدمها لنا واحد من أنبل ضباط يوليو هو خالد محيي الدين في مذكراته يقول فيها: «إن الحقيقة التي أود أن أتوقف عندها وأسجلها للتاريخ هي أن نجيب قاوم بشدة مسألة إعلان الجمهورية، فهو رئيس مجلس الثورة المالك لسلطة السيادة، ورئيس الوزراء الممسك بزمام الأمور التنفيذية، وهو أيضًا القائد العام للقوات المسلحة صاحبة الثقل الأساسي في السلطة، وكان المشروع الذي قدمه جمال عبدالناصر وهو متحمس لإعلان قيام الجمهورية يقضي بأن يُعيَّن شخص آخر قائدًا عامًّا للقوات المسلحة. وقاوم نجيب بشدة»، ثم يقول: «والحقيقة أن نجيب كان من أنصار مد فترة الانتقال لأمد أطول بكثير من الثلاث سنوات، ولم يتحدث عن الديمقراطية، إلا فيما بعد، عندما بدأ يفقد سلطته. وكان نجيب منذ البداية قد أعد نفسه ليستمر حاكمًا»(77).

***

---

(90) أحمد مراد ـ تراب الماس ـ رواية ـ دار الشروق 2010.

(89) يتكرر هذا الطرح مع كل حاكم شاءت الأقدار له التنحي أو الغياب دون نظر أو اهتمام أو تحليل لقياس أدائه

فيما سبق لا ما كان ينتوي أن يؤديه.

(88) كان من الشائع لدى كثيرين أن محمد نجيب من أصول سودانية، والسبب في ذلك أن والده تزوج قبل تزوجه بوالدته من امرأة سودانية وأنجب منها أكبر أبنائه عباس، الذي توفي صغيرًا، لكن الثابت يقينًا أن والد نجيب من مدينة كفر الزيات بدلتا مصر.

(87) اللافت أن هناك كتابًا آخر لنجيب صدر عام 1955، بعنوان «مصير مصر» لكنه لم يشتهر نظرًا لمصادرته، وقد أجرى الكاتب الراحل صلاح عيسى قراءة واعية لحكايات نجيب في كتبه الثلاثة، وخلص إلى تناقضات صارخة.

(86) في الكتاب صور لا تحصى لمحمد نجيب، وهي بحالة جيدة تناسب وثيقة صادرة عن رئاسة الجمهورية، لكن من أندر صور الكتاب صورة له مع حاخام اليهود المصريين في ذلك الوقت حاييم ناحوم، وأخرى في ضريح حسن البنا، وواحدة وهو يحمل الفأس ويحفر في مشهد تمثيلي غريب.

(85) الغريب في الأمر أن محمد نجيب اعتبر نفسه مدافعًا عن الأحزاب وعلى رأسها حزب الوفد، وزعم في عدة روايات بعد ذلك أن التخلص منه كان بسبب تعاطفه مع الأحزاب!

(84) وبالمثل، فإن مَن يتابع مجلة «الدعوة»، لسان حال الإخوان المسلمين في ذلك الوقت، يجد تعاطفًا وتأييدًا قويًا من الإخوان للحركة المباركة، ونقرأ لبعض كوادر الإخوان وقتها مثل سيد قطب كتابات تحريضية لضباط يوليو ضد الأحزاب القائمة وعلى رأسها الوفد.

(83) سورة آل عمران، الآية: 26.

(82) سورة الفتح، الآية: 10.

(81) محمد نجيب ـ كلمتي للتاريخ ص 48 و49.

(80) نُفذ حكم الإعدام في مصطفى خميس يوم 7 سبتمبر سنة 1952 ويذكر أحمد شرف الدين في كتابه عن مذبحة كفر الدوار أنه قال قبيل إعدامه: «أشهد أن لا إله إلا الله. أنا مظلوم. المحامي طلب شهود ما جوش. أنا أريد إعادة محاكمتي. ده ظلم يا ناس. حاموت مظلوم. ورب العباد مظلوم..».

(79) محمد نجيب ـ المصدر السابق، ص 56.

(78) محمد نجيب ـ المصدر السابق، ص 68 و69.

(77) خالد محيي الدين ـ والآن أتكلم مركز الأهرام للنشر

1992، ص 225.

صلاح سالم.. الشارع الغلط

«إن صلاح سالم شخص غير قادرعلى الشغل.. وغير جدير به.. ويحب الكلام ويحسنه ولا يقوى على العمل».

جمال عبد الناصر في حديث لفتحي رضوان

- 1 -

تُخلِّد الأمم أبطالها بصناعة تماثيل لهم، وإصدار كتب عنهم، وإطلاق أسمائهم على الميادين الرئيسية والشوارع المهمة.

لكن في بلادنا ثمة أماكن عديدة تحمل أسماء لا تستحق التخليد. ببساطة شديدة لأنك لو انتزعتها من السياق التاريخي، لما تغير شيء، بل ربما يبدو المشهد أفضل.

ويُعد صلاح سالم أحد أبرز الأمثلة على ذلك، فرغم دوره في حركة يوليو، ورغم توليه عدة مناصب مهمة ومؤثرة في الخمسينيات، إلا أن الانطباع العام عنه شديد السلبية، حيث بدا الرجل متغطرسًا، متهورًا، عنيفًا، ومتسرعًا، وبلا أي خبرات حقيقية، حتى إنه كان خَصمًا من صورة ضباط يوليو، حتى في زمنه.

لقد باءت كل تجارب الرجل في المهام الوزارية التي أوكلت إليه بالفشل الذريع، ولم تخلُ شهادة تاريخية لرجال يوليو

من ظهور فاجع له، ليطل متبنيًا خيارات الشر، والحدة، والتهور، آمرًا بعنف، وناهيًا عن لين، مستمسكًا بدعوات الدموية، والتصفية، وممارسًا للأداء القاسي خارج نطاق الدستور، وبعيدًا عن القانون.

وحتى مذكراته التي صدرت ونشرتها مؤخرًا دار الكتب والوثائق القومية، لم تنجح في إضفاء جانب من العظمة على سيرته، فبدت رغم كبر حجمها(76) مفككة الترابط، لا تقدم تبريرات واضحة لأخطاء وتصرفات متهورة.

وهكذا، لم يكن منطقيًا أن يُطلَق اسمه على واحد من أهم شوارع مصر، ذلك الذي يمتد عبر أحياء مصر القديمة، السيدة عائشة، الأباجية، العباسية، وحتى مدينة نصر. لكن يبدو أن قانون المصادفات يلعب دورًا غريبًا في بعض الأحيان، فالرجل كان أول مَن رحل من أعضاء مجلس قيادة الثورة، وكان ذلك في عام 1962، عن عمر يقارب اثنين وأربعين سنة، وهو ما أثار حالة حزن عارمة لدى زملائه جميعًا من رفاق السلاح وعلى رأسهم رئيس الجمهورية وكبار رجال الدولة، وكانت محافظة القاهرة تعيد تطوير القاهرة وتمد طريقًا جديدًا يصل بينها وبين الجيزة.

من هنا، لم نجد أسماء لضباط آخرين عظام على شوارع وميادين القاهرة الكبرى، مثل يوسف صديق، وخالد محيي

الدين، وزكريا محيي الدين، وعبداللطيف بغدادي، وغيرهم رغم أهمية الأدوار التي لعبوها في نجاح الثورة.

كذلك، فإننا لا نجد أسماء ساسة عظام، ومفكرين وطنيين، وعباقرة نادرين على أي شارع يماثل صلاح سالم، فيكاد اسم مصطفى النحاس، رئيس الوزراء وزعيم الوفد قبل 1952 يختفي من القاهرة الكبرى إلا من شارع غير رئيسي في حي مدينة نصر.

كذلك فإن أسماء محمود فهمي النقراشي، وإبراهيم عبدالهادي، ومحمد حسين هيكل، ولطفي السيد، وعبدالرحمن فهمي، وفؤاد سراج الدين؛ تغيب تمامًا عن شوارعنا الرئيسية.

والأنكى من ذلك، أنه لا يوجد قانون منطقي لتسمية الأماكن، وحسبنا أن نعرف أن القاهرة كان فيها شارع يحمل اسم السلطان سليم الأول، الذي غزا مصر واحتلها سنة 1517، وظل كذلك حتى وقت قريب، رغم أنه أذل المصريين، وأعدم سلطانهم المحبوب طومان باي وعلّق جثمانه على باب زويلة.

كيف بقي اسم القاتل حاضرًا عقودًا طويلة على اسم شارع مهم كهذا؟ وكيف لم يلحظ مسئولون وقيادات محلية أن شارعًا يحتفي بطاغية متجبر احتل بلادنا وسامها خسفًا

وجورًا ونهبًا لثلاثة قرون؟ تلك أسئلة بلا إجابات؛ لأن العشوائية يمكن أن تفسر كثيرًا من الأمور حولنا.

خذوا مثلًا غريبًا آخر هو شارع الأشرف خليل بن قلاوون، فهذا السلطان المملوكي كان سفاحًا شهيرًا، قتل الأمراء كافة، وأقام مذابح في مصر والشام وعسف الناس إلى أقصى مدى؟ ويحكي لنا التاريخ نوادر عن مجونه وتهتكه وسخريته من الدين حتى إنه كان يجاهر بشرب الخمر في نهار رمضان، وهو ما دفع أحد رجاله لقتله ولم يهرب، وإنما وقف يستقبل المحاكمة بجرأة معلنًا أن السلطان كان يشرب الخمر في رمضان ويفسق بالمردان ولا يصح أن يحكم المسلمين.

ويُعد شارع قمبيز بحي مصر الجديدة من أبرز شوارع الغزاة في مصر، ويُنسب الشارع إلى الملك الفارسي الذي احتل مصر سنة 525 قبل الميلاد، وأقام مذبحة شهيرة لأهلها راح ضحيتها أكثر من ألفي مصري. كما أحرق معابد هيلوبوليس وهدمها، ونكل بجثة الفرعون المصري أحمس الثاني بعد دفنها.

كذلك يوجد في الإسكندرية شارع آخر باسم الملك الفارسي دارا، والذي خلف قمبيز وسار على نهجه في إذلال المصريين.

وجورًا ونهبًا لثلاثة قرون؟ تلك أسئلة بلا إجابات؛ لأن العشوائية يمكن أن تفسر كثيرًا من الأمور حولنا.

خذوا مثلًا غريبًا آخر هو شارع الأشرف خليل بن قلاوون، فهذا السلطان المملوكي كان سفاحًا شهيرًا، قتل الأمراء كافة، وأقام مذابح في مصر والشام وعسف الناس إلى أقصى مدى؟ ويحكي لنا التاريخ نوادر عن مجونه وتهتكه وسخريته من الدين حتى إنه كان يجاهر بشرب الخمر في نهار رمضان، وهو ما دفع أحد رجاله لقتله ولم يهرب، وإنما وقف يستقبل المحاكمة بجرأة معلنًا أن السلطان كان يشرب الخمر في رمضان ويفسق بالمردان ولا يصح أن يحكم المسلمين.

ويُعد شارع قمبيز بحي مصر الجديدة من أبرز شوارع الغزاة في مصر، ويُنسب الشارع إلى الملك الفارسي الذي احتل مصر سنة 525 قبل الميلاد، وأقام مذبحة شهيرة لأهلها راح ضحيتها أكثر من ألفي مصري. كما أحرق معابد هيلوبوليس وهدمها، ونكل بجثة الفرعون المصري أحمس الثاني بعد دفنها.

كذلك يوجد في الإسكندرية شارع آخر باسم الملك الفارسي دارا، والذي خلف قمبيز وسار على نهجه في إذلال المصريين.

وفي الإسكندرية أيضًا يوجد شارع باسم اللورد اللنبي القائد البريطاني الذي قاد فرقة عسكرية للاستيلاء على القدس ودمشق سنة 1917.

فضلًا عن شارع آخر باسم السير وينجت القائد العسكري البريطاني الذي غزا السودان، قبل أن يعمل معتمدًا بريطانيًا على مصر في ظل الاحتلال البغيض.

وفي ظل ضحالة البحث والفهم التاريخي، فقد تم إطلاق اسم الشيخ عبدالعزيز جاويش على أحد شوارع الجيزة، رغم أنه واحد من أبرز أبطال الفتنة الطائفية في مصر بامتياز، فهو مؤسس تيار التعصب الديني المُمنهج ضد الأقباط المصريين، وهو واحد من مناصري الخلافة العثمانية وله مقولة فاضحة لا يمكن نسيانها هي: «سنجعل من جلود القبط في مصر نعالًا ومن شعورهم حبالًا» (75).

فضلًا عن ذلك، فهناك شوارع بأسماء ساسة ومسئولين لعبوا أدوارًا ملتبسة ضد قضايا الحريات والديمقراطية، بل وضد الاستقلال الوطني، مثل محمد محمود، ومصطفى باشا فهمي، ونوبار باشا، وعدلي باشا، وغيرهم.

ويعني كل ذلك أن العشوائية هي الأساس الحاكم لأسماء الشوارع والأماكن في مصر. ولا عزاء لذلك.

***

- 2 -

لا تقدم سيرة صلاح سالم المنشورة والمعروفة لدى الباحثين أي نقاط ضوء، أو مواضع فخر، أو إشارة لدور إيجابي واضح في تاريخ مصر الحديث.

وطبقًا للبيانات الرسمية الخاصة به، والواردة في مذكراته، فإنه من مواليد عام 1920 في مدينة «سنكات» شرق السودان، حيث كان والده يعمل موظفًا هناك. وأمضى صلاح طفولته هناك وهو أمر معتاد في ظل كون مصر والسودان بلدًا واحدًا خاضعًا لملكٍ واحد. وتلقى الطفل الصغير تعليمه الأول في كتاتيب السودان، وكان معه شقيقه الأكبر جمال سالم، وعندما عادت الأسرة إلى القاهرة استكمل تعليمه في المدرسة، والتحق مثل شقيقه بالكلية الحربية وتخرَّج فيها سنة 1938، وعمره 18 سنة.

التحق صلاح سالم فيما بعد بكلية أركان الحرب، ودرس فيها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ثم تخرَّج فيها سنة 1948، وشارك في حرب فلسطين ضمن كتيبة القائد أحمد عبدالعزيز، الذي قُتل خطأ في الحرب بنيران صديقة.

وبدا الشاب المتقد حماسًا ووطنية، شديد الحزم،

والصرامة، وهو ما لفت إليه نظر جمال عبدالناصر، فضمَّه إلى تنظيم الضباط الأحرار، وكان في العريش عندما قامت الثورة في 23 يوليو، وطلب منه تأمين موقعه، لكنه عاد سريعًا إلى القاهرة ليُصبح أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة.

وكان «سالم» هو وشقيقه مَن تبنوا فكرة إعدام الملك فاروق، عقب تنازله عن الحكم، وخاضا نقاشًا طويلًا لتمريرها في اجتماعات مجلس قيادة الثورة، لكن ذكاء جمال عبدالناصر جعله يستفيد منه في تقديم نفسه بصورة القائد الحكيم، المتمرس، القادر على كبح جماح بعض أعضاء المجلس في أوقات صعبة، استنادًا إلى قدرته في امتصاص حماسه والسيطرة إنسانيًّا على غضبه.

ولما عُرف صلاح سالم بحبه الجم للحديث مع الصحف، فقد تولى وزارة الإرشاد القومي في 18 يونيو عام 1953، وكان أحد أذرع جمال عبدالناصر المباشرة في صراعه الخفي مع محمد نجيب، حتى تمت إزاحته في نوفمبر 1954.

ولا يوجد سبب واضح لفكرة تولي الرجل ملف السودان، بدءًا من 1953، إلا أن يكون ذلك بطلب وحماس منه، استنادًا لكونه من مواليد السودان ولديه خبرة عندما كان طفلًا هناك. وهكذا دخل صلاح سالم في مفاوضات مع الإنجليز الذين كانوا يسيطرون على السودان، وتوصل معهم

لاتفاق في 12 فبراير 1953 ينص على تحديد فترة انتقالية يتوافر فيها للسودان الحكم الذاتي، ليتم بعدها تأليف جمعية تأسيسية عن طريق الانتخاب تختار إما ارتباط السودان بمصر على أي صورة أو الاستقلال التام والانفصال. والمثير في الأمر أنه ذهب إلى قبائل سودانية وظهر في صورة فوتوغرافية وهو يرقص معهم عاريًا، لكن ذلك لم يكن له أي مردود، وقرر السودانيون في الاستفتاء على الاستقلال، انفصال بلادهم عن مصر، ما دفعه إلى تقديم استقالته في نهاية أغسطس 1955.

ولم يلبث أن عاد صلاح سالم إلى منصبه مرة أخرى بعد أن حاول جمال عبدالناصر استرضاءه، لكنه اتخذ موقفًا شديد الغرابة عقب وقوع العدوان الثلاثي، عندما طالب جمال عبدالناصر بتسليم نفسه للسفير البريطاني، ودعا إلى استسلام مصر.

ومرض صلاح سالم بالفشل الكلوي، ثم أُصيب بالسرطان، وظل لا يعمل حتى زاره جمال عبدالناصر عام 1958 وقام بتعيينه رئيسًا لمجلس إدارة جريدة الجمهورية، ثم اختير بعدها نقيبًا للصحفيين، في أغرب واقعة تخص الصحافة المصرية في تاريخها.

ورحل صلاح سالم في 18 فبراير عام 1962، وكان أول

أعضاء مجلس قيادة الثورة رحيلًا، وسار في جنازته أعضاء المجلس كافة، وبعد الجنازة سُمح للرئيس السابق محمد نجيب بالخروج من مكان تحديد إقامته لزيارة جمال سالم، وتقديم العزاء.

***

-3-

ثمة واقعة غريبة تدلل على جوانب من شخصية صلاح سالم تعود للأيام الأولى من ثورة يوليو يحكيها ضابط شاب، وقتها، هو جمال القاضي(74).

تقول الواقعة إن صلاح سالم كان يقود سيارته الجيب متجهًا إلى منشية البكري لحضور أحد الاجتماعات المهمة، وأثناء مروره في ميدان باب الحديد فوجئ بسيارة يقودها رجل وتجلس خلفه سيدة حسناء، ولاحظ صلاح انحراف السيارة حتى احتكت بسيارته. فتوقف فجأة وصاح في السائق: «مش تحاسبوا».

وفوجئ صلاح سالم بسائق السيارة يوجِّه له بعض الشتائم، ثم انطلق بالسيارة، ما أجَّج من غضبه فطارد بسيارته سيارة الحسناء حتى وقفت أمام محل اسمه الزعبلاوي، ونزلت السيدة، لكن صلاح سالم جرى خلفها وعاتبها.

ويبدو أنه لم يكن يعرف أن هذه السيدة هي الممثلة الشهيرة نعيمة عاكف، كما أنها لم تكن تعلم أنه واحد من القيادات الجديدة للحكم، وهكذا فقد احتدت المشادة بينهما، ووصل الأمر إلى تبادل السباب، فما كان من صلاح سالم سوى أن قام بصفعها على وجهها. وفوجئ صلاح سالم بالسيدة وهي تحاول الإمساك به وضربه، وأسرع الزبائن الموجودون وصاحب المحل لتهدئتهم، وعرف صاحب المحل صلاح سالم فذهب إلى نعيمة عاكف يقول بارتياع: «هتودي نفسك في داهية.. ده صلاح سالم بتاع الثورة يا ست نعيمة».

وانهارت نعيمة وبكت، وحاول الزبائن الموجودون الاعتداء عليها بعد أن عرفوا شخصية الرجل، لكن صلاح سالم صاح فيهم جميعًا وأمرهم بالانصراف. واتصل صلاح سالم بجمال القاضي وأخبره بأنه أُهين، وأُهينت الثورة، فقال له إنه سيأتي إليه. وقبل تحركه اتصل القاضي بأحمد أنور مدير البوليس الحربي وأخبره، فقال له: «تصرف بما يرضي صلاح سالم».

وفي اليوم التالي أرسل البوليس الحربي سيارة لإحضار الممثلة نعيمة عاكف من منزلها، ورفضوا أن يصاحبها زوجها المخرج حسين فوزي، وتم وضعها في غرفة رئيس المباحث

الجنائية، وظلت جالسة هناك وحيدة وهي تبكي.

ودخل عليها جمال القاضي، وقالت له إنها لم تكن تعرف أن الشخص الواقف أمامها هو صلاح سالم.

وقال لها جمال القاضي: «حضرتك غلطتي في الصاغ صلاح سالم وده عضو مجلس قيادة الثورة وله سلطة السيادة، وهو مصمم على تقديمك للمحاكمة واحنا بنتحايل عليه لكنه مصمم على موقفه».

فازداد بكاء الممثلة وهي تقول: «يا سعادة البيه اللي ما يعرفك يجهلك، أنا مكنتش أعرف.. سواقي اللي شتمه ولما سعادة البيه حاول يوقف عربيتنا ونزل ورايا المحل افتكرته واحد قليل أدب جاي يعاكسني وحصل اللي حصل»..

وقال جمال القاضي: «إحنا هنسيب الموضوع شوية لغاية ما صلاح يهدى والمشكلة إن شاء الله هتتحل».

وقالت: «طب أقدر أمشي دلوقتي؟»

فرد القاضي: «لا طبعًا. هتفضلي معانا لحد ما نشوف هنعمل إيه».

وأرسل جمال القاضي ليشتري لها كبابًا لتأكل، لكنها رفضت الطعام، وظلت منتظرة حتى الساعة الرابعة عصرًا، وكان

مجلس قيادة الثورة مجتمعًا بكامل أعضائه، وفكر جمال القاضي في حيلة لحل المشكلة، فطلب من الممثلة أن تكتب اعتذارًا رسميًا لصلاح سالم ليقدمه له خلال الاجتماع فيعرف بالحكاية أعضاء مجلس قيادة الثورة ويضغطون عليه فيقبل باعتذارها، وكانت المفاجأة أن نعيمة عاكف لا تعرف الكتابة.

واقترح عليها جمال القاضي أن يمسك بيدها لتكتب على الورقة بتحريك يدها صيغة الاعتذار، وبالفعل كتبت الممثلة: «عزيزي صلاح سالم.. بكل دقة في قلبي وكل شعرة في رمش عيني باعتذر لك وباقولك آسفة جدًّا وحقك عليّا، وما تزعلش مني، ويا بخت من قِدر وعفي وسامح. والترضية اللي تؤمر بها أنا تحت أمرك، ومرة تانية سامحني».

وأخذ القاضي الورقة ودخل بها إلى مجلس قيادة الثورة، وسأله جمال عبدالناصر عن القصة فانحنى على أذنه وأخبره بأن الممثلة كتبت رسالة اعتذار لصلاح سالم، وقال له جمال عبدالناصر: «افرج عنها».

ثم قرأ خطاب الاعتذار وضحك كثيرًا، فسأله عبدالحكيم عامر عمّا يُضحكه فأعطاه الخطاب، فأخذ يقهقه في هستيريا، والتفت صلاح سالم إلى جمال القاضي ونهره وقال له: «إيه الكلام الفارغ ده؟ إزاي تقطع اجتماعنا عشان الكلام الفارغ ده بتاع الست نعيمة».

ثم انفجر جميع الحاضرين في الضحك، وكذلك فعل صلاح سالم نفسه، وقال له جمال عبدالناصر: «خلاص بقى يا صلاح.. الست اعتذرت لك وبتستحلفك بكل شعرة في رموش عينيها».

والحكاية برمتها تُدلل على شعور صلاح سالم بالغطرسة لكونه أحد الذين شاء القدر أن يجلسوا في اجتماعات لإدارة شئون مصر بعد طرد الملك فاروق، وتلك الغطرسة تدفعه لأن يعتبر إهانته من ممثلة، لا تجيد القراءة والكتابة، إهانة للثورة كلها، وكأن شعوره بنفسه يجعله يشعر بأنه الثورة نفسها، رغم أنه كان في العريش عندما تحرك الضباط الأحرار للاستيلاء على السلطة.

كذلك فهي تحمل جانبًا يُجافي النبل والشهامة الإنسانية، إذ كيف يتقبل رجل شرقي، يُفترض أنه رمز للفداء والبطولة، حبس سيدة ـ بدون رجل ـ في مكتب بالساعات الطويلة لا لشيء سوى لأنها اشتبكت معه في مشادة بسبب تقارب سيارته لسيارتها!

ثم ما هي السمات التي يعرفها جميع المحيطين بصلاح سالم عنه، والتي تدفعهم ليحاولوا استرضاءه وامتصاص غضبه إلى هذا الحد؟ ما يدعو أحمد أنور إلى إرسال بوليس مصر الحربي، ليقبض على ممثلة وراقصة لأنها أغضبت

الرجل حاد المزاج؟ وما يدعو جمال القاضي نفسه إلى البحث عن محاولة استرضاء لصلاح سالم ولجوئه لحيلة الاعتذار، وتوسُّط جمال عبدالناصر وأعضاء مجلس قيادة الثورة للإفراج عن الممثلة؟

إن قراءة منصفة للواقعة تُبرز ما سبق أن ذكره كل مَن عرف صلاح سالم بأنه كان رجلًا حاد المزاج، سريع الغضب، مُسيء للناس، وغير قادر على التفاهم مع أحد، حتى مع زملائه(73).

***

- 4 -

زهو صلاح سالم بالسلطة دفعه أن يدخل في قصة غرام مع إحدى أميرات الأسرة المالكة. بالطبع، فمن حق الرجل أن يحب مَن يشاء ويرتبط بمَن يريد، لكن أن يخلط هذا الرجل بين العام والخاص، وأن يجعل علاقته الغرامية أوْلَى من سياسات وتوجهات نظام حكم يطارد ثروات العهد الماضي، فهو ما لا يُقبل سياسيًّا.

يكشف الكاتب الراحل موسى صبري(72) علاقة صلاح سالم بإحدى أميرات الأسرة المالكة التي ثار الضباط ضدها، وهي الأميرة فايزة، ويقول عن ذلك: «في أحد الأيام، نما إلى

علم جمال عبدالناصر أن صلاح سالم على علاقة غرامية بالأميرة فايزة شقيقة الملك فاروق، وسأل صلاح سالم عن الحقيقة، وروى له الحكاية التي بدأت حين حضر لزيارته الطيار عمر الجمال، وأبلغه شكوى من الأميرة فايزة على لسان صديق له بأن ضابطًا شابًا ذهب لتفتيش قصرها، ووجّه لها إهانات بالغة، وفتّش في ملابسها الداخلية، وعبث بها أمامها. وقال عمر الجمال لصلاح سالم إن الثورة لا تعني إهانة الناس، وحقق صلاح سالم، وأوقع عقابًا على الضابط، وجاءت الأميرة فايزة لتشكره».

وهنا فقد بدأت علاقة الصداقة، بين أميرة من أسرة مالكة تنحسر عنها السلطة ويغادرها الألق، وبين شاب فتي يرى نفسه أحد أصحاب السلطة في البلاد، وكان من الطبيعي أن تتحول مع الوقت إلى قصة غرام ملتهبة، ربما يستخدمها بعض ضباط يوليو كأداة ضغط ضد زميلهم المعروف بعصبيته وحِدَّة مزاجه.

ويحكي موسى صبري كيف كان صلاح سالم يذهب للقاء الأميرة بالسيارة الجيب العسكرية المخصصة له، باعتباره عضو مجلس قيادة الثورة، وقد عاتبه جمال عبدالناصر على ذلك؛ لأن السيارة معروفة بأنها سيارة عسكرية، وقد يثير ذلك اللغط لدى الناس ويشوه صورة مجلس قيادة الثورة.

وفي يوم من الأيام فوجئ صلاح سالم بقرار منشور في الصحف بمصادرة كل أملاك أسرة محمد علي، ولم يكن صلاح سالم يعرف شيئًا عن هذا القرار. ويبدو أنه غضب أن يصدر القرار دون الرجوع إليه، فذهب لجمال عبدالناصر وسأله محتدًّا: «كيف يصدر القرار دون أن أعرف؟» فأجابه جمال عبدالناصر: «خشيت أن تُبلغ به الأميرة فايزة».

لكن على الرغم من ذلك، فقد تفجّرت أزمة حادة عندما أكد تقرير لجنة الجرد لقصر الأميرة فايزة، بأنه لا يحوي أي مجوهرات أو مشغولات ثمينة، وهو ما كان مستحيلًا في نظر البعض. وهنا فقد بدا أن هناك لاعبًا ما وضع أو شارك في وضع هذا التقرير، وأمّن للأميرة الإفلات من قرار مصادرة أموالها ونجاحها في تهريب مصوغاتها.

ويبدو أن ذلك كان سببًا في تشكُّك جمال عبدالناصر الدائم في صلاح سالم، وفي فقدانه لثقته، ما جعل رأيه فيه فيما بعد شديد السلبية.

ويورد فتحي رضوان ذلك الرأي مشيرًا إلى أن جمال عبدالناصر كان كثيرًا ما يعتبر جمال سالم ـ شقيق صلاح الأكبر وعضو قيادة الثورة ـ شخصًا محل ثقة، مرددًا عنه صفة: «رجل بجد»، لكنه كان يرى صلاح سالم شخصًا «غير قادرعلى الشغل، وغير جدير به، ويحب الكلام ويحسنه ولا

يقوى على العمل»(71).

ولا شك أن رأي جمال عبدالناصر في صلاح سالم كان يستدعي بالضرورة عدم توليه مهام كبرى للبلاد، اقتناعًا بأنه لن يكون قادرًا على إتمامها، لكنها السياسة التي قد تدفع دومًا بلاعبيها أن يُرجحوا اختيارًا خاطئًا في سبيل إرضاء شخص ما.

والثابت أن رأي جمال عبدالناصر في صلاح سالم كان متفقًا عليه لدى معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة، حتى إن أكثرهم ثقافة واطلاعًا، وهو خالد محيي الدين، تحدَّث بصراحة ووضوح عن صلاح سالم فقال: «صلاح سالم صاحب ذكاء فطري، عاطفي إلى درجة كبيرة، ينتقل بعاطفته من النقيض إلى النقيض، بسرعة مثيرة للارتباك، متفتح، واقعي. وكان تقلبه العاطفي يقوده إلى تقلب سياسي أيضًا، فبعد أن فشلت جهوده في السودان من أجل الوحده، وبعد أن استقل السودان، قرأ كتابين للينين عن المسألة الوطنية وأهمية حق تقرير المصير للشعوب، وتأثر بهما لدرجة أنه فاجأني بعد عودتي من المنفى وخلافه مع جمال عبدالناصر، وقال لي: والله بدأت أقتنع بكلامك. وقربت أبقى شيوعي»(70).

***

- 5 -

والملاحظ أن صلاح سالم هو وشقيقه جمال سالم لعبا دورًا بالغ التأثير في التخلص من محمد نجيب. وتزخر شهادات الضباط الأحرار بحكايات متعددة حول اقتراحات جمال سالم بتصفية محمد نجيب تمامًا، أو سخريته هو وشقيقه صلاح في كثير من اجتماعات مجلس قيادة الثورة.

ويبدو أن صلاح سالم كان قد أدرك مبكرًا ميل الكفة ضد نجيب فلم يعُد يعيره أي اهتمام عندما كان الأول يشغل منصب وزير الإرشاد، وكان الثاني رئيسًا للجمهورية. بدأ الأمر بتجاهل إذاعة خطب نجيب في الإذاعة والصحف، ثم اتسع الأمر للسخرية منه في اجتماعات القيادة.

يحكي فتحي رضوان أنه في أحد الأيام زار نجيب وحدة من وحدات الجيش، وتحدث عن ضيقه ببعض إجراءات الكبت التي تعاني منها البلاد، وقال إنه يؤمن بوجوب إطلاق الحريات، وبلغ الأمر زملاءه في قيادة الثورة، فلما عاد إلى مجلس الوزراء صاح فيه جمال سالم: «أهلًا وسهلًا ميرابو. إزيك يا سي ميرابو. حرية إيه اللي عاوزها». وسارع صلاح سالم فانضم لشقيقه في الهجوم على نجيب ولم يتوقف صياحهما إلا بعد وقت غير قليل(69).

وعلى حد تعبير فتحي رضوان، فإن صلاح سالم أطلق في نجيب أقذع الأوصاف، حتى صارت متداولة بين أعضاء مجلس القيادة(68).

وطبقًا لمذكرات خالد محيي الدين، فقد أصر صلاح سالم مبكرًا على إذاعة بيان إعفاء محمد نجيب في الإذاعة، ما أوجد أزمة حادة لدى الشارع، وصلت إلى أن أبناء صلاح أنفسهم غضبوا عليه محبة لنجيب. الأكثر من ذلك أنه ـ خالد ـ سمع حوارًا يدور في أحد المقاهي بين الناس فور إذاعة صلاح سالم للبيان، الذي حشر فيه تبريرات واهية وسخيفة؛ مفاده استياء من الضباط الذين خلعوا الرجل الطيب(67).

وفي مرات عديدة يرد اسم صلاح سالم كمحرِّض ومناهض وشديد العداء لمحمد نجيب، حتى إنه عرض على زملائه يومًا اعتقال خالد محيي الدين نفسه؛ لأنه يقف في الضفة ذاتها التي يقف فيها نجيب.

ويحاول محمد جلال كشك أن يضع يده على سبب عداء صلاح سالم الشديد لمحمد نجيب فيقول: «إن صلاح سالم شخصية دستوفسكية، حاد الذكاء مع قليل من الجنون الوراثي، وكان أكثر بروزًا من شقيقه جمال سالم، متحدثًا ساخرًا لاذعًا مع كثير من البذاءة والقسوة في النقد، وطنيًّا متطرفًا، مع ضحالة سياسية أدت إلى سعيه للثقافة فسقط

في مستنقع الشيوعية، وتولت السفارة السوفيتية تثقيفه.. وصلاح سالم شديد الطموح، رأى نفسه في مخدع الأميرة فايزة، ومرشحًا لرئاسة الجمهورية الاتحادية لمصر والسودان، واعتبر كما يقول أحمد حمروش أن محمد نجيب هو منافسه على هذا المنصب، أو هكذا أوحى إليه جمال عبدالناصر، ومن ثم استخدمه في تصفية محمد نجيب فأفحش في ذلك»(66).

إن محمد نجيب نفسه يشير في مذكراته إلى أنه ذهب - بعد إعفائه والتحفظ عليه - إلى جمال سالم ليعزيه في وفاة صلاح سالم، وأنه سأله: «مَن أنت؟» ثم أبدى اندهاشه من قيامه بالعزاء في صلاح سالم، مطالبًا إيَّاه أن يسامحهما. فالشيطان (يقصد وفقًا لرواية نجيب جمال عبدالناصر) هو مَن أجَّج غضبهما تجاهه! وتلك قصة أخرى، لكنها تشير فيما تشير إلى أن صلاح سالم لم يكن نبيلًا كما يليق بثائر.

***

- 6 -

وتبقى أهم دلائل فشل صلاح سالم السياسي في إدارته لقضية السودان، وهي قضية يناقشها بشيء من التفصيل محمد جلال كشك في كتابه «كلمتي للمغفلين»، فيشير إلى

أنهم عهدوا إليه بقضية السودان كنوع من الإلهاء له، وحتى يتم حرقه تمامًا، وعندما فشل اضطروه إلى الاستقالة(65).

ويرى المحلل السياسي محمد عريف أن الصبغة العسكرية المسيطرة على صلاح سالم خلال تعامله في قضية السودان كانت وراء ضياعها، إذ بدت تصرفاته مجموعة من الأفعال العنترية غير المنطقية وغير المدروسة، ما أدى في النهاية إلى انفصال البلدين تمامًا(64).

لقد كانت السودان هي دومًا الصخرة التي تتحطم عليها المفاوضات المصرية - البريطانية، فالنظرة التي توارثتها الحكومات المصرية المتعاقبة حتى 1952 هي أن السودان جزء لا يتجزأ من مصر.

وبعد حادثة مقتل السير ستاك، سردار الجيش البريطاني في السودان في 19 نوفمبر 1924 كان من ضمن المطالب التي قدمتها بريطانيا لسعد زغلول رئيس وزراء مصر وقتها، أن يتم سحب الجيش المصري من السودان، ورفض سعد بشدة، وأصدر مجلس النواب المصري بيانًا يعلن تمسكه التام بالاستقلال لمصر والسودان اللذين يكونان وطنًا واحدًا لا يقبل التجزئه. وكانت السودان جزءًا من مصر، ما دفع فؤاد سراج الدين أن يقول يومًا: «إن فكرة الاستفتاء مستبعدة ومرفوضة؛ لأنه لا يمكن إقرار استفتاء لأسيوط مثلًا».

واستمر هذا المفهوم سائدًا حتى إن حكومات مصر قبل 1952 ظلت تربط بين مسألتي الجلاء والسودان، بينما كان الجانب البريطاني يصرعلى فصل كل من المسألتين عن الأخرى.

ويقول محمد عريف إنه في مفاوضات (صلاح الدين - بيفين)، فاجأ صلاح الدين الحكومة الوفدية في يناير 1952 قبل سفره لحضور اجتماعات عصبة الأمم بأنه يريد إلقاء قنبلة يتحدى بها البريطانيين على أساس قبول الاستفتاء إذا خرج الموظفون البريطانيون من السودان، ورفضت حكومة الوفد، وتراجع صلاح الدين، ولكن الوزارة فوجئت بخطابه يوم 23 يناير 1952 يطلب نفس ما قاله سابقًا، واجتمع مجلس الوزراء واتهمه الدكتور طه حسين وزير التعليم بالخيانة الوطنية العظمى، وطالب بمحاكمته وعزله من منصبه وطلب مصطفى النحاس استدعاءه على أول طائرة، ولكنه وصل يوم 27 يناير بعد إقالة الحكومة الوفدية.

وقامت حكومة الوفد الأخيرة برئاسة النحاس بإصدار مرسوم إعلان الملك فاروق ملكًا لمصر والسودان، فأصبح نصًّا دستوريًّا، كما ألحقت ذلك بالقانون رقم 177 لسنة 1951 بمنح الحكم الذاتي الكامل للسودان، وقد ورد به: «أن يكون للسودان دستور خاص، تعده جمعية تأسيسة، وإنشاء

مجلس وزراء من أهل السودان، ويتولى الملك سلطته بواسطة وزرائه، وتقرير مسئولية الوزراء متضامنين لدى الهيئة النيابية، أو لدى المجلس المنتخب على الأقل، عن السياسة العامة للوزارة، وكل منهم من أعمال وزارته».

وفي 24 إبريل 1951 حددت حكومة الوفد من ضمن مطالب مصر وحدة مصر والسودان تحت التاج المصري، وتمتع السودانيون في نطاق هذه الوحدة وفي مدى عامين بالحكم الذاتي.

وبعد قيام 23 يوليو 1952 اختار مجلس القيادة أربعة من أعضائه للإشراف على الجيش المصري، وهم: اللواء محمد نجيب، والصاغ عبدالحكيم عامر، والصاغ كمال الدين حسين، والصاغ صلاح سالم الذي أُسندت إليه شئون الجيش المصري في السودان، ومن هنا بدأ ارتباطه بقضية السودان.

وبدأ تدفق الوفود السودانية إلى مصر في محاولة لمعرفة الحكام الجدد وتوجهاتهم، والذين لم يكن من بينهم مَن هو معروف للسودانيين سوى اللواء محمد نجيب، وفي ذلك الوقت كان حسين ذو الفقار صبري يعمل أركان حرب للقوات المصرية في السودان، وعمل على الاتصال بالقيادة في القاهرة؛ لمعرفة موقف القادة الجدد من السودان، وخصوصًا صلاح سالم الذي وكلت إليه أمور السودان. وذكر صبري أنه

شعر بعدم أهمية السودان للقادة الجدد الذين انصرفوا نحو تأمين أوضاعهم الداخلية، ولكنه عاود الاتصال به في إلحاح، وقام حسين صبري بإبلاغ صلاح سالم بخطورة الموقف في السودان مؤكدًا أن 8 فبراير آخر موعد لإبلاغ الحاكم العام رأي مصر في دستور الحكم الذاتي في السودان، ودار حوار طريف بين الاثنين، قال صلاح سالم فيه: «لا نجد وقتًا لنستحم»، فرد عليه حسين صبري قائلًا: «دع القيادة تتخذ إجراءً؛ فالمسألة خطيرة وضياع السودان يعني ضياع ماء النيل».

ويبدو أن صلاح سالم أراد التخلص من إلحاح حسين صبري ففوضه في الاتصال بالأحزاب والشخصيات السودانية.

وبالفعل قابل حسين صبري رجال الأحزاب والهيئات السودانية، وكتب تقريرًا بذلك وطار إلى القاهرة ليعرض الوضع على مجلس قيادة الثورة، لكنه وجد كل الأبواب موصدة في وجهه، فأغلب الأعضاء كانوا يبدون مشغولين كثيرًا لدرجة عدم الاهتمام.

ويقول الرجل: «إن جمال سالم كان ينصت لدقيقة أو اثنتين، ثم فجأة يتحرك مبتعدًا بعد بعض الوعود الفاترة بأن يُقنع أخاه صلاح سالم بالاهتمام بالأمر، وكان البغدادي يؤكد

لي أنه لن يتوانى عن دفع المجلس إلى الاستماع فور أن يصبح ذلك ممكنًا، وحاولت مرة الانفراد بصلاح سالم، وقد شعرت بأنه قد وكل إليه التصرف في الشئون السودانية وتفرعاتها جميعًا - فأشرح له ما اشتملت عليه مذكرتي من خطوط عامة، ولكنه في عجلة من أمره وصل متأخرًا إلى مبنى القيادة، وقد سبقه زملاؤه إلى قاعة الاجتماعات، فهو حريص على المسارعة حتى لا تتخذ إجراءات خلال غيابه».

ويواصل الرجل حاكيًا عن صلاح سالم: «قلب أوراق المذكرة التي سهرت الليالي في تدبيجها، أدفع بها إليه مستجديًا، أتشبث بشخصه خشية أن ينفلت، وتمضي أيام، ثم أسبوع تلو أسبوع، وأنا ذاهب آتٍ من المجلس وإليه، وعدت أدراجي إلى المنزل وقد تملكني ضيق، فمتى ثم متى سوف أتمكن من إثارة موضوع السودان، موضوع مرتبط أشد الارتباط بمصالح مصر الحيوية على المدى البعيد، فأين منه تلك المشاكل الطارئة التي استحوذت على كل هذه الاهتمامات؟ أما كان يمكن إرجاؤها».

وبعد تدفق الوفود السودانية إلى القاهرة في محاولات للاتصال بالحكام الجدد، تم استدعاء حسين ذو الفقار للمثول أمام مجلس القيادة وعرض تقريره، وكان أهم ما اشتمل عليه من نقاط:

• عرض نتائج اتصالاته بالهيئات السودانية جميعًا، مع تحليل للاتجاهات التي تحرك سياستها، ثم ما يطرأ على تلك الجبهات إذا جوبهت بمشروع دستور الحكم الذاتي.

• طالب بحق تقرير المصير للسودانيين، ولكن في حرية تامة يظللها مناخ من حيدة مطلقة، وهذا لا يتأتى إلا بتقييد سلطان الحاكم العام البريطاني، وأن تخضع الانتخابات المقبلة لإشراف دولي قادر على التصدي لتدخلات الأجهزة الإدارية البريطانية الموجودة في أقاليم السودان.

• سودنة الإدارة في السودان، ورأى التقرير أنها من الدعائم الرئيسية اللازمة لإقرار حكم ذاتي سليم، كما أنها الخطوة التي سوف تمكن مصر من ضرب النفوذ البريطاني في السودان.

• رفض فكرة الاستفتاء في السودان حول مستقبل علاقاته مع مصر، وذلك لأن هذا الاقتراح ينطوي على الكثير من القيود والأخطار، وإجراء الاستفتاء في المناطق البعيدة المترامية ما كان ليهيئ الفرص لإقناع الأفراد بالحجج والبراهين، ذلك لأن معظمهم واقع تحت مؤثرات محلية طاغية.

وعمل صلاح سالم على التمهيد للناس حتى يتقبلوا هذا التغيير، وكانت الوسيلة في ذلك الصحافة، فكتبت الصحف

المصرية التي أصبحت موجهة من مجلس القيادة المقالات والتحليلات في هذا الأمر.

بعد إعلان المذكرة المصرية طار صلاح سالم وحسين ذو الفقار صبري إلى السودان للحصول على تأييد الأحزاب السودانية للمذكرة المصرية، والتقيا بقادة تلك الأحزاب، ولكنهما استُدعيا سريعًا للقاهرة، لتحديد موعد بدء المفاوضات مع الجانب البريطاني.

أثناء تلك الزيارة التقى صلاح سالم وحسين صبري مستشار السفارة البريطانية في الخرطوم وأبلغاه أن النظام الجديد يقدم فكرة جديدة تمامًا عن السودان، وقد تخلى عن شعار وحدة وادي النيل، ويعمل على استقلال السودان استقلالًا حقيقيًا.

ولم يستطع السفير البريطاني في القاهرة أن يكتم سعادته بما جاء في المذكرة، وأبرق إلى لندن يقول: «أرى من الضرورة الاستفادة إلى أقصى حد من شجاعة اللواء محمد نجيب وبراعته كرجل دولة، في تغيير مسار السياسة المصرية، الذائعة الصيت، حول وحدة وادي النيل تحت التاج المصري».

بدأت المباحثات المصرية البريطانية حول السودان في 20 نوفمبر 1952 وتشكل الوفد المصري برئاسة محمد

نجيب وعضوية صلاح سالم وحسين ذو الفقار صبري والدكتور محمود فوزي والدكتور حامد سلطان وعلي زين العابدين، بينما كان الوفد البريطاني مكونًا من سير رالف ستيفنسون ومستر كووزويل الوزير المفوض ومستر باورز السكرتير الأول بالسفارة.

بعد انتهاء الجولة الأولى من المفاوضات بين الطرفين، سافر صلاح سالم إلى السودان، ونجح في الحصول على موافقة الأحزاب المتمركزة رئاستها في الشمال على نصوص المذكرة المصرية، في صلب وثيقة موحدة، تم توقيعها في 10 يناير 1953 بعد إدخال تعديلات قليلة عليها، كما حصل على توقيعات الجنوبيين أثناء رحلته إلى الجنوب، ووقع الجميع على الوثيقة الموحدة، في الوقت ذاته عمل صلاح سالم على جمع الأحزاب الوحدوية في حزب واحد هو الحزب الاتحادي.

وبعد مفاوضات استمرت عدة جلسات وقِّعت اتفاقية تقرير مصير السودان بين مصر وبريطانيا، يوم الخميس 12 فبراير 1953، وقَّع الاتفاقية عن مصر محمد نجيب، وعن الجانب البريطاني رالف ستيفنسون، ونصَّت على وجود فترة انتقالية مدتها ثلاث سنوات، يتم فيها تصفية الإدارة الثنائية الأنجلو مصرية، مع تأليف جمعية تأسيسية منتخبة لتقرير مصير

السودان على أساس الارتباط مع مصر أو الاستقلال التام.

وهكذا أُجريت أول انتخابات سودانية في ظل الاتفاقية، وفاز الحزب الوطني الاتحادي برئاسة إسماعيل الأزهري بأغلبية ساحقة، وتولى الأزهري رئاسة أول وزارة سودانية يوم 9 يناير 1954، وساءت الأحوال بين الأزهري وصلاح سالم، وتحول من الخط الوحدوي إلى المطالبة بالاستقلال عن مصر.

على الجانب المصري، بدأ صلاح سالم يتعرض لهجمات زملائه، بل وبعض ضباط الصف الثاني، وهو الذي كان عنيفًا في هجومه على محمد نجيب، وبدأ مجلس القيادة يحاصر صلاح سالم، وانتقد عبدالناصر سياسة سالم في التعامل مع الزعماء السياسيين السودانيين بأسلوب غلبت عليه روح المنفعة الذاتية، وتقدم صلاح سالم باستقالته للمرة الثانية في سبتمبر 1955، وقبلها المجلس فورًا.

وأُعلن قيام الجمهورية السودانية في 19 ديسمبر 1955، وتشكيل مجلس قيادة لرئاسة الدولة، وأعلن مجلس قيادة الثورة في مصر استقلال السودان رسميًا في أول يناير 1956، وفي تقدير محمد عريف، فقد ارتُكبت العشرات من الأخطاء التي أدت في النهاية إلى الانفصال بين مصر والسودان، ويُعتبر صلاح سالم مسئولًا عن بعضها، ومجلس

القيادة عن بعضها الآخر، ومن هذه الأخطاء:

• أن مجلس القيادة في مصر كان مشغولًا بأمور أخرى كثيرة بعيدًا عن السودان، وفي الاجتماعات كانت ظروف العمل في مجلس القيادة لا تسمح كثيرًا بالمناقشة أو المتابعة الدءوبة، وكانت ثقافة هؤلاء الضباط عسكرية، لم تكن لتؤهلهم لتولي أعمال مدنية، ومسئولية قضايا كبرى ذات أبعاد دولية مثل قضية السودان، وهو أمر يحتاج منذ البداية إلى تنظيم علمي دقيق، وهو ما لم يكن متاحًا لهم.

• كذلك فقد تعامل صلاح سالم في مقابلاته مع بعض زعماء السودان بأسلوب الضباط وليس بأسلوب السياسيين.

ونجد حسين ذو الفقار صبري يصف تصرفات صلاح سالم في أكثر من موضع بقوله: «أصبح صلاح سالم في عجلة من أمره، فينعكس ذلك بآثار على مناخ الاتصالات، تتوتر أعصابه من جهة، فيفقد أسلوبه تلك السلاسة التي كانت حتى اللحظة تستميل الأسماع. كما بذرت الشكوك في نفوس ممثلي الأحزاب، إذ يلجأ صلاح سالم إلى الحث، وإلى صنوف من إلحاح دونما فرصة لإمهال».

كما لجأ صلاح سالم في كثير من الأحيان إلى سياسة الإعانات المالية لتوزيعها على الأحزاب والشخصيات السودانية، وهو ما أثار اعتراضات البعض على ذلك، ولكنه

سار في طريقه غير عابئ باعتراضات، وسياسة توزيع الأموال على السياسيين كانت في أغلبها مفسدة، وأدت لانهيار السياسة المصرية في السودان، ولوصم المتعاملين مع مصر بالرشوة.

وهكذا ضاعت السودان..

***

-7-

حاول صلاح سالم الدفاع عن نفسه في قضية السودان فكتب مذكرات، نشرتها الصحف وجمعتها فيما بعد هيئة الوثائق القومية في كتاب، لكنها كانت أشبه بعريضة محامٍ مبتدئ، تغلب عليها الركاكة، وتنضح منها النرجسية، وتفتقد للمنطق.

يرى صلاح سالم في نفسه القدرة لتولي مناصب أعلى ممَّا هو فيها، ويبدو رجلًا حادًّا ومتغطرسًا وهو يقول: «لم أشكُ يومًا من الإرهاق في العمل الذي تخللته رحلات عديدة مضنية، ولكني كنت أشكو دائمًا من عقول لا تفهم تبعاتي ولا تعرف حدود منصبي ولا تقدر إمكانياتي».

كان سالم يعتبر نفسه حاكمًا فعليًّا على السودان ومسئولًا يتولى تسيير الأمور كافة، من أكبر شيءٍ إلى أقل الأمور

تفاهة، ومن السياسة الخارجية والداخلية إلى تعيين الفراش والتومرجي، ومن إذاعة صوت العرب وتوجيهاته إلى الرقابة على الصحف.

ويحاول صلاح سالم إيهامنا بأننا لم نكن نعرف شيئًا عن السودان قبل أن يتولى هو مسئولية هذا الملف، وكأنه لم يقرأ كلمة عن كفاح الساسة المصريين السابقين في قضية السودان منذ مطلع القرن.

ونجده يتحدث عن بدء علاقته بالسودان، قائلًا إنه أمضى جزءًا كبيرًا من طفولته هناك، حيث كان أبوه يعمل، وتحدث عن علاقته ببعض الضباط والجنود السودانيين الذين أنقذوا حياته في الفالوجا عام 1948، وحديثه هنا تختلط فيه الرغبة في إظهار البطولة الخارقة له، والتي بدت في عبور الخطوط والوصول لجمال عبدالناصر، ويختلط به أيضًا إعداد القدر له لتحمل مسئولية السودان لرد الجميل إلى السودانيين.

وعمل صلاح سالم، ومنذ البداية، على التمهيد بالقول إننا أخطأنا في حق السودان قبل 1952 لأننا لم نكن نعرف أي شيءٍ عنه، واكتفى الساسة بترديد بعض الشعارات الجوفاء من وجهة نظره، وذلك للاستهلاك المحلي فقط.

وأخطر ما يذكره صلاح سالم أن مطالبة الحكومات

المصرية قبل 1952 بأن السودان جزء من مصر ولا يحق لبريطانيا أن تقيم فيه كيانًا منفصلًا عن مصر هي مجرد شعارات للاستهلاك المحلي، بل إنه يؤكد أنه هو ورفاقه خدموا السودان وساعدوه على الحصول على الاستقلال، وأن السياسة المصرية السابقة لـ 1952 تجاه السودان اتسمت بالسلبية(63).

***

-8-

تبقى أكثر الأفعال انهزامية ما فعله صلاح سالم وقت العدوان الثلاثي على مصر سنة 1956، وملخص الحكاية يقدمها لنا أكثر من شاهد، ربما أصدقهم فتحي رضوان، الذي لا ينتمي مباشرة للضباط، وإنما كان يحظى بتقديرهم واحترامهم.

ففي تلك الأثناء ذهب صلاح سالم إلى جمال عبدالناصر وصرخ فيه بأنه لا سبيل للمقاومة، وأنه عليه الاستسلام فورًا للسفير البريطاني في القاهرة إنقاذًا لأرواح المصريين. بل إنه دعا كافة أعضاء مجلس قيادة الثورة للاجتماع، طالبًا من المخابرات جلب سم لهم ليقوموا بتناوله فورًا.

وهذا التصور الجنوني الذي ينم عن شخصية غير سوية، لا

تفهم في السياسة، وتُسيء إلى مفهوم الوطنية، كان يستلزم محاكمة عسكرية له، تحت باب إشاعة روح الانهزام والإحباط بين الناس، والتواطؤ مع الأعداء ضد الوطن. لكن لأسباب عديدة ربما من بينها قناعة جمال عبدالناصر بأن زميله غير سوي، وغير صالح لشيء، وربما لبقايا عِشرة وزمالة، لم يلتفت للأمر، وكأنه لم يحدث.

ويورد لنا فتحي رضوان حكاية مماثلة لسياسي مخضرم كانت له واقعة شبيهة وقت العدوان الثلاثي هو سليمان حافظ، رجل مجلس الدولة، الذي استعان به ضباط يوليو في السنوات الأولى لمحاربة الأحزاب والوفد، فهذا الرجل عرض على عبداللطيف البغدادي حلًّا عمليًا لمواجهة العدوان الثلاثي يتمثل في استقالة جمال عبدالناصر، وتخليه عن السلطة، فما كان من البغدادي سوى أن قام بطرده. لكن لم تمر شهور على الواقعة، وانزاحت الأزمة، حتى علم فتحي رضوان باعتقال سليمان حافظ، وتدخل محاولًا العفو عنه، بعد أن تعرَّض لسوء معاملة وظروف سجن قاسية(62).

أما صلاح سالم، فلم يقترب منه أحد، بل زاره جمال عبدالناصر في منزله وأوكل إليه رئاسة مجلس إدارة دار الهلال، وهي من دور الصحافة والثقافة العريقة في مصر. والأغرب أنه انتُخب نقيبًا للصحفيين المصريين لمدة عام من

1960 إلى 1961، رغم أنه لم يُعرف عنه احترافه الكتابة سوى كتابة بعض المقالات التحريضية ضد أشخاص كان يحمل تجاههم غيرة وحقدًا، مثلما حدث مع فتحي رضوان نفسه، عندما سافر يومًا وهو وزير إرشاد إلى روما، فكتب صلاح سالم مقالًا في جريدة «الشعب» بعنوان: «أين ذهب وزير الإرشاد القومي؟» وتساءل فيه ساخرًا: «لعله ذهب إلى روما ليُصلح بين جينا وبرجيدا وبين صوفيا لورين». وغضب فتحي رضوان عندما علم أن جمال عبدالناصر جاء إلى مجلس الوزراء وسأل أين وزير الإرشاد القومي؟ وذهب فتحي رضوان إلى جمال عبدالناصر في مكتبه وسأله إن كان قد قرأ مقال صلاح سالم، فأجابه بأنه قرأه قبل كتابته. فعاتبه رضوان لأنه استأذنه قبل السفر(61).

***

-9-

رغم كل سقطات الرجل على مستوى السياسة والإدارة، فقد وافق جمال عبدالناصر عندما توفي على تخليده بإطلاق اسمه على أكبر شارع في القاهرة وقتها. وهذا ما جعل بعض المؤرخين يكررون أن الرجل هو الأوفر حظًّا بين ضباط يوليو.

لكن بعض الباحثين النابهين، مثل الكاتب أحمد المسلماني، كتبوا مطالبين بضرورة تغيير اسم شارع صلاح سالم، ليصبح تحتمس الثالث. وكان مما قاله المسلماني إن صلاح سالم سياسي ضعيف المستوى، لا يكاد يذكره أحد من النخبة أو العامة في مصر، واتسم بالضعف والفشل، وكان يتصرف في مجلس قيادة الثورة كمراهق غير مسئول، وقد اعتدى على الرئيس محمد نجيب خلال أزمة مارس 1954. وقال بعد أن استعرض حوادثه: «إنه ليس من المنطق أن يبقى اسم صلاح سالم لمجرد وفاته مبكرًا على هذا الشارع الرمز. إن إطلاق اسم الملك تحتمس الثالث على شارع صلاح سالم يمثل الوضع الصحيح حتى يتسنى لزوار مصر الحضارة أن يبدأوا أول انطباعاتهم في مصر مع اسم هذ البطل العظيم. فتحتمس الثالث هو سادس فراعنة الأسرة الثامنة عشرة، وأحد أقوى الأباطرة على مر التاريخ. قام الفرعون العظيم بتحديث الجيش المصري، ووضع إطارًا تنظيميًا عملاقًا، وامتدت الإمبراطورية المصرية في عهده من النيل إلى الفرات، ومن اليونان إلى السودان، وهي أول وأقوى وأغنى إمبراطورية في التاريخ. كذلك فقد امتلك الفرعون العظيم رؤية حضارية للدولة المصرية، وعندما انتصر على ثلاثة وعشرين جيشًا في معركة مجدو الشهيرة ضمن ست وعشرين حملة عسكرية مصرية على آسيا. لم يقُم بحروب

إبادة، أوتنكيل، وإنما حافظ على مكانة النخبة المحلية، وأصلح من أحوال الشعوب؛ لذا فإن مسلات تحتمس الثالث ترتفع في نيويورك، وروما، وإسطنبول»(60).

وبقي ما قاله المسلماني وغيره رهين قراءة واقتناع صاحب قرار يؤمن بالإنصاف ومقاومة تزوير التاريخ.

***

---

(76) صفاء محمد شاكر - مذكرات صلاح سالم - تقديم ودراسة أحمد زكريا الشلق - دار الوثائق القومية، 2011.

(75) جمال الغيطاني ـ توفيق الحكيم يتذكر ـ مكتبة الأسرة 2010، ص 52.

(74) وردت حكاية الخناقة بين صلاح سالم ونعيمة عاطف في عدة كتب فنية، واعتمدها الكاتب إبراهيم عيسى في روايته التوثيقية لثورة يوليو وعنوانها: «كل الشهور يوليو» والصادرة سنة 2020. وقد سألته عن أصل الحكاية فأرشدني إلى كتاب منسي لرشاد كامل بعنوان: «مذكرات جمال القاضي» صدر عن الكتاب الذهبي لمؤسسة روز اليوسف، لكن طبعته كانت محدودة ولم تُعد طباعته.

(73) لم يكن غريبًا أن كرّر الفكرة نفسها محمد صلاح سالم، نجل صلاح سالم، في حوار أجرته معه مجلة «الشباب» في مارس سنة 2000.

(72) ذكرموسى صبري الحكاية في كتاب خاص نُشر سنة 1978 حمل عنوان: «غرام صاحبة السمو»، كما ذكرها في كتابه «50 عامًا في قطار الصحافة». وقد اعتمد الحكاية الكاتب إبراهيم عيسى في روايته التوثيقية «كل الشهور يوليو».

(71) فتحي رضوان ـ 72 شهرًا مع جمال عبدالناصر كتاب الحرية 1986، ص 195.

(70) خالد محيي الدين ـ والآن أتكلم، ص 335 و336.

(69) فتحي رضوان ـ المصدر السابق، ص 59.

(68) فتحي رضوان ـ المصدر السابق، ص 44.

(67) خالد محيي الدين - المصدر السابق (بتصرف) من ص 266 إلى 270.

(66) محمد جلال كشك ـ كلمتي للمغفلين - ط1ب، 1985، ص364.

(65) محمد جلال كشك ـ المصدر السابق، من ص 347 إلى 390، وواو الجماعة التي يُشير إليها كشك هنا تعود على جمال عبدالناصر، وكأنه وحده هو مَن حرك صلاح سالم ليضيع السودان بغرض حرقه، وهو نوع من المبالغة التي تتناقض مع قول كشك في الفصل ذاته عن صلاح سالم إنه شخص ذكي جدًّا.

(64) محمد عبدالرحمن عريف - خطايا يوليو وصلاح سالم في حق السودان – مقال، الرأي اليوم، 17 أغسطس 2020.

(63) محمد عبدالرحمن عريف - المصدر السابق.

(62) فتحي رضوان - المصدر السابق، ص 94 و95.

(61) فتحي رضوان - المصدر السابق، ص 71.

(60) أحمد المسلماني ـ الهندسة السياسية: مصر.. ما كان وما يجب أن تكون، الدار المصرية اللبنانية 2018، ص 113و114.

عبدالحليم حافظ.. حلو وكداب

«يا حلاوة الشعب وهو بيهتف باسم حبيبه/ مبروك ع الشعب خلاص السعد هيبقى نصيبه».

عبدالحليم حافظ عن جمال عبدالناصر في أغنية «إحنا الشعب» يونيو 1956

- 1 -

عندي رأي لا أراه ملزمًا لأحد، مفاده أن الرئيسين السادات ومبارك، كانا أعظم وأنفع لمصر كثيرًا من جمال عبدالناصر. وفي تصوري، فإن الشعبية الزائدة، التي حظي بها ناصر استندت في الأساس على صورة زائفة ساهمت في صناعتها آلة إعلامية شديدة الاحترافية، وصوت واحد حصري، وإبداعات موجهة، وأخرى مُنخدعة مسكونة بحلم التحرر والنهضة.

ولا شك أن عبدالحليم حافظ، كمطرب صاعد لمع نجمه مع العهد الجديد، لعب دورًا مهمًّا في صناعة هذه الصورة، وفي ترسيخها في أذهان العامة. لقد انتفع حليم كثيرًا بتبني ثورة يوليو له، وحضور الرئيس جمال عبدالناصر بنفسه لحفلاته، وتوطُّد علاقات كبار المسئولين به، وانفتاح الأبواب كافة أمامه، ما ساهم في تلميعه، وتسليط الأضواء عليه، ودعمه،

واعتباره ابنًا رسميًا للعهد الجديد. في الوقت ذاته فقد رد المطرب الموهوب الجميل للثورة، ولرجلها الصاعد، فحوَّله من ضابط ذكي يخلط العامية بالفصحى في خطاباته إلى زعيم الأمة، وبطلها الأوحد، وقاهر الاستعمار، وحبيب الملايين. غنى حليم بحماس، واهتمام، وإخلاص للنظام الناصري، تبنى أطروحاته، أفكاره، وبشَّر باشتراكيته، وسخر من أعدائه، ورفع زعيمه فوق الجميع.

بدا المطرب الموهوب مُسخرًا، ومروجًا، ومساندًا للرئيس جمال عبدالناصر لا باعتباره حاكمًا لبلده الذي يحبه، وإنما باعتباره أبًا له. وفي سبيل ذلك، لم يكن حليم يضع في اعتباره لوم لائم، أو نقد ناقد له، ولقبوله لكلمات فاشية، سلطوية، مناقضة للعقل والعدل تحملها أغانيه عن ناصر، وكأنه لا يُغني تلك الأغاني للناس، وإنما يغنيها للزعيم وحده.

وهكذا فقد أضاءت أغاني عبدالحليم حافظ صورة جمال عبدالناصر التاريخية، وساهمت في تجميل عهده، بما يتجاوز الحقيقة كثيرًا، وبما يصل به إلى درجة قصوى من عدم الإنصاف.

وبما أن حليم كان وما زال محبوبًا جدًّا، ويحظى بشعبية واسعة تجعله متربعًا على عرش الأغنية الرومانسية في العالم العربي حتى يومنا هذا، فإن لصوته العذب تأثيرًا

عظيمًا لصالح الزعيم الأكبر.

ولا يمنعنا مانع من أن نقول إن حليم عظيم كمطرب ومبدع وصاحب قصة كفاح. لا شك في ذلك البتة، فهو شاب ذكي، طموح، موهوب، من طبقة فقيرة، لا أقارب أثرياء له أو معارف من ذوي النفوذ، صعد بفنه واجتهاده وذكائه إلى قمة القمة.

حلو كما غنى هو برقته، ورومانسيته، وتألقه، وقدرته على التأثير في الناس، لكنه كما غنى أيضًا «حلو وكداب» فيما يخص السياسة.

***

-2-

عبدالحليم حافظ هو عبدالحليم علي إسماعيل شبانة. ولد في قرية الحلوات، بمحافظة الشرقية في 21 يونيو سنة 1929 في أسرة بسيطة، نصف متعلمة، وتعرض لليُتم صغيرًا. وتخرج في المعهد العالي للموسيقى المسرحية، وعمل مدرسًا للموسيقى، ثم اعتُمد بالإذاعة عازفًا على آلة الأبوا عام 1949، ثم اعتُمد مغنيًا في 11 فبراير سنة 1951، وتوفي يوم 30 مارس سنة 1977.

ووفقًا للموسوعة المتميزة التي أعدها الباحث عمرو فتحي

عن حليم(59) فإن المطرب الكبير غنَّى على مدى ستة وعشرين عامًا 379 أغنية، وقدَّم نحو 14 فيلمًا، بخلاف أفلام أخرى شارك فيها بالغناء أو كضيف شرف.

وكانت أول أغنية غناها عبدالحليم هي «ذكريات» سنة 1951، من كلمات محمود جبر، وألحان عبدالحميد توفيق زكي، وغناها باسمه الأصلي عبدالحليم شبانة، وقد تمت الاستعانة به للغناء بدلًا من كارم محمود الذي كان من المفترض أن يحضر للغناء لكنه غاب لسببٍ ما، فقرر المايسترو الاستعانة بعازف الأبوا للغناء، وهي الأغنية التي رشحته بعد ذلك ليغني مع فايدة كامل أغنية «محلاها الدنيا» من ألحان عبدالحميد توفيق زكي(58).

وهنا، فإن عام 1951 شهد وحده قيام حليم بغناء 25 أغنية، لكن لم تشتهر منها واحدة، على الرغم من أن بعض الأغاني كانت من تلحين ملحنين متميزين مثل كمال الطويل، وعبدالحليم نويرة، وعبدالحميد توفيق زكي، وكانت كلمات بعضها من وضع شعراء كبار ومتميزين مثل صلاح عبدالصبور، وعبدالرحمن الخميسي، وحسن الإمام. لقد غنى حليم لصلاح عبدالصبور قصيدة بعنوان: «لقاء» لكنها لم تشتهر رغم جمال كلماتها.

ويُمكن القول إن العام التالي شهد أيضًا غناء عبدالحليم

حافظ لـ 25 أغنية، لم تشتهر منها أي أغنية، ولم تُبشر أي منها بنجاح لافت، وحتى قيامه بغناء أغنية وطنية باسم محمد فريد في ذلك العام لم يلقَ اهتمامًا من المتابعين.

لكن الالتفات الحقيقي لعبدالحليم حافظ كان في عامه الثالث كمطرب سنة 1953، عندما غنى 18 أغنية، مرَّت معظمها مرور الكرام عدا أغنية «صافيني مرة» من كلمات سمير محبوب، وألحان محمد الموجي، وتوزيع علي إسماعيل، وقد قُدِّمت للمرة الأولى بالإذاعة المصرية في 16 إبريل 1953. ويرى عمرو فتحي أن هذه الأغنية على الرغم من أنها لم تنجح في تحقيق شهرة جماهيرية كبيرة لعبدالحليم، إلا أنها تعتبر من العلامات الفارقة في حياته الفنية؛ لأنها نبهته إلى ضرورة أن يحدد طبيعة الجمهور الذي يستهدفه بفنه؛ لذا فقد قرر التوجه لجمهور الشباب. وفي هذه المرحلة بدأ عبدالحليم طريقه نحو الغناء المتقن ليجيد التحكم في ثبات صوته وقدرته على ضبط الأحبال الصوتية خلال الانتقال بين الطبقات والدرجات المختلفة(57).

وهكذا نبغ المطرب الجديد، ذو الملامح الرقيقة، والتعبيرات السمحة، في أن يجذب جمهورًا جديدًا من المستمعين، الذين تمردوا بحكم الشعور العام بتغير أوضاع البلاد على كثير من تيمات الإبداع السابقة، والمفترض أن

تخبو كسمات فنية مع أفول عهد الملكية، والتبشير بعصر جديد، يرفع شعارات المساواة والحرية والتمدن.

من هنا، لم يكن غريبًا أن يمثل المطرب الجديد الصاعد رمزًا للأغنية الشبابية في ذلك الوقت، المتجددة بألحانها وتوزيعها، واختيارات كلماتها. إن حليم هنا لم يكن أفضل صوتًا من نظرائه في عهده، فلم يكن يمتلك جمال صوت محمد قنديل، ومحمد عبد المطلب، كما يقول الباحث والناقد مصطفى بيومي، لكنه كان يتفوق عليهما وعلى غيرهما بسمتين عظيمتين، الأولى هي ذلك الإحساس الاستثنائي الخارق، والثانية امتلاكه القدرة على التعبير الطازج عن أجواء المرحلة التاريخية الجديدة(56).

-3-

يمثل عام 1955 عام النضج الحقيقي لعبدالحليم حافظ، وصعوده على عرش فتى الشباب الأول، إذ قدم خلاله أربعة أفلام سينمائية هي: «لحن الوفاء» أمام شادية وحسين رياض، وإخراج إبراهيم عمارة، و«أيامنا الحلوة» أمام فاتن حمامة وعمر الشريف وأحمد رمزي، وإخراج حلمي حليم، و«ليالي الحب» مع آمال فريد، وعبدالسلام النابلسي، وإخراج حلمي رفله، و«أيام وليالي» أمام إيمان وأحمد رمزي، وإخراج بركات.

كذلك قدم حليم 28 أغنية رومانسية خلال هذا العام، كان أبرزها «الحلو حياتي» من كلمات مرسي جميل عزيز وألحان كمال الطويل، و«هي دي هي.. فرحة الدنيا» من كلمات مرسي جميل عزيز، وألحان كمال الطويل، وتوزيع علي إسماعيل. بالإضافة إلى أغنية «يا قلبي خبي» من كلمات مرسي جميل عزيز، وألحان محمد الموجي، وتوزيع علي إسماعيل، وأغنية «ليه تشغل بالك ليه» من كلمات مرسي جميل عزيز، وألحان محمد الموجي، وتوزيع علي إسماعيل.

فضلًا عن أغنيته الأشهر «توبة إن كنت أحبك تاني توبة» من كلمات حسين السيد، وألحان محمد عبدالوهاب، وتوزيع أندريه رايدر. وهذه الأغنية تحديدًا قُدمت في حفل سلاح الفرسان في يونيو 1956، وقد كانت بداية حقيقية للصداقة بين حليم ومحمد عبدالوهاب.

كذلك فقد شهد العام ذاته ميلاد أغنية «كفاية نورك عليا» من كلمات مأمون الشناوي، وألحان كمال الطويل، وتوزيع أندريه رايدر، كما شهد أيضًا ميلاد أغنية «شغلوني وشغلوا النوم عن عيني ليالي» من كلمات حسين السيد، وألحان محمد عبدالوهاب، وأغنية «إيه ذنبي إيه» من كلمات مأمون الشناوي، وألحان محمد عبدالوهاب. فضلًا عن أغنية «عشانك يا قمر» من كلمات مأمون الشناوي وألحان محمد

عبدالوهاب، ثم أغنية «أنا لك علطول.. خليك ليا» للثنائي ذاته، الشناوي، وعبدالوهاب.

وهكذا كانت الخطوة الطبيعية التالية لمطرب الشباب التماهي مع قفزات الوطن، والاقتراب الأكبر من السلطة الجديدة التي دانت لها الأمور تمامًا بعد إعفاء محمد نجيب، والتفاف الجماهير حول البطل الصاعد جمال عبدالناصر، وهو يُبشر بعهد جديد، ثم وهو يُعلن تأميم قناة السويس كشركة مساهمة مصرية، ثم وهو يتحدى أذيال الاستعمار ويُبشر بالتحرر والتحديث.

وفي شهر يونيو سنة 1956 تقام حفلة غنائية رسمية في سلاح الفرسان، والذي كان قبل عامين محل تمرد واحتجاج ضد جمال عبدالناصر، قبل أن ينجح في السيطرة التامة عليه، ويُدعى حليم - رمز الشباب - للمشاركة في الحفل وغناء أغانيه الشبابية الرومانسية، لكنه يقرر بذكاء أن يُقدم عرفان محبة وتأييد فني للحركة المباركة، ويتفق مع شاعر جذاب ومختلف هو مأمون الشناوي أن يضع كلمات أغنية جديدة بعنوان «ثورتنا المصرية»، ويقوم رؤوف ذهني بوضع ألحان الأغنية، وتنجح الفكرة نجاحًا باهرًا. تقول كلمات الأغنية:

ثورتنا المصرية

أهدافها الحرية

وعدالة اجتماعية

ونزاهة ووطنية

ثورتنا ثورتنا

بعزيمة الأحرار

وإيدين الثوار

شتتنا الأشرار

وجيوش الاستعمار

لا الكتلة شرقية

ولا كتلة غربية

دي الأمة المصرية

واخواتها العربية

وكأن الرجل هنا يتحول إلى بيان رسمي يعبر عن رئاسة الجمهورية، بدون أي جمال إبداعي أو سحر بياني، فالفلسفة الحاكمة للأغنية هي نقاء الثوار، وعدم انحياز مصر لا للكتلة الشرقية ولا للغربية، وهو الطريق السحري للانتصار على العالم!

وفي الحفل ذاته، قدم حليم من كلمات صلاح جاهين، وألحان كمال الطويل أغنية «إحنا الشعب» والتي تمثل خطابًا مباشرًا إلى جمال عبد الناصر، إذ تقول الكلمات في تمجيد عظيم لجمال عبدالناصر:

يا فاتح باب الحرية.. يا ريس يا كبير القلب

يا حلاوة الشعب وهو بيهتف باسم حبيبه

مبروك ع الشعب خلاص السعد هيبقى نصيبه

واحنا اخترناك وهنمشي وراك

يا فاتح باب الحرية.. يا ريس يا كبير القلب

إحنا الشعب..

إحنا حياتك وابتساماتك وانت حياتنا

إحنا بنفرح وانت بتفرح من فرحتنا

كل ما نكبر قلبك يكبر بمحبتنا

وتتجلى عبقرية وشاعرية صلاح جاهين، وهو يعتبر البطل العظيم هنا، فدائي يفعل كل شيءٍ من أجل بلده، وكأنه هدية من السماء لها، فيقول:

يا اللي بتسهر لاجل ما تظهر شمس هنانا

إحنا جنودك إيدنا ف إيدك مصر أمانة

بكرة وطنًا هيصبح جنة وانت معانا

والأمانة هنا تقتضي أن نقول إن صلاح جاهين كان صادقًا في كلماته، وهو العاطفي مرهف الحس، المتطرف في انفعالاته ومحبته.. لكن هل كان حليم كذلك، وهو يسارع ويتحمس ويقبل أن يغني كلام صلاح جاهين، ويغني كلام غيره في تمجيد ناصر؟ ذلك سؤال يبقى مطروحًا.

***

-4-

رويدًا رويدًا يواصل عبدالحليم تألقه الفني ويتحول إلى صوت رسمي للثورة، فيغني كثيرًا من الأغاني الوطنية المعبرة عن صورة مصر القوية الأبية التي انتصرت على جيوش ثلاث دول كبرى في السويس وبورسيعد سنة 1956، لتتحول صورة الهزيمة العسكرية الكبرى إلى نصر سياسي(55).

وفي سنة 1957 يغني حليم من كلمات إسماعيل الحبروك وألحان كمال الطويل أغنية «يا جمال يا حبيب الملايين» ليُدشنوا معًا فكرة الزعيم الأب، الأفهم، والأنبه، والتي أطلت

فيما بعد من خلال شعار «الكل في واحد»، وهذا الواحد هو الرئيس، أو الزعيم جمال عبدالناصر. تقول كلمات الأغنية:

يا جمال يا حبيب الملايين.. يا جمال

ماشيين في طريقك مش ناسيين

يا جمال يا حبيب الملايين

للنور طالعين.. للخير رايحين

إحنا الملايين.. إحنا الملايين

صحيت الشرق بحاله

وديانه ويّا جباله

قام بشعوبه وأبطاله

مع بطل الأمة العربية

للنور والخير والحرية

إنت اللي كسرت قيودنا

وكسرت عدو بلادنا

طلعنا الفجر بإيدنا

فجر القومية العربية

وتتوالى أغاني حليم الممجِّدة لشخص جمال عبدالناصر بعد مشاركته اللافتة في الأوبريت الرائع «الوطن الأكبر» سنة 1959 ليغني بعد ذلك أغنية «الحرية» سنة 1959، و«ذات ليلة» في العام ذاته، ثم تتجلى مساندة عبدالحليم وإيمانه بقيادة جمال عبدالناصر في الأغنية الشهيرة «حكاية شعب» سنة 1960 من كلمات أحمد شفيق، وألحان كمال الطويل، والتي صورت وأُذيعت فور إنشاء التلفزيون في العام ذاته. تقول الأغنية في كلماتها التي تأخذ شكل المحاضرة:

قُلنا ح نبني وادي احنا بنينا السد العالي

يا استعمار بنيناه بإيدينا السد العالي

من أموالنا بإيد عمالنا

قُلنا هنبني

وادي احنا بنينا

ثم يواصل حليم تجاوز فكرة المشروع العملاق ليتحدث عن كفاح أبطال مصريين هم رجال الثورة، وعلى رأسهم جمال عبدالناصر فيقول:

الحكاية مش حكاية السد

حكاية الكفاح اللي ورا السد

حكايتنا إحنا

حكاية شعب للزحف المقدس قام وثار

شعب زاحف خطوته تولَّع شرار

شعب كافح وانكتب له الانتصار

وطرح المطرب المحبوب الخطاب الناصري المغرق في العداء للغرب كله وكأنه كتلة واحدة، وربط بين رفض البنك الدولي لمشروع بناء السد العالي لعدم وجود دراسة اقتصادية مقنعة، وبين رغبة الدول الكبرى في استمرار الاستعمار، فادَّعى أن تأميم قناة السويس جاء كرد إمبريالي على رفض البنك الدولي تمويل السد العالي، رغم أن هناك مبررات عملية وواقعية عديدة لتأميم القناة أوقع وأكثر منطقية من رفض تمويل السد، فقالت الأغنية:

راح على البنك اللي بيساعد ويدِّي

قالوا حاسب

قُلنا: مالكمش عندي

كانت الصرخة القوية

في الميدان ف اسكندرية

صرخة أطلقها جمال

إحنا أممنا القنال

ثم تصف الأغنية قرار التأميم بلغة شعبوية ساخرة تناسب العامة، حيث تقول:

ضربة كانت من معلم

خلى الاستعمار يسلم

والحصار الاقتصادي

برضه ما ذلش بلادي

جاب سلاحه وطياراته

وغواصاته ودباباته

واعتدى علشان نسلِّم

هو مين لا ده بُعده

هو إللي اتلقَّى وعده

كنَّا نار أكلت جيوشهم

نار تقول هل من مزيد

انتصرنا ولسة عارهم

ذكرى في تراب بورسعيد

وهكذا أمكن لعبدالحليم أن يلعب دورًا ناعمًا، لكنه حقيقي في تحويل الهزيمة العسكرية الواضحة والكبيرة سنة 1956 إلى انتصار ساحق مسجل في أذهان المصريين جميعًا. ويبقى التساؤل مطروحًا: هل كان ذلك عفويًّا؟

يقول سامي شرف - وهو الشخص الأقرب لجمال عبدالناصر - في مذكراته: «كان عبدالحليم حافظ يجسد شباب وأحلام وطموحات ثورة يوليو في فنه وتعبيره سواء في أغانيه الوطنية أو العاطفية. وكان يحضر إلى مكتبي بدون موعد، كما كنَّا كثيرًا ما نلتقي في عيادة الدكتور زكي سويدان سواء باتفاق أو بدونه. وكان عبدالحليم يتصل بي تليفونيًّا في بعض الأحيان في الساعة الثالثة صباحًا ليعرض فكرة أو يقرأ لي كلمات أغنية جديدة بلا حساسيات، وكان يعتبر نفسه أحد أفراد كتيبة منشية البكري كما كان يحب أن يصفنا. وفي الصيف، وفي شهر أغسطس بالذات، كان يمر عليَّ في منزلي بالإسكندرية، حيث كنت أؤجر شقة في عمارة الألفي بسيدي بشر، وكان يقيم في نفس العمارة الفنان كمال الطويل»(54).

كتب حصرية

إن الكاتب المخضرم مفيد فوزي، والذي كان أحد أصدقاء حليم، يُسمي ذلك بالذكاء الاجتماعي الذي جعله يُصبح فاعلًا في رسم صورة زعيم مصر. ويكتب عن ذلك في ذكراه قائلًا: «هذا الذكاء الاجتماعي جعله يصادق أولًا عبدالناصر، واستطاع من خلاله دخول أرقى العائلات المصرية، ثم جعله صديقًا لمعظم الإعلاميين والصحفيين والمذيعين. ذكاء اجتماعي طال البلاد العربية وقام بحفلات ناجحة حتى إنهم في مدينة صفاقس بتونس حملوا سيارته. إن هذا الذكاء دفعه للغناء في مواعيد حفلات الثورة»(53).

***

- 5 -

استمر صعود الفنان المُبهج مع الصعود السياسي للنظام الناصري، وكرر حليم مشاركاته في أعياد الثورة والمناسبات القومية الكبرى التي تحظى بشرف حضور رئيس الجمهورية، وواصل تقديم عطائه الفني في خدمة السلطة، تحت تصور عام كان يسود المجتمع بأن خدمة السلطة هي خدمة للوطن، بغض النظر عن الاتفاق والاختلاف مع هذه السلطة.

كانت أبرز محطات الصوت الرقيق تغنِّيه بأمجاد مصر الجديدة التي أطلَّت، وكأنها تستعيد أمجاد المصريين

جودة الكتب حصرية

القدماء، لقد بدت صورة مصر الأخرى جذابة ومبهرة وقد تحولت من دولة خاضعة مستكينة إلى عملاق عظيم يناطح الدول الكبرى، فغنى حليم أغانيه الشهيرة «ذكريات»، و«بالأحضان»، و«الجيل الصاعد»، و«مطالب شعب»، و«المسئولية»، و«بستان الاشتراكية»، و«بلدي يا بلدي»، و«أهلًا بالمعارك»، و«صورة»، وغيرها.

ولا شك أن تمجيد ذات جمال عبدالناصر وصل إلى حد غير مسبوق، فاق كل الحدود، فعندما تقول أغنية «بالأحضان» في أحد مقاطعها عن جمال عبدالناصر: «وزعيمك خلاكي زعيمة»، فإن ذلك تجاوز فكرة المدح الذاتي للشخص إلى رفعه أعلى من مكانة البلاد نفسها، ما يمثل خصمًا من وطنية القائل، وكأن مصر هنا لم تكن شيئًا قبل مجيء جمال عبدالناصر، وكأنما استمدت هي مكانتها وعظمتها من وجوده. وللأسف فقد ردد المصريون الأغنية، بعفوية مع سلاسة الكلمات، وجمال الألحان، واستمتعوا بتكرارها دون انتباه لما تحتويه من ذم غير مباشر لمصر.

كذلك فقد كررت أغنية «صورة» اسم ناصر باعتباره مصر كلها، بجمالها وكبريائها وعظمتها وانتصاراتها المدوية، فقالت كلماتها:

ناصر.. واحنا كلنا حواليه

ناصر ناصر ناصر

وعيون الدنيا عليه

ناصر ناصر ناصر

والنصر بيسعى إليه

ناصر ناصر ناصر

والشعب دليله وإلهامه

والموجع أن الأغنية ذاتها طلبت من المصريين التقرب من فكر الرجل وأحلامه وطلباته وليس العكس، فقالت في توجيه كريه:

قربوا من فكره وأحلامه

ياللي عليكم كل كلامه

ف الصورة طالبكم قدامه

قيادات شعبية.. قُلتم إيه؟

ويرد حليم على لسان الجماهير:

قُلنا يا زعيمنا قلوبنا أهي

أيامنا أهي.. ليالينا أهي

دودة الكتب حرامية

ف يوم الدم.. وهبنا الدم

هنبخل بالليالي ليه؟

والصورة اكتملت بالثوار

مع ناصر وإيديهم ف إيديه

لكن الأمر تجاوز مجرد التبشير بالبطل العظيم إلى تغميض العينين تمامًا ومنح الزعيم الحق الأوحد في تقرير الحق من الباطل والصواب والخطأ، بل واختيار الصديق والعدو. وهكذا غنى حليم من كلمات صلاح جاهين:

ابنك يقولك يا بطل هاتلي النهار

ابنك يقولك يا بطل هات الانتصار

ابنك يقولك ثورتك عارفة الطريق

وعارفة مين يابا العدو ومين الصديق

وهكذا لم يعُد غريبًا أن يتحول الخطاب «الحليمي» بعد وقوع هزيمة يونيو 1967 من خطاب يتغنى بالنصر، ويبشر بمصر الجديدة، العظيمة، التي حققت المستحيلات؛ إلى خطاب حزين، مكتوم، يرى أن هدف المعركة كلها هو إسقاط جمال عبدالناصر، وأن عدم سقوطه يعني أن الدول الكبرى انهزمت. وربما كان ذلك دافعًا لاستدعاء ناصر مرة أخرى

باعتباره كل شيء. وغنى حليم من كلمات صلاح جاهين أيضًا أغنية يقول فيها:

ناصر ناصر يا حرية

ناصر ناصر يا وطنية

يا روح الأمة العربية.. يا ناصر

الشعب يريدك يا حياته

يا موصل موكبه لغاياته

وحياة المصحف وآياته

اسمك ف قلوبنا أغنية

ناصر يا حرية

ناصر يا وطنية

يا روح الأمة العربية.. يا ناصر

وحياة الثورة وغلاوتها

وحياة الخضرة وحلاوتها

وحياة الشدة وقسوتها

كلنا ويَّاك وحدة قوية

جودة الكتب حرامية

والمتصوَّر أن صلاح جاهين كان شريكًا في ذلك التوجيه والتأليه، لكن في ظني أن الشاعر الموهوب كان يؤمن بجمال عبدالناصر إيمانًا حقيقيًّا، خالصًا؛ لذا فقد أُصيب باكتئاب حاد بعد الهزيمة، دفعه لأن يكتب قصيدة محزنة بالفصحى يتمنى فيها الرحيل والهروب من كل هذا العبث الذي يُحيط به.

يقول جاهين في قصيدته:

رحيلًا رحيلًا بغير هوادة

رحيلًا فإن الرحيل سعادة

عبادة..

إرادة..

سيادة..

ولادة..

رحيلًا إلى أين؟

ليس يهم

وليس يهم بأي وسيلة

أجيرًا بلقمته في البواخر

على واحدٍ من جياد القبيلة

حدوتة الكتب حرامية

على مقعدٍ في ذُرى الجو فاخر

وتملأ لي الكأس بنتٌ جميلة

على قدمي أو بفكري أُهاجر

أُسافر

أُغادر..

أما كمال الطويل فسيُقسم فيما بعد على حليم بألا يُلحن أي أغنية تمجد أي شخص مهما كان، وإنه سيُكرس فنه وموهبته في تحية الشعب المصري فقط.

***

ـ 6 ـ

وفي تصور البعض، فإن عبدالحليم حافظ لم يكن يكذب وهو يرى جمال عبدالناصر، بطلًا شجاعًا، فريدًا، سابقًا لعصره. وهناك مَن يقول إنه كان ـ رغم مضايقات أمنية تعرض لها وتعرضت لها حب حياته سعاد حسني ـ عاشقًا لجمال عبدالناصر الإنسان، ابن الطبقة الوسطى الذي صعد إلى القمة.

وربما استند هؤلاء إلى أن حليم لم يُغنِّ للرئيس

مكتبة الكتب حرامية

أنورالسادات مثلما غنى لسلفه، فباستثناء أغنية «عاش اللي قال» والتي لم يرد فيها اسم السادات مثلما هو الحال مع ناصر، لا توجد أي أغانٍ أخرى تُشيد به. وعلى الرغم من أن السادات هو الذي حقق الانتصار الحقيقي في أكتوبر 1973، فإنه لم يحظَ بواحد في المئة ممّا حظي به سلفه من تمجيد، وتعظيم، وتفخيم.

وفي شهادة طبيب حليم، ثمة تأكيد على أنه كان يحب جمال عبدالناصر محبة حقيقية، وأنه لم يكن مُدعيًا أو منافقًا. ويشير الدكتور هشام عيسى إلى أن حليم أحب الزعيم بصدق، وكان حبه مزيجًا من الامتنان والإعجاب الشخصي به والعرفان بالجميل لما أسبغه عليه من الحماية والرعاية، وهو ما أنقذه في كثير من الأحيان من مضايقات عديدة[52].

ويذكر الرجل أن حليم أصر على إدخال بعض الفقرات من خطب جمال عبدالناصر في بداية إحدى أغانيه التي كان يقدمها في عيد الثورة، ولم يكن ذلك ضمن ما كتبه مؤلف الأغنية، وحين بدأت الأغنية بصوت جمال عبدالناصر وهو يخطب أخذ الرئيس يتلفت حوله باحثًا عن مصدر الصوت حتى تبين الأمر فابتسم، وهو ما أسعد عبدالحليم سعادة غامرة[51].

ويواصل هشام عيسى شهادته مؤكدًا أن حليم أُصيب بنزيف حاد عندما علم بخبر وفاة ناصر المفاجئ، وقضى أيامًا طويلة في سريره لا يغادره.

ويحكي أيضًا أنه كان ينوي أن يقوم بغناء قصيدة نزار قباني الشهيرة في رثاء الزعيم، والتي يقول مطلعها:

قتلناك يا آخر الأنبياء

قتلناك وليس غريبًا علينا

اغتيال الصحابة والأولياء

فكم من إمامٍ قتلنا

وكم من رسولٍ ذبحناه وهو يصلي العشاء

وبدأ حليم مشاورات مع نزار بشأن القصيدة، وكان يريد من الموسيقار محمد عبدالوهاب أن يقوم بتلحينها، لكن عائلة حليم تدخلت بقوة وضغطت عليه لوقف المشروع، وكان دافعهم هذه المرة دينيًا بحتًا، إذ رأوا أن جمال عبدالناصر زعيم سياسي لكنه ليس نبيًّا، وأن ترديد أغنية كهذه قد تؤثر سلبيًّا على جماهيرية عبدالحليم في الشارع المصري(50).

والطريف هنا أن مبالغات نزار قباني في قصيدته كانت

محل تحفظ واضح من شاعر آخرعظيم رثى ناصر بقصيدة حملت اسم: «الرجل ذو الظل الأخضر» وهو الشاعر محمود درويش، إذ قال فيها: «ولست نبيًّا/ ولكن ظلك أخضر»، وكأنه يشير إلى ما تحمله مبالغة نزار من استثارة لمشاعر الناس دينيًّا(49).

-7-

ثمَّة سؤال منطقي يُطرح بشأن أقران عبدالحليم حافظ في عهد نظام جمال عبدالناصر. بمعنى أوضح: ما هو مصير حليم المنتظر إن لم يكن هو مطرب الثورة الأول، وصوتها القوي المُجلجل، وغير المُتهيب أو المتحرج أن يقول في الزعيم ما يرفعه إلى السموات العُلا؟

يمكن معرفة الإجابة حال استعراض سريع لقصة النهاية في فصل المبدع العظيم محمد فوزي.

يكشف المؤرخ الفني أشرف غريب أن المطرب والملحن محمد فوزي المولود في أغسطس سنة 1918 (في نفس عمر ناصر تقريبًا) والذي لعب البطولة في 36 فيلمًا سينمائيًّا وغنى نحو 240 أغنية؛ تعرَّض لاضطهاد مدمر وغريب في عهد الثورة بسبب قربه ومحبته الطاغية للواء محمد نجيب.

فالفنان الذي كان معروفًا بتعدد مواهبه بين الغناء

والتلحين والتمثيل، لم يدرك لعبة موازين القوى بعد قيام ثورة يوليو، وتصور أن القائد الظاهر للناس هو ذاته القائد الفعلي الذي يمثل العهد الجديد، فمد له ذراع الصداقة والتودد، ولم يقطعها مثلما فعل فنانون وصحفيون آخرون أدركوا بعد فترة مصدر القوة الحقيقية.

ويوضح الكاتب أن الدولة قررت في مارس سنة 1961 الاستيلاء على شركة مصر فون لصاحبها محمد فوزي، لكنها تركت شركة صوت الفن لصاحبيها محمد عبدالوهاب وعبدالحليم حافظ لتلعب منفردة في سوق الفن.

ولم تقف ملاحقة فوزي عند هذا الحد، بل امتدت إلى الطعن في فنه، والعمل على إثارة حالة من الكراهية بين السينمائيين تجاه فوزي لدرجة بلغت التقليل من موهبته والتحريض عليه، ما دفع مثلًا المخرج حسين فوزي أن يرسل برسالة إلى شركة بهنا فيلم يصف فيها محمد فوزي بأنه «فاشل ومحدود الموهبة».

والمثير في الأمر أن فوزي لم يتخذ قرارًا بمعاداة الثورة، وإنما لم يُغنِّ لجمال عبدالناصر كجمال عبدالناصر، وإنما غنى في تحية مصر وشعبها وحقوق العمال والتوجُّه القومي. كذلك فقد غنى كما يقول أشرف غريب لوحدة مصر والسودان في أغنية «يا وادي النيل يا غالي»، وللعراق غنى

«تحية يا ابنة الرشيد»، ولثورة اليمن أنشد «الشعب لازم ينتصر»، ولمشروع الوحدة بين مصر وسوريا والعراق سنة 1963 غنى «علم الثوار»، وحتى لإفريقيا غنى «إفريقيا شعبك حر»، والأكثر من ذلك فقد ساهم في جمع التبرعات لدعم مشروعات مصر وللمجهود الحربي بعد عدوان 1956.

ويُرجِّح غريب(48) وجود علاقة بين اضطهاد النظام لفوزي وتأميم ممتلكاته بمرضه. وينقل عن زوجته كريمة قولها، في مقابلة صحفية، إنه بعد التأميم «لم يعُد فوزي هو ذلك الرجل الذي تعرفه. فقد دخل في حالة اكتئاب دائم حتى وإن حاولت روحه المرحة التغلب على ذلك الاكتئاب. وبدأ ينعكس هذا على حالته الصحية وشهيته للطعام. ومن ثم دخوله في دوامة مرض السرطان ووفاته بعد أحد عشر شهرًا وعمره ثمانية وأربعين سنة».

***

---

(59) عمرو فتحي ـ موسوعة أغاني عبد الحليم حافظ - دار الكرمة، 2017، والكتاب يستعرض كل أغاني عبدالحليم في فهرس خاص من ص من 313 إلى 330، كما يستعرض أفلامه من ص275 إلى 280.

(58) عمرو فتحي ـ المصدر السابق ص 11.

(57) عمرو فتحي ـ المصدر السابق ص 44.

(56) مصطفى بيومي ـ النبش في الذاكرة. شبه سيرة ذاتية. بورصة الكتب 2018 ص 190.

(55) كان مصطفى أمين على الرغم من موقفه شديد العداء لجمال عبدالناصر إذا سُئل عن أهم عشرة أشخاص عرفهم في حياته، يختار جمال عبدالناصر من بينهم، وكان تصوره قائمًا على أن الرجل حوّل هزيمة عسكرية قاصمة في 1956 إلى نصر سياسي عظيم.

(54) سامي شرف ـ سنوات وأيام مع جمال عبدالناصر. جزء 1، المكتب المصري الحديث 2014، ص 110.

(53) مفيد فوزي ـ لماذا عبد الحليم حافظ الآن؟ - مقال بجريدة «المصري اليوم»، 28 مارس 2020، وللكاتب نفسه كتاب بعنوان: «حليم.. صديقي الموعود بالعذاب»، نُشر في مؤسسة روز اليوسف سنة 1991.

(52) هشام عيسى ـ حليم وأنا. مذكرات الطبيب الخاص لعبد الحليم. دار الشروق، 2010، ص 104.

(51) هشام عيسى ـ المصدر السابق، ص 105.

(50) هشام عيسى ـ المصدر السابق ص 130.

(49) تبدأ قصيدة درويش بقوله: «نعيش معك/ نسير معك/ نجوع معك/ وحين تموت نحاول ألا نموت معك»، وكتب كثير من الشعراء في رثاء ناصر كان على رأسهم صلاح عبد الصبور في قصيدة «الحلم والأغنية» والتي يفتتحها بقوله: «لا لم يمت/ وتظل أشتات الحديث ممزقات في الضمائر/ غافيات في السكينة»، وكتب أمل دنقل قصيدة «لا وقت للبكاء»، لكن تبقى قصيدة نزار قباني هي الأقوى بما حملته من مبالغة.

(48) مقابلة لبي بي سي مع الناقد الفني أشرف غريب بمناسبة صدور كتابه: «محمد فوزي.. الوثائق الخاصة» عن دار بتانة للنشر.

الذين قتلوا أنور السادات بعد قتله

«أصل الحكاية ولد. فارس ولا زيه. خد من بلال ندهته ومن النبي ضيه»

أحمد فؤاد نجم في قصيدة له ممجدًا الإرهابي خالد الإسلامبولي

- 1 -

لم يُقتل زعيم مصري مثلما قُتل السادات. فوسط رجال دولته، وبين أبناء الجيش الذي يستمد منه أمانه، وفي يوم فرحه الأعظم، يوم 6 أكتوبر الذي حقق فيه أعظم إنجازاته بالنصر على إسرائيل، استقبل جسده رصاصات روسية فتاكة من مسافات قريبة وبعيدة، اخترقت اللحم، وثقبت عظام الساعدين، والفخذين، والرقبة، والصدر، وسفحت الدم كاتبة نهاية عمر من الإثارة والحركة والصعود والهبوط والوطنية(47).

لم يتصور السياسي الداهية، الأذكى، أن يأتي الغدر من أبنائه، رجال الجيش، الذين قادهم نحو نصر عظيم يعيد الكرامة والفخار لصورتهم بين العالم. فاق الأمر تصوراته، وتوقعاته؛ لذا فقد وقف فور ظهور القتلة، وسطوع نواياهم وهم يلقون بقنابل على المنصة، قبل أن يصوبوا بنادقهم

الآلية إليه. وقف السادات مصدومًا، وكأنه يتصور أن وقوفه كفيل بإنهاء الأمر، والتأثير في أبنائه، صغار العقول الذين لا يعبأون بما قدم من إنجازات للوطن، ليُقنعهم بالعدول عن إجرامهم. لكن على أي حال، كان القدر قد خط مشهد النهاية في حياة الرجل، وشاءت إرادة الله ألا يرتدع الجناة لوقفة السادات، بل إنهم تصوروها تيسيرًا من الله لهم لإتمام عملهم، فصار المطلوب هدفًا أسهل للقنص.

ربما كان السادات مُقتنعًا في نفسه بأن موته غدرًا أمر وارد، وهو الذي لعب دورًا مثيرًا خلال شبابه في عمليات فدائية وإرهابية لاغتيال ساسة مصريين بدعوى علاقاتهم بالاحتلال الإنجليزي. ربما كان وهو عسكري مخضرم، عايش صراعات الدببة والذئاب حول جمال عبدالناصر، يعرف أن أعداءه كُثُر، وأن تربصهم به محتمل، وقد حقق ما يصبو إليه في النصر، والتسوية السلمية لاسترداد أرض مصر، وإعادة فتح قناة السويس. وربما كان يُدرك أن هناك متعصبين إسلاميين، تتسع مساحات تأثيرهم كل يوم، يرونه علمانيًا يستورد نظمًا غربية ويحيي حياة بعيدة عن تصوراتهم للحكام المسلمين. ربما كان يعرف أن قتله أمر مرجح، لكنه كان يستبعد التوقيت تمامًا، فما زالت هناك أرض مصرية (سيناء) لم تُسلَّم بعد، وهو في كامل هيئته الرسمية، ورجال الأمن حوله يؤكدون أن كل شيءٍ على أفضل ما يكون. وكما يقول المثل

العربي الشائع: «يؤتى الحذِر من مأمنه»(46).

ومع هذه النهاية القاسية، فقد كان من المفترض أن ينبت وراءها شعور عام بالتعاطف مع الزعيم الذي قطعًا لا يستحق القتل، ولا الغدر به بهذا الشكل، وفي هذا التوقيت. كان المتوقع أن ترثيه المراثي، وتطوقه كلمات الوداع وقصائد التأبين باعتباره شهيدًا فقد حياته غيلة بلا رحمة على أيدي شباب يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

كان من المنطقي أن يُحسن الناس ذكر الرجل، وأن يحظى بتقدير معنوي، ويحصل على الإنصاف التاريخي من صناع الثقافة في بلد حضاري مثل مصر.

لكن ذلك لم يحدث. والمؤسف أن مبدعين كبارًا انزلقوا في مستنقع آسن للعن الضحية، وتبرير عمل القاتل، بل والإشادة به وتعظيمه. وستُصدم عندما نقرأ أسماء ونصوص زملائنا الكتاب والمبدعين الذين قتلوا السادات مرة أخرى بعد قتله.

***

-2-

الشاعر أحمد فؤاد نجم، شاعر غنائي لافت أحببت موهبته واقتربت منه خلال حياته، لكنني لا أقبل كثيرًا من مواقفه وآرائه السياسية. عُرف نجم بطول لسانه، فلمع في

الستينيات بقصائد ساخرة تضمنت هجاءً قاسيًا، ونالت من عبدالحليم حافظ، والسيدة أم كلثوم وغيرهما(45). ربما صعد الشاعر إلى النجومية بكلمات قاسية حادة لم تترك صغيرًا أو كبيرًا إلا واستباحته، وذاعت تلك الكلمات مع تلحينها وغنائها بواسطة الشيخ إمام(44)، ولم يكن غريبًا أن يدخل السجن مرارًا خلال عهدي جمال عبدالناصر وأنور السادات.

بالطبع لم يكن ذلك غريبًا، فمعارضة أي حاكم أمر طبيعي ومنطقي، خاصة إذا شهد عهده سياسات تحول واضحة، لكن الموجع في الأمر أن تمتد المعارضة الفكرية أو الاختلاف السياسي إلى خُلق مُشين مرذول ومخاصم للنبل الإنساني، وهي الشماتة في الموت. ببساطة لأن كأس الموت دوارة، وكل إنسان ذائقه، ولأن موت الإنسان حكم لدى النبلاء بإيقاف خصومات وعداوات البشر، فكما قال الشاعر:

لا تظلموا المَوتى وإن طال المدى

إنِّي أخافُ عليكمُ أن تلتقوا(43)

والأكثر إيلامًا أن يتخلى الإنسان السلمي عن سلميته، ويتحول إلى إرهابي يطرح الآراء ذاتها التي سبق واعتبرها إرهابًا بغيضًا، وهذا ما فعله الفاجومي عندما كتب قصيدة

مدح غريبة في خالد الإسلامبولي(42) يُحيي فيها فعله الغادر بقتل السادات.

لقد كان متاحًا للفاجومي ألا يترحّم على السادات، ألا يدين قتله، أن يغتبط سرًّا لنهاية رجل تسبب في سجنه، أن يصمت احترامًا لهيبة الموقف، أن يبوح باختلافه في الرأي والموقف السياسي مع الزعيم الراحل ويكتفي بذلك. كان ممكنًا ألا يلتفت الشاعر المفترض أنه إنسان أولًا للحادث، يتظاهر بالانشغال بأغنية عاطفية، أو يتصعلك كعادته في حكايات مُسلية، أو يفعل أي شيءٍ بعيدٍ عن الموضوع، دون أن ينفخ في الإرهابي، ويتغزَّل فيه، ويعتبره واحدًا من أولياء الله الصالحين.

تقول القصيدة التي سارعت منصات الإرهابيين إلى الاحتفاء بها وتوزيعها ونشرها وتسجيلها للتحفيز على الاغتيال السياسي:

أصل الحكاية ولد

فارس ولا زيه

خد من بلال ندهته(41)

ومن النبي ضيه

ومن الحسين وقفته(40)

في محنته وزيه

قدم شبابه فدا

والحق له عارفين

خالد

يا ابن الربيع والأمل

والشمس والزينة

مين يا فتى علمك

فعل الخريف فينا

وكبرت بره الزمان

اللي ابتلاك بينا

نايمين على ودننا

مع إننا عارفين

وتضيف القصيدة محتفية بعظمة مجموعة الاغتيال جميعًا وتُحييهم فردًا فردًا فتقول:

الملك لك يا فتى

يا مصري يا حليوه

رقصت نجوم الفلك

بالضي تتعانق

والشمس ويا القمر

في برجهم عارفين

شيل الغطا يا عطا(39)

عبدالسلام مددين(38)

عبدالحميد يا فتى(37)

قطب الرجال يا حسين(36)

داعي المروءة دعا

والعمر مش عمرين

خالد يقول صحبتي

واحنا الجميع عارفين

الله أكبر ع الباغي والجبار

طعن الفتى طعنته

خار الأغا وانهار

المجد ده ابننا

والفارس الكرار

راكب على مهرنا

والكدابين عارفين

ويواصل الفاجومي مخاطبًا القاتل بكل تقدير:

مين يا فتى علمك

لعب العصا ع الخيل

وازاي قطفت القمر

من فوق شواشي الليل

وطبعت نجم السما

بالوشم على زندك

الاسم خالد

ولكن عاشق ولك هندك

أم الدلال علمك

طبع الأسود عندك

مين يافتى علمك

عشق الملاح والميل

هندك يا أدهم هنا(35)

أصلك وسلسلالك

والناس يا خالد هنا

عمك.. هنا خالك

يا غنوه من قهرنا

اسمك ومووالك

ويا الربيع والأمل

في دمنا عايشين

وليه أجيب ناس

لمعناة الكلام عارفين..

الجميل في الأمر أن الشاعر لم ينشر قصيدته ضمن أعماله الكاملة المطبوعة في مصر، لكن ذاكرة التسجيل والتوثيق احتفظت لنا بتسجيلات مرئية أعاد بثها تطبيق يوتيوب لحفلة شهيرة له في فرنسا سنة 1984، وهو يفتخر بقصيدته

ويلقيها وهو يرتدي الكوفيه الفلسطينية أمام مجموعة من الحاضرين من الجالية العربية التي كانت تعتبر السادات خائنًا بسبب توقيعه معاهدة السلام.

***

-3-

يُمثل الكاتب والأديب جمال الغيطاني نموذجًا رائدًا لمبدع عصامي موهوب صنع مجده بإمكانات محدودة، وترك بصمات خالدة في عالم السرد، والتاريخ، وله أفضال عظيمة لا يمكن إنكارها على أجيال من المبدعين والكتاب.

لكن ذلك كله لا يمنع أن نندهش ونتعجب لحدته اللافتة تجاه الرئيس السادات ورؤيته لعملية اغتياله باعتبارها عملًا فدائيًّا عظيمًا، بل إنه يستدعي شخصية خالد الإسلامبولي لتكون إحدى شخوص كتابه الماتع «التجليات»(34). فيصوره باعتباره شهيدًا عظيمًا خالدًا اسمًا وفعلًا يستحق منه ومنا كل الإعجاب والتقديرا!

في النص الأدبي الذي يكتبه يراه فيه قادمًا من بعيد وكأنه طائر أخضر اللون. يقول الغيطاني في نصه: «رأيت نقطة خضراء، درجة ليست بزمردية، ولا زرعية، ولا ربيعية، أو خريفية، لا تقترب من الصفرة أو الزرقة، ومن المعروف أن

اللون الأخضر ينشأ من اختلاط اللونين الأصفر والأزرق، وبقدر غلبة أحدهما على الآخر تتحدد درجة الخضرة. إن لون النقطة الخضراء لم تقع عيناي على مثله، مشع، براق، وهادئ أيضًا، وواضح كزرقة البحر في المواضع العميقة، وفضية القمر في الليالي الصافية، وضوء الصبح. حدقت بعيني، تقترب النقطة الخضراء مني، أستكين فلا أرحل، إذا بها طائر لكنني لم أتبين ملامحه، قادم من سمت القبلة، يتيامن ثم يشرق، ثم يطير إلى الجنوب، ثم يبعد تجاه الشمال، كل هذا وهو في دنو مستمر مني، حتى صار في مواجهتي، فإذا هو ضياء خالص، ونور صرف، ومن ذلك تتشكل الملامح الإنسانية التي تعلقت بها غير مصدق، وعندما اكتمل وجه الطائر الآدمي زعقت: أنت أنت»(33).

وهذا الذي يراه المبدع طائرًا أخضر جميلًا ليس سوى قاتل السادات، الإسلامبولي نفسه، وهو ما يتضح في السطور التالية وهو يقول: «لم أعرفه إلا في صور المحاكمة المطبوعة والمرئية، مدثرًا بالبياض، يلف قضبان القفص الحديدي، كذا صور الهجوم، يندفع في قلب النهار، عبر مركز الضوء، معه صحبة صدورهم عارية داخل مرمى الخطر كله، يقتحم المنصة ليلخص زمنًا، وينقذ أمة، عرفته في الصور المرئية التي التقطت على عجل، ينزل من عربة النقل، يلقي

القنبلة، ثم يعود في ثوانٍ ليمسك المدفع، عرفته بخيالي وها هو أمامي حرًّا من كل قيد، مكشوفًا من كافة الحجب، طائرًا أخضر من ضوء، ها هو يثبت جناحيه حتى يستمر معلقًا في الفراغ. أقول بحنان عظيم: تكلمت أنا وفعلت أنت. تمنيت أنا وتمنى غيري وأديت أنت»(32).

المهم أن الغيطاني يواصل حديثه مع خالد الإسلامبولي ويبصر في صدره تجويفًا أحمر نتيجة رصاصة قتله إعدامًا، ويسأله في عطف غريب إن كان قد تألم عند إعدامه، فيجيبه الطائر الأخضر بأن الله منحه ما يحتاج من قوة. وهو ينظر إلى الجمال في كل مكان فيرى أثرًا لخالد الإسلامبولي فيه، حتى النجم الساحر، ويدعو القارئ أن يتذكر دماء خالد الذي خلص الناس جميعًا من شر مستطير.

ورغم الموقف شديد العدائية الذي اتخذه الأديب من التيار الديني، وما عُرف زيفًا بالصحوة الإسلامية، ورغم موقفه شديد الاختلاف مع تجربة الإخوان المسلمين في مصر، إلا أن موقفه من الإسلامبولي، قاتل السادات بفتوى دينية لم يتغير ولم يقم بالرجوع عن آرائه. وكان من المؤسف أن يظل عداؤه للسادات قائمًا حتى رحيله، فيقول في إحدى المحاورات الصحفية التي نشرتها الصحف له قبل مرضه الأخير إن السادات أجهض نصر أكتوبر. وهذا القول مخالف

تمامًا لواقع المتابعة الدقيقة للصراع العربي الإسرائيلي(31).

***

- 4 -

يوسف إدريس واحد من مبدعينا الرواد، الذين يجب أن نفتخر بما قدموه من جمال ما زال حيًّا، ماتعًا ومعلمًا إلى الأبد. فالأديب الكبير بسحر وجمال ما قدمه من قصص قصيرة، ومسرحيات، ومقالات إنسانية، يُمثل مثالًا فريدًا للأديب ذي الجمال اللافت، والنظرة العميقة، المتمكن من أدواته، القادر على تطويع اللغة، وتنويع الثقافة لرسم جمال حقيقي مدهش. لكن ذلك الإطناب في الجمال لا يجب أن يُنسينا واحدة من خطاياه المرة، المتمثلة في كتابه الغاضب «البحث عن السادات»(30).

والحقيقة فإن التبريرات كافة التي ساقها يوسف إدريس لامتصاص حدة الغضب المبرر من قبل صحفيين وكتاب مصريين تجاه الكتاب لا يمكن قبولها، فإدريس طعن في وطنية السادات بعد مقتله، ونفخ في تصورات واهية وعبارات مُرسلة أطلقها خصومه من المصريين ومن العرب بعد توقيعه معاهدة السلام، ولم يرَ عيبًا في أن يقبض مقابل

ذلك مكافأة مالية تتجاوز قيمة أي مكافأة لمقالات منشورة في صحف عربية وقتها، بل ويعتبر ذلك الأمر أمرًا طبيعيًا.

وكان من الغريب أن يوسف إدريس عمل عن قرب لفترة طويلة بعد ثورة يوليو مع السادات في جريدة الجمهورية، وانتقل معه للعمل في المؤتمر الإسلامي، وقام بكتابة ثلاثة كتب كبيرة حملت جميعها اسم أنور السادات كمؤلف ونُشرت باللغة الإنجليزية في دور نشر أجنبية(29).

لكن الغريب أن مجمل الكتاب يخلص إلى اعتبار السادات أحد اثنين، إما عميل مزروع في بلادنا بمهمة واحدة ووحيدة هي خدمة الصهيونية العالمية، أو إنه شخص شديد السذاجة، منعدم الفهم، وصل إلى السلطة بضربة حظ، وربما بتخطيط مسبق من الأعداء. وحسبنا أن نستشف ذلك من عبارات يُكررها الرجل عبر ثنايا كتابه اللا عقلاني من عينة «وصل السادات إلى كامب ديفيد وقد سلم آخر قطعة من ملابسه لدى أول خطوة خطاها داخل المعسكر بتعبيره الصريح، وصل عاريًا...»(28)، و«في كامب ديفيد أخذت إسرائيل كل ما يمكن أخذه، وأعطى السادات كل ما كان بإمكانه إعطاؤه...»(27)، و«خسرنا كل شيء وكسبوا هم كل شيء»(26) وهي عبارات جميعها مناقضة للحقيقة وأثبتت الأيام خطأها الفج.

وحسبنا أن يقارن يوسف إدريس بين نصر السادات وهزيمة جمال عبدالناصر، فيصدر حكمًا لا منطقيًّا مفاده أن هزائم جمال عبدالناصر أفضل من انتصارات السادات! فيقول: «ورغم الهزائم التي مُني بها جمال عبدالناصر عسكريًّا، فقد كانت هزائم عسكرية فقط، ونتائجها كانت قوة للثورة»(25).

ومثل هذا الكلام المرسل الذي لا يستند إلى أي تقييمات رقمية أو نتائج يمكن لمسها، يجعلنا نقول بلا غضاضة إن يوسف إدريس الأديب القصصي جنى على قيمته عندما تحول للكتابة السياسية، فجاء تحليله متطابقًا مع مصطلح «أي كلام»، لا منطق له، وكأنه يحاول إرضاء جريدة «القبس» التي كان يكتب فيها وقتها، والتي كانت مثل بقية المنابر العربية تتخذ موقفًا عدائيًّا من معاهدة السلام، ومن السادات نفسه.

لكن نص يوسف إدريس في حق السادات يتجاوز النقد السياسي غير المنطقي، والاختلاف في الرأي، وإن كان لا يستند لفكرة قوية، ويتسع ليصل إلى مستوى التخوين، والسب، ونفي الصفات الأخلاقية الحسنة، وهو ما يتجلى بوضوح في الفصل الأخير من الكتاب، والذي يحمل عنوان: «الخيانة مرتبة أعلى»، إذ يشير فيه إلى أننا لو راجعنا كل

أفعال الرجل لانتهينا إلى أنه يفتقد لأي مراجعة يقوم بها الضمير، وإنه لا يخاف من أحد حتى الله، وأن خوفه هو خوف على النفس والذات والثروة.

بل إنه يرى أن اختيار جمال عبدالناصر للسادات نائبًا له هو اختيار أوعزت به الاستخبارات الأمريكية عن طريق مستشاريها والذين كان يحتل بعضهم أمكنة قريبة من صانع القرار، ولعلمهم بقلة شعبيته وهوان شأنه، وكان ـ السادات ـ عند حسن ظنهم. «ففي أقل من أربع سنوات كان اتجاه مصر الثوري قد صُفِّي تمامًا لمصلحة أمريكا، ومن معاداة الاستعمار إلى التسليم الكامل له.. وأفقنا جميعًا لنجد مصر قد دحرجها السادات وعصابته إلى مستنقع مجاري لا مكان لرجل نظيف أو عمل نظيف أو تصرف سوي فيه»(24).

وينتهي إدريس واصفًا الرجل المقتول بـ «رجل ليس لديه خارج قدرته على الغدر بارقة ذكاء واحدة»، ثم يشمت في قتله قائلًا: «إن مصرع السادات بتلك الصورة يمثل نهاية النهاية وتنفيذ حكم الإعدام في الخائن»(23).

ـ 5 ـ

لم يكن قتل السادات عملًا بطوليًا. لم يُحاكم الرجل أمام محكمة ـ ولو ثورية ـ وقضت عليه بالإعدام. لم يقاضه

مظلوم وحصل على حكم إدانة. لم يُسلِّم الحاكم الموصوم بتهم الخيانة أرض بلاده للأعداء، بل أعاد بحنكة وحكمة أرضًا مغتصبة.

كل الحكاية أن مهووسًا دينيًّا، نصف مثقف، قرأ كتابًا ـ ربما لم يقرأ غيره ـ واقتنع بأن الحاكم كافر لأنه يحكم بغير ما أنزل الله، فقرر تطبيق كلمة الله، أن ينوب عن الله في الأرض ويُزهق روح إنسان.

وهنا فلا شبهات ولا غيره. القتل قتل. عمل قبيح، لا يمكن أن يتلاقى مع الجمال، وأي تصفيق لقاتل فهي مشاركة ناعمة، وتورط مؤكد، وانزلاق للنفس الإنسانية إلى هوة التوحش.

لا نغفر لمَن ولغوا في دم السادات بعد مقتله، فقد صار بلا سلطة، ولا نفوذ ولا قرار، وهذه الشماتة تماثل ما فعله كثير من الإرهابيين وأبواقهم في التشفي في مصارع خصومهم عبر الأزمنة.

إننا قطعًا لا نغفر للشيخ الذي يطرح نفسه رجل دين عصري، ميسرًا على الناس، ومفتيًا للاتحاد الأوربي وهو يوسف القرضاوي؛ شراكته في قتل السياسي المصري محمود فهمي النقراشي(22) في 28 ديسمبر سنة 1948.

كان الشيخ وقتها طالبًا بالأزهر، وعضوًا في جماعة الإخوان المسلمين، وكتب قصيدة شعر يمدح فيها عبدالمجيد حسن، قاتل النقراشي يقول فيها:

عبدالمجيد تحية وسلام

أبشر فإنك للشباب إمام

سمَّمت كلبًا جاء كلبٌ بعده

ولكل كلبٍ عندنا سمامُ(21)

وكأن الشيخ الشاعر يبعث برسالة تهديد وإرهاب لإبراهيم عبدالهادي(20).رئيس الوزراء التالي الذي أقسم أن ينتقم من قتلة النقراشي.

إن ذلك يذكرنا بحكاية وردت في ثنايا كتب التاريخ، تقول إنه في 21 رمضان سنة 40 هجرية، كمن الإرهابي الخارجي عبدالرحمن بن ملجم، للإمام علي ابن أبي طالب الصحابي الجليل، في المسجد عند صلاة الفجر، ثم ضربه غيلة بالسيف على رأسه، وهو يهتف: «الحكم لله. لا لك يا علي ولا لغيرك»، ورد الإمام وهو يجود بأنفاسه الطاهرة: «فزتُ ورب الكعبة». فيما بعد قُتل القاتل جزاءً لفعله الخسيس، لكنه بقي رمزًا لدى الخوارج يستدعونه كبطل مغوار عظيم الشأن يجب الاقتداء به، فكتب الشاعر الإرهابي عمران بن حطان مادحًا إياه

بقصيدة طويلة جاء فيها:

يا ضربة من تقي ما أراد بها

إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره حينًا فأحسبه

أوفى البرية عند الله ميزانا

ورد عليه الشاعر بكر الباهري قائلًا:

بل ضربةٌ من غوِي أوردته لظًى

وسوف يلقَى بها الرحمن غضبانا

****

ـ 6 ـ

تعالوا نُشقلب التاريخ. نفترض ما لم يحدث لنعلم قيمة ما حدث. نُعيد القراءة بتجرد وخشوع وموضوعية.

ماذا يمكن أن يكون عليه حال سيناء اليوم لو لم يوقِّع الرئيس الراحل أنور السادات معاهدة السلام؟

ماذا لو قبلت مصر نداءات الإذاعات العربية، واستجابت للمظاهرات المُسيرة شرقًا وغربًا لرفض السلام؟

ما هو الحال لو اصطففنا خلف شوارب زعماء الرفض، وقُلنا لهم صداقتكم بالدنيا وما فيها، وما ترونه هو الصواب، وما ترددونه هو الصحيح المطلق؟

ماذا لو آمنَّا بالمقولة منقطعة الصلة مع علم السياسة التي اصطكها الرئيس جمال عبدالناصر بأن «ما أُخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة»؟

ما هو حال سيناء لو لم يُصر الرئيس السادات على رؤيته واستجاب لتظاهرات واحتجاجات الناصريين والقوميين ومناصري الرفض، ولم يذهب إلى القدس ولم يوقِّع اتفاقية السلام؟

الإجابة بوضوح وبساطة هناك. في أرض سوريا الحبيبة: الجولان.

لكن سيناء الآن في حضن مصر.تتدفق القوات المصرية في ربوعها كما تشاء، تتبع فلول الظلاميين وتصطاد القتلة منهم، تضع خططًا مستقبلية للتنمية، ترسم مشاريع حضارية، وتمد يد العمران والبناء.

والجولان، مستوطنة بائسة حزينة، صارت جزءًا من الكيان الصهيوني. لا مقاومة تشهدها، ولا تنمية ولا أي شيء. منفصلة عن الجسد الأم ناسًا، وثقافة، ومجتمعًا.

في 26 مارس سنة 1979 امتلك السادات شجاعة السلام، وهي في رأيي أكثر صعوبة من شجاعة الحرب. كان يعلم أنه سيُلعن من أنظمة احترفت التجارة بالقضية عقودًا وعقودًا. كان يعي أن صوره ستُحرق في عواصم عربية، وستُخونه أقلام، وستُكفره عمائم. كان يدري بدون شك أن كل «الهتّيفة» العرب سيأكلون لحمه ولحم مصر ويرددون مع نزار قباني بدون تفكر: «ما هذه مصرٌ فمصر تهودت ... فصلاتها عبريةٌ وإمامها كذاب»(19).

كان السادات واعيًا بالمستقبل، عليمًا بأدمغة الأمريكيين، قادرًا على استثمار الفرص السانحة في تحقيق مصالح وطنه. ولا شك أن علماء السياسة العالميين يدركون اليوم عبقريته وذكاءه؛ لذا لم يكن غريبًا بعد 40 عامًا من توقيع الاتفاق التاريخي أن يمنحه الكونجرس الأمريكي ميداليته الذهبية بموافقة ثلثي أعضائه، وهي بالمناسبة ميدالية لم تُمنح من قبل لشخص عربي(18).

لقد رأيت وعاينت تقدير وإدراك الباحثين الأمريكيين الكبار لعبقرية السادات، وهو تقدير متواصل إلى الآن، لدرجة أنه توجد درجة علمية في السياسة في بعض مراكز الأبحاث الأمريكية تسمى «كرسي السادات» لا تُمنح إلا للمتفوقين من الباحثين.

أقول إنني رأيت اهتمام الآخرين بعقل الرجل، وأعرف أنه لم ينَل حقه من أهل وطنه الذين اختلفوا عليه. سيقول قائل: كان مستبدًّا. أوافقه. لم يكن ديمقراطيًّا. أتفق. له خطايا وسقطات. بالطبع، فسبحان مَن له الكمال. لكن على أي حال فهو رجل سبق عصره. وعقل نفع بلده.

***

---

(47) تقرير الطبيب الشرعي عن وفاة السادات في 18 نوفمبر 1982 بتوقيع دكتور رمزي أحمد، ودكتور عبد الغني البشري.

(46) يُروى هذا المثل عن أكثم بن صيفي التميمي، ومعناه أن الحذر لا يدفع عن الإنسان ما لا بد منه وإن جهد جهده.

(45) للشاعر أحمد فؤاد نجم قصيدة وصف فيها عبدالحليم حافظ بالدلوعة الذي يغني أهواك، وأخرى تصف أم كلثوم بإيد الهون، وكلاهما منشورتان في الأعمال الكاملة للشاعر طبعة دار الأحمدي.

(44) الشيخ إمام عيسى: ملحن ومطرب شعبي مواليد 1918، كُف بصره وتتلمذ موسيقيًّا على يد زكريا أحمد،

وشكل مع الفاجومي ثنائيًا لاذعًا، ورحل سنة 1995.

(43) بيت شعر لأبي العلاء المعري، وقبله يقول: « الغيبُ مجهولٌ يُحارُ دليلهُ / واللُّبُّ يأمرُ أهلهُ أن يتَّقوا».

(42) خالد الإسلامبولي: ضابط مصري من مواليد المنيا في 1958، تبنى الفكر التكفيري، وترأس مجموعة اغتيال السادات في أكتوبر 1981، وحُكم عليه بالإعدام ونُفِّذ فيه الحكم في إبريل 1982.

(41) يقصد الشاعر، الصحابي الجليل بلال بن رباح، مؤذن الرسول ﷺ.

(40) الحسين بن علي بن أبي طالب، حفيد النبي ﷺ الذي ثار على يزيد الأموي واستُشهد في كربلاء سنة 61 هجرية.

(39) الشاعر يُشير هنا إلى عطا طايل حميدة ضابط احتياط مهندس، شارك في عملية اغتيال السادات ونُفِّذ فيه حكم الإعدام يوم 15 إبريل 1982.

(38) إشارة إلى المهندس محمد عبدالسلام فرج، مخطط العملية، وهو مهندس كهربائي ومؤلف كتاب «الفريضة الغائبة»، وقد أُعدم لتخطيطه للعملية رغم عدم مشاركته المباشرة فيها.

(37) يُشير الشاعر إلى عبدالحميد عبدالسلام أحد أعضاء فريق اغتيال السادات، وهو ضابط سابق في الدفاع الجوي، ونُفِّذ فيه حكم الإعدام يوم 15 إبريل 1982.

(36) حسين عباس: شاويش قناص بالجيش المصري، شارك في عملية الاغتيال وأُعدم رميًا بالرصاص في إبريل 1982.

(35) إشارة إلى البطل الشعبي أدهم الشرقاوي.

(34) جمال الغيطاني ـ كتاب التجليات «الأسفار الثلاثة» ـ طبعة الشروق 1986.

(33) جمال الغيطاني ـ المصدر السابق، ص 220.

(32) جمال الغيطاني ـ المصدر السابق ص 221.

(31) انظر تصريحاته لموقع «مصراوي» في ديسمبر 2014 وفيه يقول إن السادات أكبر خطأ في تاريخ جمال عبدالناصر، ولموقع «صدى البلد» في مايو 2015 وفيه يقول إن السادات أجهض نصر أكتوبر.

(30) صدر الكتاب عن المنشأة العامة للنشر والتوزيع بالجماهيرية العربية الليبية سنة 1984 وهي تجميع لمقالات

نشرها يوسف إدريس في جريدة «القبس» الكويتية منتقدًا عصر السادات، ومواقفه، وشخصه خلال فورة المقاطعة العربية لمصر اعتراضًا على توقيعها معاهدة السلام سنة 1979.

(29) بشري عبدالمؤمن ـ أنا يوسف إدريس ـ ريشة للنشر ص160.

(28) يوسف إدريس ـ البحث عن السادات - ليبيا 1984، ص 132.

(27) يوسف إدريس ـ المصدر السابق ص 152.

(26) يوسف إدريس ـ المصدر السابق 157.

(25) يوسف إدريس ـ المصدر السابق ص 164.

(24) يوسف إدريس ـ المصدر السابق من 174 إلى 178 (بتصرف).

(23) يوسف إدريس ـ المصدر السابق في مستهل المقال الأول ص 50.

(22) محمود فهمي النقراشي: سياسي مصري ولد سنة 1888. لمع ضمن الجهاز السري لثورة 1919 وانشق عن

الوفد مع صديقه أحمد ماهر، وتولى رئاسة الوزراء خلفًا له، واغتيل على يد أحد أعضاء الجهاز الخاص للإخوان المسلمين بسبب قيامه بحل الجماعة.

(21) يوسف القرضاوي ـ ابن القرية والكُتَّاب ـ الجزء الثاني . ص 337.

(20) إبراهيم عبدالهادي: سياسي مصري، ولد سنة 1896، بدأ حياته السياسية في حزب الوفد، وانضم إلى السعديين، وترأس الحكومة المصرية عقب اغتيال النقراشي، وحوكم بعد ثورة يوليو بدعوى التورط في اغتيال حسن البنا، وحُكم عليه بالإعدام، وخُفف الحكم بعد ذلك، ثم خرج بعفو صحي، وتوفي سنة 1981.

(19) هذا البيت من قصيدة طويلة قالها نزار قباني في تونس احتفاءً بقرار نقل الجامعة العربية إليها سنة 1980 عقابًا لمصر على توقيعها معاهدة السلام. وفيها يقول نصًّا: «مَن ذا يصدق أن مصر تهوَّدت/ فمقام سيدنا الحسين يباب/ ما هذه مصر... فإن صلاتها /عبرية... و إمامها كذاب/ ما هذه مصر ... فإن سماءها/ صغرت ... وإن نساءها أسلاب».

(18) في فبراير 2019 زار مصر وفد رسمي يمثل الكونجرس الأمريكي، وأعلن منح الرئيس السادات قلادة

الكونجرس الذهبية، وهو أول عربي يحصل عليها.

وسليمان بن خاطر ليس قديسًا نبيا

«كيف يوصف قاتل النساء والأطفال بالبطولة؟»

فرج فودة متسائلًا عن سليمان خاطر

- 1 -

لا يمكن مساواة البطل بالمهووس، والفدائي بالإرهابي، والمناضل بالسفاح. ليس كل مَن حملوا السلاح في وجه إسرائيل يستحقون احترامنا وتبجيلنا وتعظيمنا، فثمَّة مَن حملوه شذوذًا وجنونًا، وثمَّة مَن وقفوا في الصف المواجه لدولة الكيان الصهيوني، لكن وقفتهم لم تمنحنا شرفًا ولم تزدنا عزَّة.

وربما من أشهر الأمثلة على ذلك المجند سليمان محمد عبدالحميد خاطر، الذي قتل سبعة سياح إسرائيليين في سيناء في خريف سنة 1985 فاعتبره الحس الشعبي بطلًا مغوارًا، وخلَّده البعض، وكأنه فدائي عظيم حقق نصرًا مجيدًا.

أما وجه اعتراضي شخصيًا فيتمثل في أن هذا البطل الوهمي قتل عزلًا مدنيين، غير محاربين لا يحملون سلاحًا، ودخلوا إلى مصر كضيوف بوثيقة رسمية، تمنحهم الأمان.

والأنكى من كل ذلك أن الإسرائيليين السبعة الذين قتلهم هذا المهووس يضمون رجلًا وحيدًا في الاثنين والأربعين من عمره، وزوجته وهي سيدة في الأربعين، وسيدة أخرى في الخامسة والثلاثين، وأربعة أطفال تتراوح أعمارهم بين عشرة واثني عشر عامًا.

صحيح أن إسرائيل تبقى رمزًا للجريمة الإنسانية، وصحيح أنها ارتكبت مجازر عديدة بحق المصريين والعرب، وصحيح أن آلتها العسكرية لم تفرق بين مدني وعسكري، وبين شاب وطفل أو امرأة، وصحيح أيضًا أنها غدرت مرات ومرات، ولم تراعِ نبلًا ولا أخلاقًا في الصراع الدائر مع العرب. لكن مَن قال إن القبح يُبرر القبح، ومَن رضي بالرد على لا أخلاقية الخصم بلا أخلاقية موازية؟

أي بطولة وأي فدائية وأي كرامة إنسانية في إزهاق أرواح هؤلاء السياح ولو كانوا إسرائيليين؟ وأي خبل سمح لميكروفونات الاتجار بالعداء لإسرائيل أن يضعوا إرهابيًا وقاتلًا مهووسًا مثل سليمان خاطر في خانة واحدة مع فدائيين وأبطال عظام مثل محمد عبدالعاطي صائد الدبابات خلال الحرب!

أي بذر لبذور الإرهاب، وأي شرعنة للعنف ضد الإنسان الآمن المسالم، وأي جنوح ضد القيم والأخلاق!

مهما كان مقدار الحنق والكراهية النابتة في قلوبنا تجاه إسرائيل، فلا توجد أخلاق تسمح لنا بالتشفي في قتل أطفال، والاحتفاء بسفاح مريض نفسيًا. ليس مقبولًا تحت أي سند منطقي أن تخرج المظاهرات مساندة له ومطالبة بالإفراج عنه، ثم مُحدثة شغبًا بعد واقعة انتحاره أو مصرعه بمحبسه في يناير سنة 1986 وكأنه واحد من رموز مصر الوطنية.

لقد كتب الشاعر العراقي مظفر النواب(17) قصيدة طويلة في تمجيد سليمان خاطر قال فيها:

وسليمان بن خاطر كان قديسًا نبيًّا

وإمامًا قبَّل القبر بأكياد(16)

فهذا الهرم الطفل احتوى مصر كلها

يا سليمان بن خاطر:

طهر البيت من الأرجاس والأوثان

أذن.. ليس بين الحق والظلم سلام

يكره الله كما هذا سلام

رأس مصر يا نبي الله مطلوبٌ

ودبج شعراء آخرون كثر قصائد مدح في قاتل الأطفال،

فكتب مثلًا محمود الطويل عنه قائلًا:

أضمك وجرحي بينزف قُبل

برغم اللي خانوا

ورغم اللي هانوا

ورغم اللي كانوا في غاية الخجل

وما زال أهالي مدينة أكياد مركز فاقوس بالشرقية يحيون ذكرى رحيل المجند المهووس الذي قتل الأطفال والنساء كل عام، ويخرجون بالطبل والمزامير محتفين ومحتفلين.

***

-2-

الآن يُمكننا النظر بتعقل، وروية، ودون انفعالات لا منطقية. بعد مرور هذه السنوات الطويلة على الجريمة لا أستطيع تقبل فكرة «تبطيل» الجاني، وتحقير الضحايا، مهما كانت مواقفنا الشخصية، ومهما كان مقدار الغِل والكراهية النابتة في قلوبنا تجاه الدولة الصهيونية.

في صباح 5 أكتوبر سنة 1985 كان مجموعة من السياح الإسرائيليين يتجولون في سيناء عندما صعدوا إلى جبل صغير بالنقطة رقم 46، ورآهم الجندي سليمان خاطر، فقال

لزميله إنه سيصعد للتحدث معهم، ثم صعد وراءهم، وسمع الجميع بعد ذلك دوي الرصاص، ثم نادى على زملائه ليصعد أحدهم ويجد سبعة جثث مكومة تنزف منها الدماء، وفي هدوءٍ غريب سلم الجاني نفسه.

ربما كان هذا الحادث وارد الحدوث والتكرار، فكم لدينا من مهاويس ومجانين وقتلة دون أسباب، لكن ما كان غريبًا هو أن يتحول هذا المهووس إلى بطل، بل وإلى رمز للكفاح ضد الصهيونية، وتُعقد المؤتمرات احتفاءً بصنيعه، وتوزع صوره على الناس في الشوارع، وتُحشد المظاهرات مطالبة بالإفراج عنه.

لقد افتعل خطاب الكراهية الغوغائي، وهو خطاب متهافت، لكنه مؤثر، وهو موجّه غالبًا من جهات وتيارات سياسية لها أغراضها في لعبتها مع السلطة، حملة تنجيم غير طبيعية للولد المهووس، وسريعًا تم اعتبار قاتل النساء والأطفال بطلًا مغوارًا.

وفي هذا الموقف فقد تخلى أصحاب الميكروفونات النضالية عن أدنى درجات العقل والنبل الإنساني وهم يسوقون القطيع لقلب الغدر بالآمنين إلى شرف، والتصفيق للخسة والجنون.

وقتها قال عمر التلمساني(15) مرشد الإخوان المسلمين إن ما فعله سليمان عمل جليل يتمنى أن يقفه كل مصري إزاء إسرائيل(14).

وقال إبراهيم شكري(13): إن سليمان خاطر عبَّر عن غضب المصريين جميعًا بما قام به، وإن قالوا عنه إنه مختل التفكير والعقل، فإنني أقول إنه عبَّر عن كل الحكماء في مصر(12).

وقال وزير الخارجية الأسبق محمد إبراهيم كامل(11): «لقد عبَّر سليمان عن مشاعر كل مصري وكل عربي بعد الغارة الإسرائيلية على تونس»(10).

وتبدو المفارقة موجعة عندما نتخيل كيف أمكن لهؤلاء قبول جريمة قتل الأطفال على يد المجنون لا لشيء سوى لاختلافهم مع الدولة المصرية في توقيع اتفاق سلام أعاد لمصر أرضها الغالية.

إن أبسط مقومات التفكير العقلاني تدفعنا لافتراض وقوع الحادث في الجهة المقابلة للتعرف على شعورنا تجاه قتل عُزل آمنين وأطفال ونساء بالرصاص البارد عنوة دون سبب واضح. وعلى هؤلاء جميعًا ومَن يرون رؤيتهم محاسبة أنفسهم ومراجعة ضمائرهم فيما رأوا وقالوا وروجوا.

إنني أظن ـ وليس كل الظن إثم ـ أن ذلك التصرف كان وما زال أحد مفارخ العقلية المصرية لتوليد إرهابيين وقتلة وسفاحين بحثًا عن بطولات زائفة.

ما جرى مع سليمان فيما بعد أنه حُكم عليه بالسجن المؤبد بعد ثلاثة أشهر، ثم وجِد مشنوقًا في زنزانته بالسجن الحربي في 7 أكتوبر سنة 1986، وصدر بيان بانتحاره ووقتها كرر القطيع حملات التهليل ووصم الحادث بأنه مُدبر، وأعاد بث فكرة المؤامرة مرة أخرى.

***

ـ3ـ

في القضية التي حملت رقم 142 لسنة 1985 عسكرية شهد أستاذ الطب النفسي الكبير الدكتور جمال ماضي أبوالعزايم بناء على طلب دفاع المتهم سليمان خاطر بأن رسم المخ الكهربائي للمتهم يؤكد أن لديه نوبات صرعية نفسية، وأن هذه النوبات يمكن أن تؤدي إلى هلاوس بصرية وسمعية(9).

وطبقًا لشهادة زميله عطية إبراهيم علي، فقد أخبره سليمان بأنه سيذهب إلى السياح ويحدثهم لأنه الوحيد بينهم الذي يتحدث اللغة الإنجليزية، وأنه ذهب بالفعل لهم

ثم سمعوا صوت الرصاص بعد ذلك، وقال له القاتل: «أبلغ أن سليمان ضرب أجانب وسيقتل آخرين»، ثم سمع رصاص آخر(8).

وشهد أمين الشرطة جمال رياض من قوة الأمن المركزي، والذي تلقى الإشارة بالحادث، بأنه تلقى إشارة الجندي عطية، فصعد إلى التبة ووجد سليمان جالسًا بجوار الجثث، فقال له سأتصل بالإسعاف لتُسعف المصابين، فرد عليه قائلًا: اذهب.. وقال المجند علي إبراهيم محمد إنه شاهد سليمان ممسكًا بسلاحه بعد أن أطلق رصاصه على الضحايا، ونفى أن يكون أي من الأجانب قد حاول الهجوم أو الاعتداء عليه(7).

وفي اعترافاته هو نفسه بعد يومين من الحادث، قال سليمان خاطر إن النيران خرجت دون قصد منه، وإنه فقد شعوره بعد أن شاهد إصابة بعض المجني عليهم، وإن الدليل على ذلك أنه سمح لأمين الشرطة بالصعود للتبة لإسعاف المصابين.

وذكر أنه قال للسياح: «ممنوع المرور.. نو باسينج».. لكنهم واصلوا سيرهم، وكانت يده على الزناد وخرجت رصاصات عشوائية. وقال أيضًا: «ولم أدرِ بنفسي ولم أعرف ما أفعله ووقفت مثل المجنون وبقيت مرة أضحك ومرة أبكي ومرة

أحط السلاح في صدري»(6).

ويعني كل هذا أمرًا من اثنين. الأول: أن يكون سليمان خاطر مريضًا نفسيًا بالفعل، لا يدرك ما يفعله، وأنه كان يمكن أن يشكل خطرًا على زملائه أنفسهم. أما الأمر الثاني، فهو أن يكون مدركًا جيدًا لما يفعله، لكنه يتقبل نصائح وإرشادات المحامين والمتاجرين به هروبًا من حكم الإعدام، فيحاول التظاهر بالهوس. وفي كلا الأمرين فإن إلصاق صفة البطولة به أمر مجحف ومسيء لمعنى البطولة ذاتها.

***

- 4 -

وفي الحكاية المذكورة، فقد كان هناك شخص وحيد تهمه مصلحة سليمان خاطر ويرفض تسييس قضيته هو عماد السبكي، محاميه الذي لجأت إليه عائلة المجند لخبرته في مجال القضاء العسكري.

وسأل عماد السبكي أشقاء سليمان خاطر سؤالًا واضحًا: «هل تريدون ابنكم بطلًا أم حيًّا؟» فأجابوه جميعًا قائلين: «حيًّا». فقال: «إن من مصلحة سليمان ألا تدخل قضيته في مدار التيارات السياسية المختلفة».

لكن يبدو أن تجار الدين والسياسة استطاعوا أن يقنعوا

سليمان بتغيير الدفاع والاستعانة بمحامين دافعوا عن قتلة الرئيس السادات لأنهم أكفاء وشجعان، وهو ما حدث بالفعل فتم اللجوء للمحامي الشهير عبدالحليم رمضان، وصاحبه في الدفاع شوقي خالد، وكمال خالد، وتم تحويل القضية إلى مظاهرة دعائية ضد إسرائيل.

ورغم محاولات تسييس القضية، ورغم محاولة ضرب أدلتها واعتراف القاتل، فإن الحكم جاء عنوانًا للحقيقة، فصدر في 28 ديسمبر 1985 بالسجن خمسة وعشرين عامًا. وبالفعل أودع المجند سليمان خاطر في السجن الحربي تنفيذًا للحكم.

ورغم تأكيد أسرة المجند المدان على احترامها لأحكام القضاء المصري، وثقتها فيه، فقد أصدروا بيانًا استنكاريًا للحكم، وتعالت من بعدها المطالبات الشعبية بالعفو عن السجين، ونظمت الحركات السياسية مظاهرات طلابية حاشدة في معظم الجامعات المصرية تنطلق جميعها من اعتبار سليمان خاطر بطلًا عظيمًا، ووصل الأمر إلى أن قدمت بعض الحكومات العربية الراغبة في المتاجرة بعداء إسرائيل طلبات رسمية لإصدار عفو رئاسي عنه.

وظل سليمان سبعة أيام في السجن الحربي، وفي اليوم الثامن وجِد مشنوقًا بمشمع مربوط في قضبان النافذة،

وصدر بيان رسمي يؤكد انتحاره، لكن القوى السياسية الضاغطة والمتسارعة قالت إنه قُتل. وتكررت المتاجرة بدمه مثلما كانت المتاجرة بإرهابه.

وقال الرئيس حسني مبارك وقتها، في حوار صحفي مع مكرم محمد أحمد نشرته «المصور» بعد الحادث بأيام: «كنت أتمنى حكم البراءة لسليمان خاطر كما كان يتمناها الآخرون، ولكن الذي حدث أن سليمان خاطر قتل أطفالًا ونساءً، وأن المحكمة أدانت الحادث وأصدرت الحكم ولم نتدخل من قريب أو بعيد، ولم تكن هناك ضغوط من أية جهة، ونحن لا نقبل ضغوطًا من أية جهة، وعندما جرت محاكمته، وكان لا بد من محاكمته؛ لأن الحادث وقع على الأرض المصرية، ولأن هناك ضحايا، ولأن سيادة الدولة تعني سيادة قانونها، ولأن عدم محاكمته يعني أن ندخل في عمليات انتقامية وأن نقدم المبرر لكي يفعل نفس الشيء جندي إسرائيلي في موقعه على الجانب الآخر من الحدود. وعندما جرت محاكمته سارعوا إلى التشهير الكاذب بأن هناك ضغطًا على مصر وأن إسرائيل ربطت بين قضية طابا وضرورة محاكمة سليمان خاطر، وهذا كله لم يحدث».

وأضاف الرئيس مبارك قائلًا: «لقد حزنت على مسلك المعارضة التي غاب عقلها، إلى حد أن تروج بين الناس أن

الموساد هي التي قتلت سليمان خاطر، وإذا لم تكن الموساد فلا بد أن يكون هناك في مصر مَن أراد أن يتخلص منه. إن كان اقتناع المعارضة هو أن الموساد قد استطاعت التسلل إلى السجن الحربي لتقتل سليمان خاطر في زنزانته، وإن كانت قناعتهم أن مصر تعجز عن أن تحمي سجينًا في زنزانته، وإن كان تفكيرنا قد وصل إلى هذا المنحدر الخطير، فقل على الجميع السلام»(5).

وكتب صلاح عيسى كلامًا موزونًا حرص فيه على التمسك بالمعارضة لكن بشيء من العقل والموضوعية، حيث قال: «ومع أن احتمال قيام سليمان خاطر بالانتحار في رأي دوائر محدودة من المراقبين والرأي العام، هو احتمال وارد بسبب طبيعة شخصيته الفائقة الحساسية ومشاعره الوطنية الأقرب إلى الشطحات الصوفية؛ إلا أن ذلك في رأي آخرين لا يمكن أن يكون قد حدث إلا بتهيئة الجو النفسي له بما يدفعه للانتحار، وهي من العمليات التي تتقنها أجهزة المخابرات»(4).

لكن القول الفصل في حكاية مصرع سليمان خاطر جاء على لسان شاهد غير بعيد في وقت مثالي جدًّا هو عام 2012 بعد سقوط نظام مبارك وخروج كثير من الصامتين عن صمتهم، وهذا الشاهد هو اللواء محمد فريد حجاج الذي

تحدث مع مجلة «الأهرام العربي» باعتباره أحد أهم أصدقاء المشير محمد عبدالحليم أبو غزالة، وزير الدفاع المصري وقت حادثة سليمان خاطر.

وقال حجاج في شهادته إن أبو غزالة أقسم له على أن الجندي سليمان خاطر الذي كان قد قام بقتل عدد من الإسرائيليين ثم وجِدت جثته بالسجن الحربي، قد انتحر ولم يقتله أحد، في شهادة جديدة تُنهي حالة الجدل التي ثارت والاتهامات للجيش بأنه هو الذي قتله(3).

***

- 5 -

كُتب اسم سليمان خاطر في التاريخ باعتباره بطلًا، ورددت أجيال جديدة الإشارة إليه باعتباره فدائيًا، وكان من الغريب أنهم لم يعرفوا عن تفاصيل قضيته شيئًا. وكان من الأغرب أن يروي البعض على صفحات التواصل الاجتماعي حكايات أسطورية عنه دون أن يضع أحد يده على الخيط الفاصل بين النضال والإرهاب.

لكن يبقى لنا - معشر الباحثين - نص مهم وفارق بعيدًا عن القضية ذاتها للكاتب الشهيد فرج فودة(2) في كتابه «الإرهاب» يتحدث عن الفارق بين النضال الحقيقي

والإرهاب، يقول فيه: «إن الإرهاب لا يعيش أو ينمو إلا في ظل الديماجوجية، وإلا عندما تفقد العين القدرة على التمييز بين الإرهاب والشرعية، وإلا عندما يتنادى البعض بأن هناك إرهابًا مشروعًا وإرهابًا غير مشروع؛ وإرهابًا مستحبًّا وإرهابًا غير مستحب، وهو ما يحدث في مصر للأسف الشديد، فقاتل السادات - لأن البعض يكره السادات - شهيد، وقاتل رجال الشرطة في أسيوط إرهابي، بينما هذا من ذاك، بل هذا هو ذاك. وأستطيع أن أذكر عديدًا من الأمثلة على هذا الفرز من الإرهاب. بل أذكر أنني كنت محاضرًا في ندوة في حزب التجمع بالإسكندرية، وسألني أحد الحاضرين عن رأيي في اغتيال الملحق الإداري الإسرائيلي، وأجبت على الفور بأنه إرهاب وأنه غير موجّه لإسرائيل لأن مَن يريد اغتيال إسرائيلي فأمامه أرض الله واسعة، لكنه عندما يحدث على أرض مصر فإنه يصبح موجهًا إلى أمن مصروإلى سلطة الدولة في مصر. وسألته لماذا لا يرى الأمر من جانبه العكسي ويتصور اغتيال متطرف إسرائيلي للملحق المصري في إسرائيل ويتخيل رد فعل المصريين. بل وماذا يحدث إن قررت كل فئة أن تصفي حساباتها بنفسها، فيقتل أعضاء الجماعات موظفي السفارات الاشتراكية لأنهم ملحدون، ويقتل اليساريون موظفي السفارات الغربية لأنهم إمبرياليون، وسوف يجد كل فريق حججًا أكثر من وجيهة،

وأكثر من منطقية لتبرير ما يفعل»(1).

ثم يجد الرجل في نفسه الجرأة على أن يُعاتب أصدقاءه من اليساريين على موقفهم من قضية سليمان خاطر فيكتب في الكتاب ذاته: «وليسمح لي الإخوة اليساريون ألا أعفيهم من اللوم، فأنا ما زلت أتذكر كيف تحولت صحيفتهم – الأهالي - إلى مهرجان لتحية سليمان خاطر، فقط لأنه قتل مجموعة من السياح الإسرائيليين، ولم يتوقف واحد منهم ليناقش نفسه بصدق: كيف يوصف قاتل الأطفال والنساء والشيوخ بالبطولة؟ وكيف يتبارى الجميع في اختلاق المبررات له؟ ولم يسأل واحد منهم نفسه سؤالًا عن موقفه لو أطلق واحد من أعضاء الجماعات رصاصًا على السياح الروس وقتل منهم الأطفال والنساء محتجًّا بانتهاك السوفييت لأرض أفغانستان المسلمة. وإذا كنت أوجِّه اللوم لليسار، فمن باب الصداقة، ومن منطلق الاحترام لتيار لم يُعرف عنه أنه امتشق سلاحًا غير الكلمة، بينما لا لوم لديَّ ولا تثريب على موقف صحيفة الشعب أو الأحرار؛ فمواقفهما متناسقة مع ما يعلنونه من أفكار وما يرتبطون به من تحالفات وما يظنونه في أحيان كثيرة ـ وبعض الظن إثم ـ من أنهم هم أنفسهم الشعب، وأنهم وحدهم الأحرار، وما يؤكدونه دائمًا في كتاباتهم من عمى الألوان وفرز الإرهاب

إلى إرهاب مُستحب وإرهاب مُستنكر، دون إدراك أنهم ينومون المجتمع مغناطيسيًّا ويقيدون حركته في مواجهة الإرهاب»(0).

وما طرحه الكاتب الشهيد يدفعنا للبحث والتساؤل عمّا يدفع مثقفين وسياسيين المفترض أنهم يمثلون نخبة المجتمع في خندق واحد مع الإرهاب من باب النكاية السياسية أو اتساقًا مع الفكرة الساذجة القائلة: «عدو عدوي صديقي». فمثل هذا السلوك ساهم فيما بعد في تفريخ أجيال لا حصر لها من القتلة والإرهابيين والمهاويس الذين يظنون أنهم أبطال.

***

---

(17) الشاعر العراقي مظفر النواب: شاعر عراقي ولد في يناير 1934، اعتنق الشيوعية، واختلف مع النظام السياسي في العراق. عاش عمره مُلاحقًا ولاجئًا، وقُبض عليه ووضع في السجن لعدة سنوات، ثم هرب وغادر بلاده مرة أخرى، واشتهر بقصائد الرفض السياسي.

(16) أكياد: القرية التي ينتمي إليها سليمان خاطر في مركز فاقوس بمحافظة الشرقية.

(15) عمر التلمساني: مرشد جماعة الإخوان المسلمين الثالث، ولد سنة 1904 وعمل بالمحاماة، وانضم إلى الإخوان في الثلاثينيات، وتعرض للسجن في زمن جمال عبدالناصر،ثم أفرج عنه الرئيس السادات، ورحل عن ثمانين عامًا سنة 1984.

(14) حسني أبو اليزيد - يا سليمان السلام - الدار المصرية للنشر والتوزيع- طبعة 2 ب، 1986، - ص 24.

(13) إبراهيم شكري: سياسي مصري من مواليد 1916. عُرف بميوله الاشتراكية وقُبض عليه خلال العهد الملكي عدة مرات. تولى وزارة الزراعة سنة 1977، ثم أسَّس بعد ذلك «حزب العمل الاشتراكي» والذي أصدر صحيفة «الشعب»، والتي وصفته بلقب المجاهد الكبير. وكان من الغريب أن يتحول هو وحزبه خلال الثمانينيات للإسلام السياسي، بالتحالف مع الإخوان المسلمين قبل أن يرحل سنة 2008.

(12) حسني أبو اليزيد ـ المصدر السابق ص 24.

(11) محمد إبراهيم كامل: وزير خارجية مصري سابق. من مواليد 1927، عُرف بالتطرف الوطني منذ الصغر وشارك في اغتيال أمين عثمان سنة 1946، والتحق بالخارجية سنة

1955 وأصبح وزيرًا للخارجية خلال عهد الرئيس السادات، ثم استقال سنة 1978 احتجاجًا على اتفاق كامب ديفيد.

(10) حسني أبو اليزيد ـ المصدر السابق ص 25.

(9) حسني أبو اليزيد ـ المصدر السابق ص 78 و79.

(8) حسني أبو اليزيد ـ المصدر السابق من ص 101 إلى 103.

(7) حسني أبو اليزيد ـ المصدر السابق ص112 إلى 114.

(6) التحقيقات الكاملة منشورة في كتاب حسني أبو اليزيد، واللطيف أن نقرأ تعليقات وكيل النيابة كل بضعة أسطر من عينة «وانتابته نوبة بكاء»، و«انتظرنا بعد انتهاء نوبة البكاء».. إلخ.

(5) مجلة «المصور» 18 يناير 1986.

(4) صحيفة «الأهالي» 22 يناير 1986.

(3) مجلة «الأهرام العربي» 6 سبتمبر 2012.

(2) فرج فودة: كاتب ومفكر مصري من مواليد أغسطس سنة 1945، عمل أستاذًا بكلية الزراعة، وشارك في تأسيس

«حزب الوفد الجديد»، ثم اختلف معه بسبب تحالفه مع الإخوان المسلمين واستقلال وتفرغ للمواجهة الفكرية للإرهاب، ونشر عدة كتب في هذا الشأن، وتم اغتياله في يونيو سنة 1992 على يد الجماعات الإرهابية المسلحة.

(1) فرج فودة ـ الإرهاب ـ الهيئة العامة للكتاب ـ 1992 ص 22 و23.

(0) فرج فودة ـ المصدر السابق. ص 25و26.

مصادر ومراجع

أولًا - المراجع العربية:

1. إبراهيم طلعت - أيام الوفد الأخيرة - طبعة مكتبة الأسرة، 2003.

2. إبراهيم عيسى ـ كل الشهور يوليو ـ رواية ـ الكرمة للنشر، 2020.

3. أحمد عزالدين ـ مذكرات مصطفى النحاس كما أملاها على سكرتيره كامل البنا، 2000.

4. أحمد المسلماني ـ الهندسة السياسية: مصر.. ما كان وما يجب أن تكون - الدار المصرية اللبنانية، 2018.

5. إسماعيل صدقي ـ مذكراتي ـ هيئة الكتاب، 1950.

6. بشري عبدالمؤمن ـ أنا يوسف إدريس - ريشة للنشر، 2020.

7. جمال الغيطاني ـ التجليات ـ الشروق ـ 1986.

8. جمال الغيطاني ـ توفيق الحكيم يتذكر ـ مكتبة الأسرة، 2010.

9. حسني أبواليزيد ـ يا سليمان السلام ـ المصرية للنشر

والتوزيع - ط2، 1986.

10. حسنين كروم ـ إبراهيم فرج: ذكرياتي السياسية - مكتبة الحياة، 1983.

11. حسين مؤنس ـ باشاوات وسوبر باشاوات - الزهراء للنشر.

12. خالد محيي الدين ـ والآن أتكلم ـ مركز الأهرام للنشر. طبعة أولى1992.

13. سامي شرف ـ سنوات وأيام مع جمال عبدالناصر - جزء أول - المكتب المصري الحديث، 2014 .

14. سيد قطب ـ أشواك ـ رواية ـ دار سعد بالفجالة. (بدون تاريخ).

15. سيد قطب ـ معالم في الطريق - طبعة مجهولة.

16. شحاتة هارون ـ يهودي في القاهرة ـ نسخة إلكترونية.

17. صبري أبوالمجد ـ محمد فريد.. ذكريات ومذكرات ـ كتاب الهلال، 1969.

18. صفاء محمد شاكر ـ مذكرات صلاح سالم ـ دار الوثائق القومية، 2013 .

19. طه حسين ـ مستقبل الثقافة في مصر - دار المعارف، 1996.

20. عباس حافظ ـ مصطفى النحاس زعيم الفقراء - هلا للنشر، 2011 .

21. عبدالرحمن الرافعي وسعيد عاشور ـ مصر في العصور الوسطى ـ دار النهضة 1977.

22. عبدالعظيم رمضان ـ تطور الحركة الوطنية - الجزء الرابع ـ هيئة الكتاب.

23. عبدالعظيم رمضان ـ مذكرات سعد زغلول - الجزء الأول - هيئة الكتاب 1987.

24. عبدالعظيم رمضان ـ مذكرات سعد زغلول - الجزء الثاني - هيئة الكتاب 2008.

25. عرفة عبده علي ـ يهود مصر.. من الخروج الأول إلى الخروج الثاني - قصور الثقافة 2008.

26. عرفة عبده علي ـ يهود مصر منذ عهد الفراعنة حتى عام 2000 - هيئة الكتاب 2000.

27. عمرو فتحي ـ موسوعة أغاني عبدالحليم حافظ ـ الكرمة للنشر، 2017.

28. علي فهمي ـ مصطفى كامل في 34 ربيعًا - مطبعة اللواء، 1908.

29. فتحي رضوان ـ 72 شهرًا مع جمال عبدالناصر - كتاب الحرية ـ الطبعة الثانية، 1986.

30. فرج فودة ـ الإرهاب ـ هيئة الكتاب، 1992.

31. كريم ثابت - عشر سنوات مع فاروق – دار الشروق، 2011.

32. محمد الباز ـ عظماء وهلافيت ـ كنوز للنشر، 2010.

33. محمد التابعي ـ من أسرار السياسة المصرية .. أحمد حسنين باشا، مكتبة الأسرة، 1998.

34. محمد جلال كشك ـ كلمتي للمغفلين ـ الزهراء للنشر، 1985.

35. محمد حافظ دياب ـ سيد قطب: الخطاب والأيديولوجيا - رؤية للنشر، 2010.

36. محمد حسين هيكل ـ مذكراتي في السياسة المصرية - الجزء الثاني ـ دار المعارف، 1977.

37. محمد نجيب ـ كلمتي للتاريخ. (بدون تاريخ).

38. محمود أبوالفتح ـ الوفد المصري، 1927.

39. محمود متولي ـ الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها ـ قصور الثقافة، 2011.

40. مصطفى أمين ـ عمالقة وأقزام ـ أخبار اليوم، (بدون تاريخ).

41. مصطفى أمين ـ من واحد لعشرة ـ كتاب اليوم، 1990.

42. مصطفى أمين ـ من عشرة لعشرين ـ العصر الحديث للنشر والتوزيع، 1990.

43. مصطفى بيومي ـ النبش في الذاكره ـ بورصة الكتب، 2018.

44. مكرم عبيد - الكتاب الأسود في الزمن الأسود - قصر عابدين، 1944.

45. نجيب محفوظ ـ المرايا ـ مكتبة مصر، (بدون تاريخ).

46. هشام عيسى ـ حليم وأنا ـ دار الشروق، 2010.

47. يوسف القرضاوي ـ ابن القرية والكتاب ـ الجزء الأول - دار الشروق، 2002.

48. يوسف إدريس ـ البحث عن السادات ـ المؤسسة الليبية

العامة للنشر ـ 1984.

ثانيًا – المراجع الأجنبية:

1- James Toth. Sayyid Qutb: The Life and Legacy of a Radical Islamic Intellectual 1st Edition

2-lucette lagnado. The man in the white sharkskin suite 2008

ثالثًا – الوثائق:

1. الكتاب الأبيض ـ الرد على عريضة مكرم عبيد ـ حكومة مصر 1943.

2. تقرير التجارة والصناعة ـ الحكومة المصرية، 1917.

3. سنة على الحركة المباركة ـ رئاسة الجمهورية المصرية، 1953.

رابعًا - الصحف والدوريات والمواقع الإلكترونية:

• الأخبار - الأهرام - الأهرام العربي - الجهاد - الرأي اليوم - الشباب - المصري اليوم - اللواء - المصور - أيام مصرية - موقع بي بي سي.

خامسًا - جوانب من محاورات شخصية:

- إبراهيم عيسى (كاتب وإعلامي)
- أحمد كمالي (مؤرخ)
- أشرف العشماوي (روائي)
- محمود أباظة (سياسي سابق)